

دراسات اندلسية وموريسكية



المشروع القومي للترجمة

المركز القومي للترجمة

تأليف: نخبة من أبرز المتخصصين
ترجمة وتقديم: جمال عبدالرحمن

1192

دراسات
أندلسية وموريسكية

المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١١٩٢

- دراسات أندلسية وموريسكية

- نخبة من أبرز المتخصصين

- جمال عبد الرحمن

- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة لمجموعة مقالات

كتبها باحثون بارزون حول عدة جوانب تتعلق

بقضية مسلمى الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

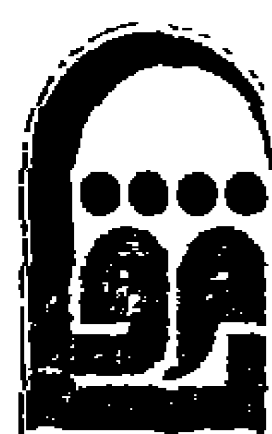
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 - 27354526

دراسات أندلسية وموريسكية

تأليف: نخبة من أبرز المتخصصين
ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

دراسات أندلسية وموريسكية

ترجمة وتقديم : جمال عبد الرحمن

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨

٢٧٦ ص ، ٢٤ سم

١ - الآدب العربى - تاريخ - العصر الأندلسى .

٢ - الآدب العربى . تاريخ ونقد .

(أ) عبد الرحمن ، جمال (مترجم ومقدم)

٨١٠ ، ٩٦

(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١١٧٠٥

الترقيم الدولى 6 - 765 - 437 - I.S.B.N. 977

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتوى

9

تقديم المترجم

القسم الأول: دراسات أندلسية

17

١- الاحتفال بأعياد مسيحية في الأندلس

31

الجزء الأول: "الدر المنظم" للعزفى

45

الجزء الثانى: نصوص الطرطوشى والقاضى عياض والونشريسى

61

٢- معجزات إسبانية فى مؤلف جدلى إسلامى

القسم الثانى: دراسات موريسكية (الجانب الدينى)

103

١- ثقافة موريسكى: قراءة فى المخطوطة ٩٦٥٤ بمكتبة إسبانيا الوطنية

125

٢- رسالة موريسكية إلى العالم: قراءة فى مخطوطتين بمكتبة إسبانيا الوطنية

139

٣- معراج النبى محمد فى المخطوطات الأخمياضية وفى مخطوطة عربية

151

٤- الكلمة الآن للموريسكيين (أدب الأقلية فى عصر النهضة الإسبانية)

القسم الثالث: دراسات موريسكية (الجانب التاريخى)

165

١- حرب غرناطة كما رآها القشتاليون من خلال مخطوطة لم تُنشر بعد

191

٢- مصدر لمعرفة تاريخ الموريسكيين (محاضر اجتماعات المجلس البلدى)

213

٣- خصومة بين السيد كوينكا وموريسكيي أورناتشوس

243

٤- أسطورة المؤامرة الموريسكية الكبرى

265

٦- وثائق حول الموريسكيين فى المغرب.

شكر واجب

لم يكن ممكنا للترجمة العربية لهذا الكتاب – ولغيره من الكتب التي ترجمتها أو راجعت ترجمتها وتتناول التاريخ الأندلسي والموريسكى- أن ترى النور لولا العون الذى قدمه لى أساتذة وزملاء وتلاميذ وأصدقاء كثيرون، أذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر:

إحسان على، إنغريد بيخارانو، خابيير رويث، خوان بيرنيت، خوان كارلوس بيايردى، دولورس برامون، رفائيل أو عمى إدريس الإشبيلي، سعيد عطية، صلاح رمضان، عبد الجليل التميمي، عمرو عبد الباقي، فاطمة مكى، فيديريكو كورينتى، فيرناندو دى أغريدا، كارمن أورتيث، لوثى لوبيث بارالت، ماركيث بيانوييا، ماريلو بيريث، مانويلا مارين، محمد السبعوى ، محمد نور الدين عبد المنعم، محمود على مكى، مرثيديس غارثيا أرينال، مريم سعادة، مناع عبد المحسن، ميغيل أنخيل بونيس إيبارًا، أسرة باروخا، أسرة غالميس دى فوينتيس، أسرة غوثالبيس بوستو.

كلهم ساعدنى وكان كريماً معى إلى أقصى حد وبذل من وقته وجهده الكثير، وقد أثقلت على بعضهم بأسئلة لم يكن يستطيع أن يجيب عنها غيره، فإليهم جميعاً أسمى آيات شكرى.

المترجم

تقديم المترجم

من بين الكتب التي أصدرها المشروع القومي للترجمة هناك كتب عبارة عن مقالات جمعها أصحابها ونشروها في كتب (انظر كتابي غوثالبيس بوستو "الموريسكيون في المغرب" و"المنظري الغرناطي مؤسس تطوان"، وكتاب ماركيت بيانويبا "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى") وفي بعض الأحيان يعد الباحث دراسة موجزة ثم لا يتمكن من نشرها في كتاب (انظر حالة مقال غارثيا أرينال حول الوضع الحالي للدراسات الموريسكية. هذا المقال ينذر أن تجد كتابًا يؤرخ للقضية الموريسكية دون أن يعود إليه). ما العمل مع مقال كهذا؟ رأيت أن أضع أمام القارئ العربي مجموعة دراسات قصيرة لكل منها أهميته، وقد حاولت قدر الإمكان أن تكون للكتاب وحدة موضوعية. لا أزع أن المحاولة كللت بالنجاح تمامًا، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

الكتاب الذي نقدم له إذن عبارة عن دراسات موجزة لمؤلفين عديدين، لم نتح لبعضهم فرصة نشر دراسته في كتاب كامل.

القسم الأول من الكتاب يتحدث عن موضوع لم يطرقه الباحثون كثيرًا، وهو تأثير الإسلام الأندلسي بالمسيحية، وكان أسين بالاثيوس قد أفرد لهذا الموضوع كتابًا مستقلًا وضع له عنوانًا معبرًا *El Islam cristianizado* "الإسلام المتصّر" أو "الإسلام المتأثر بالمسيحية"، غير أن الباحث المتخصص في الفكر الإسلامي ميغيل كروث إيرنانديث ذهب إلى أن بالاثيوس أخطأ في اختيار عنوان كتابه، وقال - في محاضرة ألقاها في جامعة القاهرة - إن بالاثيوس تحدث في كتابه عن المسيحية التي تأثرت بالإسلام. حديث كروث إيرنانديث إذن يعضد رؤيتنا للموضوع ويجعل اختيار مقالات فيرناندو دي لا غرانخا عملاً مشروعًا تمامًا.

تبين مقالات فيرناندو دي لاغرانزا أن تسامح المسلمين مع مسيحيي الأندلس لم يقتصر على السماح ببناء الكنائس والأديرة، أو توليهم مناصب عليا في الدولة، بل امتد ليشمل مشاركتهم في الاحتفال بعيد الميلاد وعيد العنصرة -المعروف حاليًا بعيد القديس خوان أو ميلاد النبي يحيى عليه السلام - وخميس أبريل. لسنا بصدد تحديد ما إذا كان السبب في ذلك يعود إلى أن كثيرًا من مسلمي الأندلس تزوجوا من مسيحيات، أو أن أسبابًا سياسية - تتمثل في المحافظة على ولاء مسيحيي الممالك الإسلامية - هي التي كانت وراء مشاركة المسلمين في الاحتفالات. المهم هو أن تلك الاحتفالات كانت واقعًا ملموسًا في الأندلس كان له رد فعل من جانب بعض الفقهاء.

القسم الثاني من الكتاب يدور حول الموريسكيين، ويتناول الجانب الديني بالتحديد، وأحسب أن الدراستين الموجزتين للمترجم توضحان أن تأثير الإسلام الأندلسي بالمسيحية واصل خطاه حتى بعد سقوط غرناطة: لم تكن "رسالة الشيخ أحمد" إلا عملاً موريسكياً أراد الحفاظ على ما تبقى من دين إسلامي في شبه الجزيرة مستغلاً ما فعله المسيحيون في العصور الوسطى حين ظنوا أن دينهم يتعرض لخطر الفناء. ثم كانت دراسة ثقافة لاجئ تونس الموريسكي فرصة للتعرف على استغلال الموريسكيين لأساطير مسيحية تزعم اشتراك سانتياغو بعد مماته في الحروب ضد المسلمين، وهو الأمر الذي تأثر به مسلمو إسبانيا فاخترعوا أسطورة مناظرة، وزعموا أن علي بن أبي طالب لا يزال يشترك في المعارك الدائرة بين مسلمي إسبانيا ومسيحييها.

قبل أن نواصل الحديث أريد أن أتوقف قليلاً عند تأثير الإسلام الأندلسي - قبل سقوط غرناطة وبعده - بالمسيحية. كان التأثير في المرحلة الأولى نموذجًا لتسامح الإسلام مع الديانات الأخرى. إن سماح ملوك الأندلس بالاحتفال بأعياد مسيحية لم يكن سوى دليل على ذلك التسامح الذي اتصف به العصر الأندلسي. أما

بعد سقوط غرناطة وتعرض الإسلام الأندلسي لخطر حقيقى فكان الدافع وراء ذلك أمرين مختلفين:

١- محاولة أخيرة للتمسك بالدين (الزعم بأن النبی صلى الله عليه وسلم جاء فى المنام وأمر بأن يصوم الناس ثلاثة أيام).

٢- التقرب من أصحاب دين الغالبية إذا كان ذلك لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية (يتحدث الإسلام عن مريم فيذكر أن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، لكنه لا يذكر أن السيدة مريم احتفظت بعذريتها بعد أن وضعت، وعليه سار الموريسكيون على نهج الكاثوليك وقالوا بعذرية السيدة مريم لأن ذلك لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية).

يتضمن القسم الثانى كذلك دراستين لعلمين من أعلام الدراسات الموريسكية أحدهما ألمانى هو الدكتور رينولد كونزى والأخرى للدكتورة لوثى لوبيت بارالت من بويرتو ريكو، وهى التى تعتبر دون جدال عميدة الاستعراب فى الأمريكتين. يتناول مقال كونزى المخطوطات الأخمياوية التى تعرضت للإسراء والمعراج، ويبين أنها تتناقض فيما بينها، وأن الحل يكمن فى الرجوع إلى الأصول العربية لهذه المخطوطات. وللحقيقة نقول إن غالبية الأدب الأخمياوي لم يكن سوى ترجمة لأصول عربية، وعليه فإننا نتفق مع البروفيسور كونزى فيما ذهب إليه. أما بارالت فهى تتحدث عن الأدب الأخمياوي الذى كتبه الموريسكيون بحروف عربية وبلغه إسبانية. تقول بارالت إن ذلك الأدب يقدم صورة صادقة للواقع الذى عاشه الموريسكيون، فى مقابل "الأدب المتعاطف مع المسلم" الذى كتبه بعض كتّاب إسبانيا المعاصرين للمشكلة الموريسكية، ذلك أن الأدب "المتعاطف" كان يقدم صورة "ما يجب أن يكون"، لكنها صورة وردية لا تمت للواقع بصلة، وإن كانت تعبر عن أمانى يرغب البعض فى أن تكون واقعاً معيشاً. ولعل من يطالع رواية "ابن سراج" وما فيها من وصف خيالى لمسلم غرناطة، يدرك البون الشاسع بينها وبين المأساة التى تعرض لها الغرناطيون بعد سقوط دولتهم الإسلامية، حيث لم

ينج من المعاناة فقير أو غني (تأمل قضية كوسمي بن عامر الذي كان من الوجهاء، لكن مكانته الاجتماعية لم تقف حائلا دون تعرضه للمضايقات).

القسم الثالث يتحدث عن جانب آخر من جوانب القضية الموريسكية ويعرض وثائق لم تتح الفرصة - على حد علمنا - لنشرها في كتاب كامل. الدراسة التي نشرها فيرنانديث نيبيا تبين إلى أي مدى كان تعنت السلطات الكاثوليكية مع الموريسكيين، أما دراسة بونيس إيبارا ودراسة كابريانا فتوضحان أن الإسبان قد اهتموا بالتوثيق منذ البداية، وهو ما يدعونا إلى البحث في الوثائق العربية علنا نجد فيها ما يقدم وجهة نظر أخرى للقضية الموريسكية، أو - على الأقل - الاهتمام بحفظ الوثائق التي لم تضع بعد. وعلى ذكر تقديم وجهة نظر أخرى أقول إن ماركيت بيانوييا جمع كتابا كاملا عبارة عن مقالات كتبها في هذا الموضوع وقد نشر المجلس الأعلى للثقافة ترجمته العربية منذ عامين. من هذا الكتاب تحديدا اخترنا دراسة كان بيانوييا قد أعدها للمشاركة في مؤتمر للدراسات الموريسكية، ولا يختلف مضمون هذه الدراسة في شيء عن الدراسة التي أدرجها المؤلف في كتابه المشار إليه. الأمر لا يعدو أن يكون تعديلا في صياغة بعض العبارات ومراعاة الفرق بين دراسة مستقلة ودراسة تشكل جزءا من كتاب. أما دراسة خيل غريماو حول موريسكي المغرب فهي تخطو خطوة أخرى على طريق إيضاح الأثر الموريسكي في المغرب، قد نفيد منها في محاولة رصد الأثر الأندلسي في مصر وما يكون له من تأثيرات قد تتمثل في إدخال نمط من العمارة أو في وجود مخطوطات خلفها أندلسيون هنا أو هناك. ويبدو أن الأثر الأندلسي في مصر يزيد عن التصور المبدئي لأحدنا. لاحظت ذلك من خلال متابعتي لسلسلة محاضرات نظمها معهد ثيربانتييس بالقاهرة حول هذا الموضوع ألقاها أستاذانا مختار العبادي ومحمود على مكي وغيرهما من الأساتذة المتخصصين. أعود إلى دراسة خيل غريماو فأقول إن الأبحاث التي نشرت حديثا تجاوزتها تماما. يكفي أن نعرف أن غوثالبيس بوستو قد نشر كتابا موثقاً عن الموريسكيين في المغرب، وأن لدينا

للمؤلف نفسه كتابًا كاملاً عن المنظري مؤسس تطوان، وقد ترجم الكتابان إلى العربية، والكتاب الثاني على وشك الخروج إلى النور ضمن إصدارات المركز القومي للترجمة، إن لم يكن قد صدر بعد. هناك أيضاً كتاب ميكيل دي إيبالنا بعنوان "الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى"، وهو يتحدث بشكل جزئي عن الوجود الموريسكي في المغرب. من ناحية أخرى، لا نستطيع أن نوافق المؤلف في كل ما ذهب إليه عند حديثه عن عائلات أندلسية وموريسكية استوطنت المغرب، فلا يمكن أن تكون عائلة العطار وعائلة السراج حكراً على الأندلس، فهذه مهن موجودة في أماكن عديدة وبالتالي فهناك عائلات تحمل الاسم نفسه وتنتمي إلى أماكن مختلفة.

هناك دراسة لفتت نظري بشكل خاص. أتحدث عن محاضر اجتماعات المجلس البلدي في إحدى مدن إسبانيا (مالقة) في غمار الثورة التي قام بها الموريسكيون. إن المحاضر دقيقة في تسجيل وقائع الجلسات حتى إن أحدنا يشعر وكأنه كان من بين الأعضاء يتابع تطورات ثورة الموريسكيين. هذا التسجيل الدقيق للجلسات (نتحدث عن أداء السلطات الإسبانية في القرن السادس عشر) لا يملك المرء معه إلا أن يتساءل: متى سنتعامل مع تاريخنا المعاملة اللائقة من حيث دقة التسجيل ومن حيث المحافظة على الوثائق؟

أعود إلى الحديث عن مقالات فيرناندو دي لاغرانزا فأقول إنها تضمنت حشداً من فقرات من نصوص قديمة، بعضها غير معروف للقارئ غير المتخصص. رأينا ألا نترجم الترجمة، بل أن نعود إلى النص الأصلي ننقل منه الفقرة التي أوردها المؤلف، وقد كلفنا هذا العمل جهداً يعلمه تماماً كل من تعامل مع أمهات الكتب غير المتاحة للعامة، بل إننا في بعض الأحيان كنا قد انتهينا من ترجمة نص ما، فلما عثرنا على النص الأصلي أثّرنا أن نورد كما هو. أما النصوص التي لم نتمكن من العثور عليها فلم يكن أمامنا سوى ترجمتها. وقد استعنا في كتابة أسماء الأعلام بالشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وقد عثرنا على

الجزء الأعظم من أسماء الشخصيات والأماكن الجغرافية وعناوين المؤلفات، أما ما لم نتمكن من العثور عليه فقد اجتهدنا في كتابته ولم ندخر وسعاً في البحث عنه.

هذا الكتاب إذن - بما يتضمنه من دراسات لا تكاد توجد في كتاب كامل- يضيف الكثير لمن يريد معرفة تاريخ الأندلس ولمن يريد أن يتابع تاريخ المسلمين في إسبانيا بعد سقوط دولة المسلمين في غرناطة.

اعتدت في مقدمة ترجمة أو مراجعة كتاب أن أشكر عددًا محدودًا ممن ساهموا في خروج الكتاب الإسباني في لغة عربية، أما هنا فأصحاب الفضل كثيرون، لهذا رأيت أن يكون تصدير الكتاب تعبيرًا عن امتناني لهم جميعًا.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

القسم الأول

دراسات أندلسية

الاحتفال بأعياد مسيحية في الأندلس

(مصادر لدراسة الموضوع)

الجزء الأول: "الدر المنظم" للعزفى

فيرناندو دى لا غرانخا

كان هناك فى إسبانيا الإسلامية، كما فى بلاد إسلامية أخرى، احتفالان دينيان كبيران فى كل عام: عيد الفطر وعيد الأضحى. كان يحتفل بالعيد الأول عند ظهور هلال شهر شوال الذى ينتهى معه صيام رمضان، وكان يحتفل بالعيد الثانى فى العاشر من شهر ذى الحجة^(١).

هذان العيدان، بالإضافة إلى الشعائر الدينية البحتة وصلاة الجماعة التى يؤمها "صاحب الصلاة"، كان لهما نفس الطابع الذى يميز كل الاحتفالات الشعبية: كان الناس يخرجون من الشارع فى ثياب حسنة أو جيدة وفى البيوت كانت تقدم، طبقاً لإمكانيات كل أسرة، أشهى المأكولات.

لدينا وصف للعידين فى مختلف العصور وحتى اليوم تمثلان صورة حية فى مختلف بلاد الإسلام خاصة فى الريف^(٢).

وكما كان التاريخ الميلادى لهذه الأعياد يتغير عاماً بعد عام، كانت هناك أعياد أخرى غير إسلامية يحتفل بها المسلمون والمسيحيون معاً فى أيام محددة.

أحد هذه الأعياد - وأصله فارسى - هو النوروز أو النيروز، وهو يوافق بداية التقويم الشمسى الفارسى، وقد تعرض لبعض التغييرات من حيث تاريخ الاحتفال به بعد الإسلام^(٣).

ويبدو أن المؤلفين الأندلسيين قد نسوا أن يخبرونا بموعد الاحتفال به كما يقول ليفى بروفنسال الذى يرجح أن يكون تاريخه هو اعتدال فصل الربيع^(٤)، ويحدده هنرى بيريز بدوره، بشيء من التحفظ، فى أول يناير^(٥).

لدينا بيانات قليلة ومتفرقة عن عيد النيروز في الأندلس. كانت الليلة التي تسبقه يعتبرها الأندلسيون أفضل ليلة للزفاف، في هذا اليوم كانوا يعدون فطائر على شكل مدن، وكانوا يتبادلون الهدايا ويوجهون المديح شعراً إلى الشخصيات البارزة^(٦). وحول اليناير، وهو كما سنرى نفس العيد، لدينا زجل رائع لابن قزمان سنشير إليه في حينه.

كان العيد الثانى هو المهرجان، وهو ذو أصل فارسي أيضاً، ويوافق تاريخه اعتدال فصل الخريف، واختلط في النهاية بعيد العنصرة^(٧) الذي يوافق ٢٤ يولية، وهو اليوم الذي يحتفل المسيحيون فيه بالقدّيس خوان*.

كان النيروز أو اليناير والمهرجان أو العنصرة هما العידان اللذان يصفهما ليفي بروفنسال بأنهما "كوكبيان" لكنهما كانا في إسبانيا دينيين أيضاً رغم أن أصلهما ليس إسلامياً.

إن البيانات التي لدينا حول هذين العيدين قليلة لا تكاد تزيد عما عرضناه، ورغم ذلك يمكن دراستهما رغم أنهما اتخذتا أشكالاً جديدة بين سكان شمال إفريقيا.

وهناك عيد مهم أصله مسيحي هو عيد الميلاد الذي كان المسلمون يحتفلون به، ولا أعتقد أن أحداً تحدث عن ذلك حتى الآن، بالإضافة إلى عيد آخر^(*).

منذ سنوات طويلة أحاول جمع المادة العلمية لكي أنشر دراسة شاملة عن هذه الأعياد المسيحية التي كان المسلمون والمسيحيون يحتفلون بها معاً في الأندلس. إنه موضوع لم يسترع انتباه من أرخوا لإسلام الأندلس. حتى سيمونيت في كتابه الضخم عن "تاريخ نصارى الأندلس" لم يخصص للموضوع المساحة التي يستحقها، ومع أنه قد وفق في العثور على أخبار مهمة فإنه لم يشأ استغلالها^(٨).

(*) هو النبي يحيى عليه السلام كما سيأتى ذكره. (المترجم)

أعتقد أن الموضوع مهم جدا لأنه يمكننا من التعمق في دراسة أحد المجالات المهمة في تاريخ الأندلس الاجتماعي: مجال التعايش بين النصارى الخاضعين والمسلمين المسيطرين وهم يحتفلون معًا بالأعياد المسيحية. لقد فرض المهزوم نفسه على المنتصر كما حدث في مرات عديدة، وجاء ذلك بالتحديد في المجال الذي يفصل الجانبين: المجال الديني. من هنا تجيء حشرات الفقهاء التي سنستمع إليها وهم يدعون المتدينين المسلمين إلى التخلي عن تلك الأعياد المسيحية ولفتهم الأنظار إلى تنامي "الإلحاد" على جانبي مضيق جبل طارق. كان يجب عليهم ذلك، وكأتباع متحمسين لمذهب الإمام مالك توجهوا إلى السماء وهم أمام أمر يهدد سلامة معتقدات أبناء دينهم. كان الأمر عبارة عن قدر مبالغ فيه من الحمية الدينية إذ إن ذلك لم يكن معناه إطلاقاً اقتراب المسلمين من العقيدة المسيحية، وكان الفقهاء أول من يعلم ذلك. وقد كان لهذه الظاهرة سابقة في الشرق لاحظها آدم ميز وعرضها باقتدار:

"إن مقدار هشاشة قشرة الطلاء الإسلامية - التي كانت تغطي حياة الشعب - تؤكد الأعياد. كان المسلمون يحتفلون مع المسيحيين بالأعياد الدينية المسيحية، إذ أن معظم الأعياد المسيحية كانت تعكس عادات شعبية قديمة، وهكذا فإن كثيراً من أماكن الحج القديمة في مصر والعراق كانت مراكز لعبادات وثنية، ولم تكن الأيام المخصصة للاحتفال بقديسي الأديرة المسيحية القائمة هناك، سوى أسماء جديدة للاحتفالات تخص الآلهة القديمة. إن مسلمي البلد لم يرفضوا متعة الاحتفال بهذه الأعياد التي أسعدت حياة الجدود من الوثنيين والمسيحيين. لكنهم - على العكس من المسيحيين - رفضوا تأسيس أساطير جديدة واقتصروا على أن يُترك للمسيحيين الاحتفال الديني وأن يشتركوا معهم فقط في الجانب البهيج كما كان يفعل الآباء" (٩).

بالفعل، وبرغم التحذير الموجود في الأحاديث النبوية - أو تلك التي لم تتأكد صحة نسبها إلى النبي - التي تمنع المسلمين من المشاركة في الأعياد المسيحية فإن

عامة الشعب وأصحاب المناصب العليا بل الخليفة نفسه كانوا يندمجون تمامًا في تلك الأعياد التي تخلو - بالنسبة لهم - من المضمون الديني.

وكانت الأعياد التي يحتفل بها في الأندلس - بالإضافة إلى رأس السنة الميلادية- تحتفل بمولد اثنين من الأنبياء المعترف بهم في الإسلام: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا. ففي روح الشعب كان هناك شعور بالحب نحوهما وكان المضمون الديني للاحتفال بهما - باستثناء تغييرات طفيفة حسب ثقافة الأشخاص- متماثلا سواء بالنسبة للمسيحيي أو بالنسبة للمسلم. ولم يكن بمقدور العلماء القضاء على هذه الأعياد من جذورها لأن عيسى وزكريا كانا بالنسبة لهم نبيين مبجلين. لكنهما كانا أيضًا ابن الله والقديس خوان بالنسبة للمسيحيين. إذا كان عيد النيروز لم يسبب قلقًا في المشرق لأنه كان احتفالًا شعبيًا يخص كل الأديان والطبقات الشعبية فإنه في الغرب قد اكتسب عداء الفقهاء لأنه عيد ديني رغم اختلاطه ببعض الأمور الوثنية.

لم يكن المسلمون في الشرق يشاركون المسيحيين احتفالاتهم بشكل روحى لكنهم كانوا يشتركون معهم في البهجة والخمر والغناء. في الغرب كان من الصعب الفصل بين المجالين.

في الصفحات التالية من هذه الدراسة التي تبدأ سلسلة من المقالات حول الموضوع أحقق وأترجم فقرة مطولة تعتبر أهم وأكبر شاهد وجدته في هذا الإطار. حول كتاب "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" قدمت دراسة في جامعة غرناطة في أكتوبر ١٩٦٢ في إطار جلسات عن الثقافة الإسبانية الإسلامية واستخدمت هذه الدراسة أيضًا وأنا أتقدم لشغل وظيفة أستاذ للغة العربية والأدب العربي في جامعة سرقسطة في ديسمبر عام ١٩٦٣. منذ ذلك الحين لم أتوقف عن جمع أخبار عن هذا الموضوع، ولا يتناسب الحصاد مع الجهد المبذول، لأنني كنت أهدف إلى نشر كتاب عن الأعياد المسيحية في الأندلس. ومع ذلك، فمنذ أشهر قليلة عندما سلم أستاذي إيميليو غارثيا غوميث إلى المطبعة كتابًا عن ابن قزمان^(١٠) - وهو عمل

عظيم بكل المقاييس وسيمثل علامة بارزة في الدراسات العربية داخل إسبانيا وخارجها- أطلعتة على فقرة من كتاب "الدر المنظم" تعتبر شبيهة بالزجل رقم ٧٢ لديوان ابن قزمان القرطبي، وعندما قرأ دراستي شجعتني على نشرها بأسرع ما يمكن.

كتاب "الدر المنظم":

اهتم المثقف العظيم جامع الكتب المقرئ بإمدادنا بأخبار عن هذا الكتاب وأصوله وبأن ينقل لنا فقرات من مقدمة العمل الذي ألفه أبو القاسم العزفي الذي انتهى من تحرير الجزء الذي جمعه أبوه الفقيه المحدث أبو العباس^(١١).

قام أبو القاسم العزفي بدور مهم للغاية في تاريخ سبته اعتباراً من النصف الثاني من القرن الثالث عشر خلال سنوات الاضطراب التي انسحب فيها الموحدون من الساحة السياسية على جانبي المضيق لكي يتركوا المجال لبني مرين.

إن شخصية أبي القاسم العزفي ملك سبته المستقل وذريته تستحق دراسة أخرى أشعر أحياناً بالرغبة في القيام بها. وقد استعمل دوفورك Dufourcq في دراسته عن قضية سبته^(١٢) المصادر المسيحية فقط أو المصادر العربية التي استطاع هو أن يقرأها. وهناك بيانات أخرى عن الموضوع في كتابه الجديد الموثق^(١٣). ورغم أنني سأعتمد عليه منذ الآن كنقطة انطلاق فإن المصادر العربية التي لم تترجم والتي نشرت خلال السنوات الأخيرة والمصادر التي لم تنشر بعد تشكل كلها إضافات لدراسة الأسرة.

إلى جانب أهمية أبي القاسم العزفي في مجال التاريخ السياسي - وهو الجانب الوحيد الذي درس حتى الآن- فإن نشاطه الديني ليس أقل أهمية، فقد أرسى في غرب الإسلام عيد المولد النبوي الذي يحتفل به حتى الآن في قلب الإسلام في المغرب. لهذا الغرض بالتحديد وكإعداد له انتهى من تحرير كتاب "الدر المنظم في

مولد النبي المعظم" الذي بدأه أبوه أبو العباس أحمد (٥٥٧ - ٦٣٣هـ - ١١٦٢١ - ١٢٣٦م) وكرس جهده كله خلال سنوات حكمه (٦٤٧ - ٦٧٧ هـ - ١٢٤٩ - ١٢٧٨ م) لكي يأخذ الاحتفال بعيد المولد النبوي صفة طبيعة وأن يقضى بذلك على معظم الأعياد المسيحية التي كان المسلمون يعتبرونها أعيادهم.

يبدأ الكتاب بمقدمة طويلة يبرز فيها أبو القاسم العزفي الغرض الذي دفعه إلى تكملة الكتاب الذي بدأه والده. المقدمة جزء صغير من الكتاب ولكنها تعتبر أهم جزء فيه. عن المقدمة بالتحديد سنتحدث في هذه الصفحات.

لم يَقم أحد على حد علمي بلفت الأنظار إلى أهمية كتاب العزفي بالتأكيد لأن أحدًا لم يكلف نفسه بمراجعة المخطوطات الخاصة به. حتى سيمونيت الذي كان له حظ العثور على فقرات من الكتاب لم يدرسها بعمق، لأنه لو استخدمها بعمق لاستخرج منها نتائج مهمة حول هذا الموضوع في كتابه عن نصارى الإسبان. ويتحدث بونس بويغس عن هذا الكتاب في دراسة له بعنوان "مقال عن المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين" ويصفه (ربما استنادًا إلى فهرس قائمة المخطوطات الموجودة في المتحف البريطاني التي تقدم تحليلًا جيدًا لكتاب الدر المنظم) لكنه لم يوفق في التوصل إلى اسم المؤلف، إذ ينسب الكتاب إلى ابن هشام (صاحب كتاب لحن العامة)^(١٤). إن كتاب الدر المنظم يرد ذكره في مقال لأحمد سالمى نشر منذ سنوات، لكن المقال يستند إلى ما يورده المقرئ عن الكتاب والمؤلف^(١٥).

توجد مخطوطات لهذا الكتاب يذكرها بروكلمان: مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٩١٩ ومخطوطة الإسكوريال رقم ١٧٤١ ومخطوطة مسجد يني Yenî في إسطنبول رقم ٨٥١ وهناك مخطوطة أخرى لا يذكرها بروكلمان موجودة ضمن مجموعة متفرقات في مدرسة الدراسات العربية بمدير (١٦).

هذه المخطوطة الأخيرة التي وجدت في المونائيد تحتل رقم ١٠ في مخطوطات المجموعة^(١٧)، وطريقة الكتابة مغربية وهي بلا شك أقدم مخطوطات

الكتاب ويرجع تاريخها إلى عام ٨٤٦ هـ - ١٤٤٣ م. ومن سوء الحظ فإن حالة المخطوطة مؤسفة، فهناك عدة ورقات تالفة، واعتبارًا من ص ٦١ وحتى نهاية المخطوطة فإن كل الورقات ينقصها جزء من الأسفل بفعل الرطوبة، ولهذا فإن جزءًا كبيرًا من المخطوطة لا يمكن قراءته كما يقول أسين بلاثيوس في وصفه للمخطوطة^(١٨). إن كتاب العزفى الموجود فى المخطوطة المتفرقة المذكورة (وهو هنا كتاب ناقص يتضمن الفصول الستة الأولى فقط) موجود اعتبارًا من ص ٤٨ حتى نهاية المخطوطة أى فى الجزء التالف الذى أشرنا إليه.

ومخطوطة الكتاب الموجودة فى الإسكوريال كتابتها مغربية أيضًا (حررت عام ٩٣٥ هـ - ١٥٢٨) وتتضمن العديد من الأخطاء، أما مخطوطتا لندن وإستانبول فحالتهم سليمة وخطهما شرقى جميل، ويقدمان نصًا سليمًا أمكن لى من خلالهما تصحيح بعض الأخطاء الموجودة فى مخطوطات المكتبات الغربية.

كنت قد أعددت طبعة نقدية للجزء الأول من كتاب "الدر المنظم" تحتوى على أربعمئة ملاحظة، لكننى فى النهاية اختصرت عدد الملاحظات وحذفت بعض فقرات ليس لها علاقة مباشرة بالموضوع. عدلت عن الإشارة إلى أخطاء فى قراءة بعض المخطوطات.

عدلت عن الإشارة إلى أخطاء فى قراءة مخطوطة ما إذا كانت القراءة سليمة فى بقية المخطوطات والإشارة إلى الاختلاف فى استعمال الأدوات أو أسماء الأفعال والمترادفات، ولم أشر كذلك إلى اختصارات الكلمات والجمل فى مخطوطة ما إذا وجدت تلك الكلمات والجمل كاملة فى بقية المخطوطات، وعمومًا فإننى لم أشر إلى النقص الذى يعترى مجموعة ما إذا كانت المخطوطات الأخرى كاملة ولم أشر إلى خصائص إملائية معروفة تميز المخطوطتين الغربيتين مثل كتابة الهمزة أو تغيير الألف بألف مكسورة أو العكس، وباختصار فإننى قد اقتصرت على الإشارة إلى تلك الاختلافات الجوهرية وقد علقت على بعضها فى الترجمة الكاملة للنص.

ولأن النص تعقبه الترجمة ولكي نسهل عملية الطباعة فإنني قد استغنييت عن تشكيل النص حتى في الكلمات التي يتغير معناها طبقاً للتشكيل، وهناك مخطوطتان من المخطوطات الأربع - مخطوطة مدريد ومخطوطة لندن (وهي الأفضل بكل المقاييس) - مضبوطتان بالشكل، وعليه فإنهما سليمتان من هذه الناحية.

وقد وجدت فقرات لبعض المؤلفين المذكورين في النص وأشارت إلى ذلك في الترجمة. هناك بعض الفقرات لبعض المؤلفين وجدتها مصادفة واحتفظت بها لمقالات أخرى ضمن هذه السلسلة.

واستعملت أيضاً - لكن دون فائدة كبيرة - المخطوطة التي ذكرها سيمونيت في كتاب "تاريخ النصاري" وهي برقم GG-76 في المكتبة الوطنية بمدريد^(١٩)

وهي برقم LXXI في كتاب غيين روبليس ورقمها الحالي ٥٣٢٤^(٢٠) وهي عبارة عن مجموعة متفرقات حررت في نهاية القرن الخامس عشر بها فقرات لفقهاء غرناطين في ذلك العصر. تتضمن العديد من القضايا الفقهية حررت واحدة تلو الأخرى بلا ترتيب محدد ويتخللها أخبار عجيبة لا علاقة لها بالموضوع وأشعار وفقرات نثرية مجهولة المؤلف وحكم مكانها المناسب هو كتاب أدب. وفي الصفحات ٦٣ - ٦٤ وبعد فقرة من كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي وبلا مناسبة تأتي تحت عنوان "مسألة" فقرات متفرقة بها أخطاء كثيرة وبها سطور من كتاب العزفي^(٢١) وبمقارنة هذه السطور بالنص الذي حررته عن الكتاب لم أجد ما يدعو إلى وضعها في الاعتبار، خاصة وأنني كنت قد قررت اختصار الجزء النقدي، أما في الترجمة فقد علقت على بعض الاختلافات التي رأيت أنها مهمة.

يبقى لنا فقط - قبل الدخول في الموضوع - أن أقدم شكرى القلبى للبروفيسور محمد حميد الله الذي عرض - وهو في زيارة إلى مدريد منذ سنوات - أن يرسل لي ميكروفيلم يتضمن الصفحات الأولى من مخطوطة مسجد بني في إسطنبول وقد وصلني الميكروفيلم بالفعل بعد وقت قصير بفضل جهود البروفيسور

صالح توغ وصديقي وزميلي البروفيسور ج.أ.ب هو بكنس الذي أمدني بميكروفيلم عن صفحات طلبتها من مخطوطة المتحف البريطاني.

وكما يدل العنوان فقد حرر الكتاب لإبراز صفات نبي الإسلام وتبرير إرساء الاحتفال بمولده في الغرب، وقد كان يحتفل به في الشرق اعتبارًا من القرن الثالث عشر. (٢٢)

إن الغرض الديني - والمؤلف لا تخفى عنه أخطار ذلك - كان يمكن أن يصطدم بصعوبات كثيرة، فالأمر عبارة عن إدخال بدعة في الغرب الإسلامي. من المناسب هنا أن نتوقف لحظة لشرح هذه الكلمة للقارئ غير المتصل بالثقافة العربية (٢٣). كلمة "بدعة" التي ترجمت كثيرًا على أنها "كفر" هي عبارة عن تجديد أو اعتقاد أو عادة لا تستند إلى سابقة يرجع تاريخها إلى عصر محمد وبالتالي فهي مخالفة له إذن، و تعارضها كلمة سنة.

وكانت البدعة دومًا موضوعًا بارزًا في الإسلام، ورغم أن الكثيرين من المسلمين يقتنعون بأن كل بدعة ضلالة في الجوهر فإنه قد تعين عليهم التنازل وفقًا للظروف، وقد وصلنا هكذا إلى التفرقة بين البدعة الحسنة أو المحمودة والبدعة السيئة أو المذمومة، وهناك درجات بين هذه وتلك. إن المتفهمين في هذا المجال قد عارضوا باستمرار أية بدعة ناظرين إليها بعين الشك ولم تخرج كلها من وصفها بأنها محرمة بمرور الوقت.

كان على العزفي إذن أن يحارب بقوة دفاعًا عن هذه البدعة حتى يمكن اعتبارها بدعة حسنة، وقد انصب الجزء الأعظم من دفاعه على أن هذه البدعة الحسنة سيكون من شأنها القضاء على بدع سيئة انتشرت بين المسلمين كأعياد المسيحيين واحتفال المسلمين بها. إن حديثه المطرد عن ذلك وعن الحالة التي انتشرت في الأندلس وفي المغرب وإشارته إلى الشرق كل ذلك دعانا إلى القيام بهذه الدراسة.

من المعقول إذن أن نترجم الفقرات الأولى من الكتاب وأن نرى كيف أن المؤلف (أو المؤلفين) يقدم سلسلة احتجاجات لكي يوضح سلامة عقيدته حتى لا يهتم بأنه شيعي وهو أمر يبدو أنه قد حدث بالفعل ^(٢٤) وفيما يلي كلماته ^(٢٥):

قال سالك سنن السنة، القائم من أعمال البر بما يضيق عنه وسع المنة المعتصم بجبل الله القوى المتين، المعتمد على لطفه الشامل وفضله العميم المبين، الشيخ الفقيه الأجل، العلم الأكمل، أبو القاسم بن الشيخ الفقيه الإمام، العارف العالم، علم العلماء العاملين المتقنين، ونخبة الفضلاء الصالحين المتقنين، أبي العباس أحمد بن الشيخ الفقيه القاضي العالم المحدث، أبي عبد الله اللخمي، ثم العزفي، من أهل سبته حرسها الله وأجزل قسمه من عفوه ورضاه، وأنجح عمله وقوله وقصده، وجعل في ذاته وسبيل مرضاته صدوره ووروده: ^(٣)

قرأت بإرشاد من أبي (عفا الله عنه ونضر الله وجهه) في أوائل شهر رمضان المعظم عام ٦٣٣ ما يلي:

أحمد الله حمداً يليق بجلاله وكماله، فهو الأول والآخر، وأثنى عليه ثناء من يعرف منه... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تتجينا من عذاب النار يوم القيامة، ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله وأفضل خلقه، جعله خاتم المرسلين... وجعل أصحابه يسرون على نهجه... وحذرنا من البدع في السنة والشرعية، فهي محرمة، ورضى الله عن آل الكرام وأنزلهم درجاتهم في الفردوس الأعلى.

يقول المؤلف (رحمه الله وأجزل له الثواب) : إن الخلفاء الراشدين، والصحابة والتابعين وتابعيهم... لم يتوقفوا عن التحذير من البدع، فانتهى المسلمون عن الأمور التي لا أصل لها في سنة خاتم النبيين... يقول النبي صلى الله عليه وسلم... عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ.

بعد هذه المقدمة يقدم لنا أبو القاسم العزفي نماذج من البدع معروفة، ابتداء بالبدع التي حرمها محمد ويذكر طائفة من الأحاديث النبوية، وهذا أمر لا بهمنا لأنها مادة معلومة، وهناك دراستان لاثنتين من أهل أندلوثيا نشرتا حديثاً^(٢٦) بعد ذلك يعرب عن أسفه لإهمال مسلمي عصره في دراسة السنة والعمل بها وهذا هو النص الذي أنشره وأترجمه في الصفحات التالية بعد حذف بعض الإضافات التي لا تفيد موضوعنا.

ماذا كان بالضبط دور أبي العباس أحمد الملقب بابن أبي عزفة؟ وماذا كان دور ابنه أبي القاسم في تأليف الكتاب؟ ترك لنا المقرئ مجموعة أخبار عن الموضوع بل ونقل فقرة طويلة من نسخة من كتاب "الدر المنظم" حررت في حياة أبي القاسم^(٢٧). تؤكد أخبار المقرئ ما جاء في مخطوطات "الدر المنظم" من أن أبي العباس "شرع في تأليف" الكتاب لكنه "مات ولم يكمله"، وكان ابنه أبو القاسم هو الذي أكمله و"أوضح فيه قصده"^(٢٨) ونعرف أن قصده كان إدخال عيد المولد في الغرب الإسلامي والتخلص بشكل نهائي من الأعياد المسيحية.

في أي مرحلة من التأليف كان الكتاب عندما مات أبو العباس؟ لا يذكر لنا تلميذه الرعيني - الذي تحدث عنه باستفاضة في كتاب البرنامج^(٢٩) عن أساتذته - لا يذكر أي شيء عن الكتاب رغم أنه يذكر كثيراً من الكتب التي يدرسها. مات أبو العباس - كما يذكر الرعيني - في السابع من رمضان عام ٦٣٣هـ - ١٥١ مايو ١٢٣٦م).^(٣٠) إلى نفس هذا التاريخ يشير أبو القاسم العزفي في مقدمة الكتاب التي ترجمتها فيما سبق في جملة "قرأت على أبي رحمه الله تعالى ورضي عنه ونضر وجهه - في غرة شهر رمضان المعظم سنة ٦٣٣ قَلْتُمْ" وهي الجملة التي لم أفهمها بشكل تام لكن يبدو أن معناها أن الكتاب كان في مرحلة متقدمة من النسخ قبل أيام قليلة من وفاته وأن أبا القاسم قرأه مع والده^(٣١) قبل موته بأيام قليلة وتلقى منه دون شك الأمر بإتمامه وهذا ما فعله كابن بار وبحماس حقيقي إذ إن دوره لم يقتصر على إتمام الكتاب بل وضع فكرته موضع التنفيذ.

أعتقد أن أبا القاسم قد اقتصر على وضع الصورة النهائية للكتاب ومحاولة نشره. والأخبار المتعلقة بالعزفيين التي حاولت العثور عليها ليس بها معلومات أخرى عن هذا الموضوع، فلأسباب واضحة لا أعتقد أنه يجب التركيز على ما قاله الأنصارى (القرن الخامس عشر) عن أبي العباس عند الحديث عند نقل رفاة إلى سبته قال إنه (صاحب الدر المنظم في مولد النبي المعظم) دون أية إضافات أخرى^(٣٢)

لن أضيف شيئاً إلى ما قلته عن نشر النص لكنني أريد أن أقول بعض كلمات متعلقة بالترجمة. النص صعب عموماً لأن المؤلف يفتخر بأسلوبه ويستعمل النثر المقفى باستمرار تقريباً. إن أهم شيء في هذه الصفحات بعيداً عن الأخبار المحدودة عن الأعياد المسيحية في ذلك العصر - هي فقرات طويلة لمؤلفين أندلسيين آخرين، خاصة ابن بشكوال الذي كان أستاذاً له. علقت على هذه الترجمة بإيجاز وإذا خرجت عن الدقة أحياناً فذلك لأنني وضعت في الاعتبار القارئ غير المتصل بالثقافة العربية الذي قد تهمة هذه الدراسة.

وتظهر في النص مجموعة أسماء لأشخاص ومحدثين شرقيين وغربيين، وأنبه إلى أن بعضهم معروف جداً لقارئ هذه المجلة، لكن أسماءهم قد لا تضيف شيئاً للقارئ العادي. أقدم عنهم فكرة مختصرة وأحياناً أنوّه إلى دراسات أدبية أو ترجمات من العربية. معظمهم غير معروف إلا للمتخصصين في الفقه الإسلامي، وقد حاولت الرجوع إلى المصادر الأقرب أو إلى مصادر أخرى عربية. لم أتمكن من التحقق من كل الأسماء المذكورة إذ لم يكن ذلك بالأمر السهل ولا بالأمر الذي يستحق العناء.

كنت قد فكرت في البداية في عمل ملحق يتضمن كل الأسماء مرتبة حسب الحروف الأبجدية لكنني في النهاية فضلت - تسهيلاً على القارئ - إعطاء فكرة عن كل مؤلف في هامش الصفحة لكي يتمكن من متابعة القراءة. حذفت في

الترجمة الصيغ المعهودة "رحمه الله" "رضى الله عنه" وهي صيغ مستمرة في النص بالنسبة للشخصيات المذكورة.

وهناك قضية أخيرة: هل حقق العزفيان – الأب والابن – غرضهما من نشر كتاب الدر المنظم؟ ذكرنا أن الهدف كان مزدوجًا: الاحتفال بمولد محمد والقضاء على الأعياد المسيحية. الهدف الأول تحقق تمامًا في حياة أبي القاسم العزفي رغم أن الاحتفال بالمولد لم يكتسب صيغة رسمية في المغرب حتى عام ٦٩١هـ – ١٢٩٢م في عهد أبي يعقوب يوسف وفقًا لما ترويهِ المصادر^(٣٣) وهذا معناه أن الأمر كان مقبولا دون أي تحفظ بين الناس. عندى أخبار سأنشرها قريبًا تؤكد أن المولد النبوي كان يحتفل به قبل هذا التاريخ بكثير بشكل غير رسمي في مملكة غرناطة.

هل قضى المولد على عيد الميلاد؟ نعم وبسرعة دون شك، فحين أصبح للمسلمين مولدهم الخاص لم يكن هناك سبب للاستمرار في الاحتفال بميلاد المسيح. وظل الاحتفال بالليلة الطيبة قاصرًا على المسيحيين، وهؤلاء تعين عليهم الاحتفال بها خفية في منازلهم دون أن يشارك المسلمون في روعتها.

الأعياد الأخرى – اليناير أو النيروز وليلة "العجوزة" وحتى القديس خوان أو العنصرة، وهي احتفالات لها طابع شعبي، استمر المسلمون والمسيحيون في الاحتفال بها في الغرب. وعندما كانت المراكب تحمل مسلمي إسبانيا الأواخر إلى إفريقيا حملوا معهم هذا التراث الذي لا يزال يحتفظ به رجال الريف المغاربة بحب. وحتى الآن يحتفل بالعنصرة في شمال إفريقيا كما يحتفل باليناير بأشكال جديدة وشعائر جديدة^(٣٤).

في كل القرون الأخيرة للإسلام الأندلسي حتى سقوط غرناطة كان الشعراء يتنافسون في نوع شعري جديد: ذكر صفات محمد في يوم مولده. إن المولديات ستحل محل أهازيج عيسى بالنسبة لنبي الإسلام.

النص العربي

من كتاب " الدر المنظم في مولد النبي المعظم " للعزفي

نقلا عن المخطوطة رقم ١٠ في المجموعة، ص ٨٤ إلى ٨٥ ظهر،
والمخطوطة رقم ١٧٤١ في مكتبة الإسكوريال، ومخطوطة المتحف البريطاني رقم
٩١٩، ومخطوطة مسجد بني بإسطنبول.

وانظروا إلى ما جرَّ على أهل هذا الزمن الغيبة عن مجالس العلماء،
والمزاحمة بالركب لأهل التقوى، وعصاية الهدى حاملي السنن القائمين بالحق لا
يضرُّهم من خالفهم فافتتن، لتمسكهم بمناهج السلف اللاحبة(*) السنن. ولا تغترُّوا
بمن يُنسب إلى العلم وقد اتَّبع في طاعة النسوان والصبيان هواه، فصده ذلك عن أن
يكون قوَّامًا لله بالقسط ولوَّاه، والله تعالى يتداركنا بتوبة نصوح تلحفنا برداء تقواه.

وإن تعجب أيها الناصح لنفسه فعجباً من إحصائهم لتواريخهم والاعتناء
بمواقيتهم، فكثيراً ما يتساءلون عن ميلاد عيسى (على نبينا وعليه السلام) وعن
ينير، سابع ولادته، وعن العنصرة، ميلاد يحيى (على نبينا وعليه السلام) فما
أعانهم التوفيق، ولا القرين المرشد، ولا الرفيق، أن يكون سؤالهم عن ميلاد نبيِّهم
محمد (صلى الله عليه وسلم)، خيرة الله من خلقه، وذلك من شكر نعم الله علينا
بعض واجبه وحقه، هاديهم من ضلالتهم ومرشدهم من غيِّهم، العزيز عليه عنَّهم،
الحريص على هديهم، الشديد عليه ضلالتهم وفتنتهم، الرؤوف الرحيم، شفيعهم الذي
ضوعف لهم به ثواب محسنهم وتجاوز عن مسيئتهم، بل جماهير عامَّتهم ودهمائهم،
بل الذين يدعونهم بطلبتهم وعلمائهم لا يعرفونه ولا يتعرَّفون، بل يقتنعون بأنه
عندهم في كتبهم ويكتفون، والحمد لله.

(*) أي الواضحة، انظر "لسان العرب" لابن منظور. (المترجم)

فقد انتهى اليوم إلى العذراء في خدرها، والحرّة المصونة في سترها، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة بقيام حجّتها وانقطاع عذرها، والله يعيننا من الفتن ويقينا غوائل شرّها، آمين.

قال المؤلف (رضى الله عنه): وأضافوا للتخفى عنها بالسؤال، والمحافظة عليها والإقبال، من بدع وشنع ابتدعوها، وسنن واضحة أضاعوها، بموائد نصبوها لأبنائهم ونسائهم وصنعوها، وتخيّروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرف وجمعوها، وتهادوا فيها بالتحف التي انتخبوها، والمدائن التي صوروا فيها الصور واخترعوها، ونصب ذوو اليسار نصبات في الديار، كما نصب أهل الحوانيت، فضدّوها، فقوم أباحوا أكلها لعيالهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب، وفي منصّتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها، ثم باعوها.

ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين أنّ النصبه ببعض بلاد الأندلس (جبرها الله وأمنها) يبلغ ثمنها سبعين ديناراً، أو يزيد على السبعين، لما فيها من قناطر السكر وأرباع الفانيذ وأنواع الفواكه، ومن غرائر التمر وأعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها، وضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلّوز والقسطل والبلوط والصنوبر إلى قصب السكر ورائع الأترج والنارنج والليم. وفي بعض البلاد طاجن من مالح الحيتان ينفقون فيه ثلاثين درهماً، إلى نحوها. ولقد شاهدت في بعض الأعوام سدّ الحوانيت ممن لا يبيع ما يحتاجون إليه، كسوق القيسريّة والعطّارين وغيرها من الأسواق، وفي ذلك لضعفائهم من الدّالّين وغيرهم قطع المعاش وتعذّر الأرزاق. ويطلقون الصبيان من المكاتب ويُشربون بذلك قلوبهم حبّ البدع الرواتب. فهذه أفعالنا، فهل منا من تائب لآثم لنفسه معاتب؟

وكان هذا في يَنير، ثم صنعوا نحواً منه في العنصرة وفي الميلاد، فكيف ينشأ على هذه الفتنة إلا مصرّاً عليها مائل إليها من الأولاد، إذ يلقون إليهم أنه من عمل مثل هذا العمل، لم يخل عامه ذلك من رغد العيش وسعة الرزق وبلوغ

الأمل. وربما جعلوا جَمَّارَةً تحت أسرَّتْهم تفاؤلاً وأمارة ليكونوا في عامهم ذلك أكسى من الجَمَّارة، فهل سمعتم يا أولى الألباب بأعجب من هذا العجائب، طاعة نوى النهى والأحلام من الرجال إلى الولدان وربَّات الحجال.

وأرى أنه ما جرَّ على أهل الأندلس هذا إلا جوار النصارى (بمُرهم الله من جيران) ومخالطتهم لتجارهم، ومكاشفتهم عند الكينونة في إسارهم، ولذلك حذرنا من ترائى النيران. قال النبی (صلی الله علیه وسلم)، أنا برئ من كل مسلم مع مشرك لا تراءى ناراهما. وما سرى ذلك إلى هذه العدو، إلا بالاتباع لهم والقوة، وما عبر من ذلك البر، إلى هذا البر بدعة أشنع منها ولا أضر.

قال المؤلف (رحمه الله ونضر وجهه وأجزل ثوابه)؛ فإن قيل، فإن كان الأمر كذلك ونبعت هذه العين المالحة من هنالك حتى مدَّت أسياها وبسطت أطناها وجرَّت أذياها، وسقت البطالة، ذوى الطول والاستطالة، حمياً الفتنة وجريانها حتى أشبهوا أجناس النصارى وأجياها، وقد استقر في الأنفس أن قرارة علم المغرب الأندلس، وبصائر أهل المغرب في ذلك مستبينة، وعمل قرطبة عندهم كالعمل بالمدينة، فما للراسخين من علمائها، والنحارير من حكامها، والصالحين من دهمائها، لم يصدعوا في هذه البدع بالإنكار، بالمواعظ والتنكار، بالعشى والإبكار، والعادة قاضية في الأمور الكبار، أن تفشو بها الأحاديث ويستفيض بها الأخبار.

فالجواب، والله الموفق للصواب، أن الأخبار قد استفاضت وامتألت منها الأسماع وفاضت بالزجر والإنكار، والبكع^(*) لفاعلها بالتقريع والتبديع بل بالتضليل والإكفار، لكل من أعرض عن رواية الآثار، وتعاطى الفقه وتعرض للفتوى، فلا تسأل عن السقوط لليدين والفم والعثار، وقد جمع في ذلك شيخنا الفقيه الراوية الثقة التاريخي المسند أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الأنصارى القرطبي جزءاً حسناً هو مما أنن لنا فيه، وكتب به غير مرة إلينا. قال في باب كراهية

(*) هو الضرب الشديد المتتابع، انظر لسان العرب. (المترجم)

النيروز والمهرجان والميلاد ونم الاحتفال لها، وترك تعظيمها والاستعداد لدخولها (وكان يمنع أكل ما يُنبح لها): كان السلف (رضى الله عنهم) وأهل الخير والفضل والدين والورع يكرهون هذه الفصول المذمومة ويعيبونها على فاعلها والمستعمل لها والمحافظ عليها، لأنها أعياد النصارى. وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): من تشبه بقوم فهو منهم. ثم قال بعد ذلك: فإنى رأيت (عصمنا الله وإياك من مضلات الفتن، وأعاننا على إحياء السنن) الجمهور اللقيف والعالم الكثيف من أهل عصرنا قد تواطأوا على إعظام شأن هذه البدع الثلاث: الميلاد وينير والمهرجان، وهو العنصرة، تواطؤاً فاحشاً، والتزموا الاحتفال لها والاستعداد لدخولها التزاماً قبيحاً، فهم يرتقبون موافقتها ويفرحون بمجيئها، ولعمري لقد نشبوا فى فتنة هوى، أوقعتهم فى بدعة عمى، وشاقوا الله ورسوله من حيث لا يعلمون، واستسهلوا هذه البدع حين ألفوها وعظموها حتى صارت عندهم كالسنة المتبعة، وسكت العلماء (رضى الله عنهم) عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها، وتأنى السلطان فى تغييرها، وتمكن الشيطان من تزيينها، فوقع الناس من هذه البدع فى أمر عظيم، إلا أن يتداركنا الله برحمته.

ثم قال: قال أحمد بن زياد: قال لنا ابن وضاح: جاء الحديث أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال: اجتنبوا أعياد اليهود والنصارى، فإن السخط ينزل عليهم فى مجامعهم، ولا تتعلموا رطانتهم فتتخلقوا ببعض خلقهم. قال: وبلغنى أن ناساً من أهل العراق قالوا لعبد الله بن عمر (رحمه الله): كيف تقول فى النيروز، فإن أهل بلدنا يعظمونه ويهدون لنا فيه، كأنهم يسألون عن تعظيمه. قال: لا أدرى ما نيروزكم هذا، من تشبه بقوم فهو منهم. وذكر الدورقي أن عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) نهى أن يذهب إليه فى النيروز والمهرجان بشيء.

قال ابن وضاح (رحمه الله): حدثنا محمد بن سعيد بن أبى مريم ومحمد بن يحيى الصدفى المصرى قالا: حدثنا أسد بن موسى عن الربيع بن صبيح عن أبان بن أبى عيَّاش قال: لقيت طلحة بن عبيد الله بن كريس الخزاعى، فقلت له: قوم من

إخواننا من أهل السنة والجماعة ما يطعنون على أحد ويجتمعون يوم النيروز والمهرجان ويصومونهما. فقال طلحة: بدعة من أشد البدع والله، أشد تعظيماً للنيروز والمهرجان من غيرهم، ثم استيقظ أنس بن مالك (رحمه الله) فرقبت إليه فسأله كما سألت طلحة، فردّ على مثل قول طلحة كأنما كان معه على ميعاد.

وخرّج فيه عن ابن وضّاح: قلت لسحنون: إنهم عندنا إذا كان أعياد النصارى قالوا للصبيان: جئونا ببيض وهدايا نلقبكم إلى الكنائس. قال: أي شيء هذا. قلت: مثل الميلاد والعنصرة يقبلونهم ويأخذون منهم الهدايا. قال هذا بتس الرجل، لا يصلّي خلفه ويقدم غيره إن قوا على ذلك. قال ابن وضّاح (رحمه الله): وسألت أبا زكريّا يحيى بن سليمان عن إمام يقبل هدايا الصبيان في أعياد النصارى ويعظمها. قال: ما أراه مسلماً. قلت: لا يصلّي وراءه. قال: أنا أقول لك ما أراه مسلماً وأنت تقول لا يصلّي وراءه. قال ابن وضّاح: وسألت سحنون عن ذلك. قال: رجل سوء. قال ابن وضّاح (رحمه الله): وحدثنا بهلول بن راشد عن سفيان الثوري قال: دعى حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) إلى طعام، فلمّا دخل من باب البيت رأى شيئاً من زى الأعاجم، فرجع وهو يقول: يحذر الرجل أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر. ثم قيل له: وكيف ذلك، أصلحك الله. قال: من تشبه بقوم فهو منهم. قال أحمد بن زياد (رحمه الله): سألت محمّد بن وضّاح عمّا يصنع الناس في أوّل ليلة من ينير فقال: بدعة. فقلت له: أفأرّد ما أهدى إليّ. قال: ما أحسن ذلك. قلت له: حسن. قال: نعم، لو استشرتني في أن تتصدّق بمائة دينار، ثم قال: بمائة دينار لا إلا ألف دينار (كذا) أو ترد ما أهدى إليك لأشرت عليك أن تردّ ما أهدى إليك وتمسك ألف دينار قلت: ويبلغ به هذا كله. قال: نعم.

وسأل محمد بن خميس المعلّم محمد بن وضّاح عن ليلة العجوز والذي يفعله أهل بلدنا فيها، فكره ذلك وعابه عيباً شديداً، ونزع بآي من القرآن منها قوله تعالى: "ولا تتبع سبيل المفسدين"، "ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون". ثم قال محمد بن وضّاح: لقد أعجبنى أنّ ابن خميس المعلّم جعل الصبيان يأتونه في هذه الليلة

بالهدايا كما يفعل الصبيان، فردّها وأعجبه ذلك من فعله. قال ابن وضّاح (رحمه الله): وروى زياد بن عبد الرحمان قال: سمعت عثمان بن عيسى بن كنانة يقول: لا بأس أن يضيّف مشركاً إذ لم يجد بُدّاً من ذلك. وأكره أن يعظّم من أعيادهم. قال الله تعالى: "لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوائمون مَنْ حادّ الله ورسوله" وأكره أن تجمّلهم بثيابكم إلى أعيادهم.

قال ابن وضّاح (رحمه الله): قلت لسحنون: رأيت ما كره أيؤكل ممّا أعدّوه لأعيادهم، رأيت الميلاد والمهرجان والنيروز ممّا يعدّون لمثل هذا لا يؤكل. قال: نعم، هو من ذلك لا يؤكل كلُّ ما أعدّوه لهذه الأعياد. قال أحمد بن زياد (رحمه الله): حدّثنا ابن وضّاح وإبراهيم بن محمد بن باز عن سحنون عن ابن القاسم عن مالك قال: بلغني أنّ أوّل ما صنعت الصور حتى عبدت واتّخذت في موت نبي مات فافتقده قومه فجعل لهم بعض ما جعل لهم ليأنسوا به. فما زال ذلك حتى كان فيه ما كان وعبدت. قال مالك (رحمه الله): وبلغني أنّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: إيّاي وزىّ الأعاجم.

حدّثنا ابن وضّاح (رحمه الله) قال: حدّثنا أحمد بن عمر وزيد بن البشر قالوا: حدّثنا به عبد الله بن وهب قال: قال لي من سمع الأوزاعي (رحمه الله) يحدث عن يحيى بن أبي عمرو السيباني قال: حدّثني عبد الله الديلمي قال: ما ابتدعت بدعة إلا زادت مضياً، ولا تركت سنة إلا زادت هواناً. قال سفيان الثوري (رحمه الله): وكذلك كلُّ بدعة عليها زينة وبهجة، وسيأتي على الناس زمان يُنكر الحقّ فيه تسعة أعشارهم.

حدّثنا ابن وضّاح: حدّثنا محمد بن يحيى الصدفي، حدّثنا أسد بن موسى، حدّثنا حمّاد بن سلمة عن عاصم عن أبي عثمان النهدي أنّ عمر (رضي الله عنه) كتب إلى عتبة بن فرقد، إيّاكم والتّعصّب وزىّ الأعاجم.

وقد روي أن رجلاً ولى السوق بقرطبة فبرّح على الناس فى النيروز ألا يزيدوا على ما فى حوانيتهم. فأعجب فعله ذلك ابن وضّاح وغيره من أهل العلم. ومما ينبغى لأهل العلم والخير والفضل والدين أن يجتنبوه فى هذه الفصول المذمومة ما يذبح فيها من الحيوان وترك أكل لحمه ويروونه ممّا أهلٌ لغير الله به. وقد سمعت شيخنا أبا محمد بن عتّاب (رحمه الله) يوم النيروز وهو يحكى عن أبيه (رحمه الله) ومكانه من الفضل والدين والعلم مكانه أنه كان ينهى عن أكل اللحم فى هذه الفصول، وكان يقول إنه إنما أهلٌ به لغير الله، ويشدّد فى ذلك.

وقد قيل لعبد الرحمان بن عيسى بن مدرّاج: ما قولك فى قوم من أهل الخير يجتمعون ليلة قبل ينير أو ليلة بعده مع أقاربهم وأصهارهم فيأكلون الإدام والفاكهة ويجتنبون الليلة المذمومة؟ فقال: كل ذلك منه وحواليه، ومنع ذلك. وقد قال غيره: أى بدعة أفحش وأسمج من أن يكون المسلمون يحتفلون ويستعدّون لدخول شهر أو سنة من شهور العجم وهم أعداؤنا وإنما عاديناهم على كفرهم بالله، وقد قال تعالى: "يأياها الذين آمنوا، لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق..." فأى مودة أبين من تعظيم أعيادهم. وأى ولاية تكون أعظم من التشبّه بهم والتفخيم لأمرهم والمشاركة لهم فى ضلالهم وكفرهم، يا لها مصيبة ما أجلّها، إنا لله وإنا إليه راجعون.

إن من أعظم أسباب هذه البدعة وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها والتفخيم لشأنها وانقيادهم لهنّ فى ذلك عامّاً بعد عام حتى رسخت فى صدورهم وتصوّرت فى عقولهم وتآقت إليها أنفسهم، وقد نبأنا القرآن ونبأهم بما امتحن الله به آدم (عليه الصلاة والسلام) من البلاء والندم لما أطاع حواء زوجته على أكل الشجرة. وقد جاء فى الحديث عنه (صلى الله عليه وسلم) قال: شاوروهنّ وخالفوهنّ. وقال (صلى الله عليه وسلم): طاعة النساء ندامة.

قال بعض العلماء: لو أن رجلاً قام السنة كلّها وصامها إلا ما لا يُصام منها ولا يُقام، وفعل ذلك بنية خالصة لله صادقة، إلا أنه يساعد أهله ويستعدّ لتلك الليلة

المبتدعة، ورجلا آخر لا يزيد على الفريضة وهو ممن لا يستعدُّ لتلك الليلة إلا بما كان يفعله أبدًا في غيرها من الليالي حذرًا لشرِّها واجتنابًا لبدعتها، لكان هذا الرجل الذي لا يزيد على الفريضة عند أهل العلم والورع أفضل من ذلك المجتهد المتلطِّخ بالبدعة وأهدى وأتقى.

ولا تُقبل للذي يستعدُّ لها شهادة، ولا يصلى خلفه إلا أن يتوب إلى الله، عزَّ وجل، من تلك توبة صادقة. ولا تقبل هدية لأحد في يوم النيروز، ولا في ليلة المهرجان، وفي ليلة يسمونها ليلة العجوز. ومن قبل الهدية في هذه البدع الثلاث من أحد، فقد شرك المبتدعين لها في إثمها وعارها.

ومما ينبغي أن يشدَّد على الناس فيه ما يصنع في النيروز من الصور المنهى عنها التي وردت الآثار عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بالمنع من فعلها، لقوله (عليه الصلاة السلام): من صور صورة كُفَّ يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدًا. وقال (عليه السلام): لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة. وقال ابن عباس (رضي الله عنه) لرجل سأل عن ذلك: إن أبيت، أخي، فعليك بالشجر وبكل ما لا روح له.

ومما فتن الناس فيه السؤال عن مولد عيسى (عليه السلام)، فكثيرًا ما يتساءلون عنه. أو ليس كانوا بميلاد نبيِّنا محمد (عليه السلام) أولى والتهمُّ به ومعرفته؟ فكثير منهم لا يعلمون ذلك.

ومولده (صلى الله عليه وسلم) عام الفيل يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوَّل وتوفى (صلى الله عليه وسلم) ضحى يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوَّل سنة إحدى عشرة من الهجرة (صلى الله عليه وسلم) وشرف وكرم. هذا أولى أن يُسأل عنه ويُتَهمَّ بمعرفته وحفظه لفضله وبركته (صلى الله عليه وسلم).

وقد كان (رحمكم الله) جماعة من السلف الصالح يصبِحون في يوم يَنيرُ صِيامًا، ويأتون المساجد فيقيمون يومهم فيها يصلُّون ويذكرون الله فيها، ولا يأكلون يومهم ذلك إدامًا ولا فاكهة. وقد كان خالد بن سعد قال: حدَّثت عن شيوخ بنى قاسم بن هلال أنهم كانوا إذا كانت ليلة يَنيرُ ليس يوقد عندهم نار ولا يُطبخ عندهم شيء. حكى أيضًا قال: سمعت محمد (ا) بن مسروق يقول: كان عندنا قوم يُقال لهم بنو الأسباط كان لا يوقد عندهم نار ليلة يَنيرُ، أو كما قال، وكانوا علماء (رحمهم الله وغفر لهم).

ونكر ابن حبيب (رحمه الله) عن بعض حكماء السلف أنه كان يقول: إياكم، يا معشر النساء، لا ترششن بيوتكنَّ بالماء يوم العنصرة، ولا تلقين في ثيابكنَّ ورق الأكرنب ولا تغتسلن في ذلك اليوم إلا من جنابة، فمن فعل ذلك منكنَّ فقد شرك في دم يحيى بن زكرياء (صلى الله عليه وسلم).

قلت: ومما استفدته من المطالعة، وهو نصٌّ في الباب والحمد لله، ما ذكره أبو الفتح محمد بن أبي الفوارس في أماليه التي يرويها أبو القاسم عبد الواحد بن عليّ بن محمد بن فهد العلاف: حدَّثنا أبو الفضل عبيد الله بن محمد الحاكم بمرو، قال: حدَّثنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عديّ، قال: حدَّثنا محمد بن عوف الحمصي، قال: حدَّثنا الفريابي محمد بن يوسف. قال: حدَّثنا سفيان عن الوليد أو ابن الوليد عن عبدا لله بن عمرو بن العاص عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال: من نشأ في أرض الأعاجم فصنع نيروزهم ومهرجانهم حُسرَ معهم يوم القيامة.

قال المؤلّف (رحمه الله ونضر وجهه): ما زلت حريصًا على رفع هذه البدعة ودفع هذه الشنعة وإطفاء هذه الفتنة، والاعتصام بالله ممّا يعاقب به أهل هذه المحنة ولم يكن والحمد لله لي على ذلك سلطان، ولا حمت على تلك الموارد، ولا ألممت بتلك الأعطان، ولا أجبت من دعائي إلى ذلك من الراحلين ولا القطّان. وأدركت الحكام قد قسمهم الزمان بقسمين وحلاهم بوسمين، إمّا أمر بمعروف فيها بغير عزيمة، تقضى على جيش البدع بالهزيمة، وإمّا مغمور بجاهه وولايته،

معرض عن تعهد قوانين الإسلام ورعايته، فبعلت بهذا الداء^(*)، وشغر^(**) الوقت عن حاكم ذي غيرة وتيقظ واهتداء، يعين على أهل البطالة والاعتداء، بمشاركة ونصرة ومعونة ولو بالأعداء، اللهم غفرًا، وشكرًا لنعمتك علينا معاشر أهل السنة لا كفرًا، ما خلى الغرباء المتمسكين بالكتاب الحاملين للسنن المحافظين على إقامتها وإحيائها بعد إمانتها بقوى مؤيدة من الحق ومنن، القائمين بها على غايات الدهر وأطراف الزمن، الهادين المهتدين لسلوك واضحة المنار ولاحب السنن...

* * *

قال المؤلف (رحمه الله ورضى عنه): فأمعنت النظر، وأعملت الفكر فيما يشغل عن هذه البدع ويدفع في صدر هذا المنكر، ولو بأمر مباح، ليس على فاعله جناح، بما تطمئن إليه نفوسهم، وتمتد إليه أعناقهم وتميل رؤوسهم، فعلم الله النية واطلع الطوية، فألهمني (سبحانه) أن أنبئهم على أمر إذا تقرر لديهم قامت الحجة عليهم دينًا ودنيا، وانقطع العذر إذا تعوضوا منه أحسن عوض، يقوم به الشفاء ويطعن به المرض، فنبئهم على ميلاد نبيهم المصطفى، سيد ولد آدم، خاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم)، وإن من العجب الإقبال على ما لا يغنى والإعراض عما وجب، فكثيرًا ما يسألون عن ميلاد عيسى (على نبينا وعليه السلام) وينتظرون الانتهاء إليه من الأيام، فيا أمة محمد، ويا خيرة الأمم، كفى بنا جفاء أن لا نعرف ميلاد نبينا (عليه أفضل الصلاة والسلام) ولا نتعرفه وهو أهم، ونتعرف ميلاد غيره من الأنبياء، كميلاد عيسى، ويحيى بن زكرياء، ولا علم لنا بهما فيما جاء من الأنبياء. أو لم يكن سؤالهم عن ميلاد نبيهم (عليه أفضل الصلاة وأطيب السلام والتحيات) أحل وأولى، والتهمم به وبمعرفته أحمد سعيًا....؟

(*) قوله بعلت بالداء: عنيت به فلم أدر كيف أصنع فيه.
(**) شغر البلد: خلا من الناس، ذكره الجوهري في صحاحه.

الهوامش

(١) حول هذه الأعياد انظر:

Encyclopedie de l'Islam, III, 1032-33 (artículos de E. Mittwoch).

(٢) على العكس من ذلك، فالأخبار التي لدينا الخاصة بالأندلس قليلة. انظر كتاب "تاريخ إسبانيا" *España Musulmana* الذي يشكل الجزء الخامس من كتاب ليفي بروفنسال *Historia de España* ص ٢٨٢ - ٢٨٣. وفيما يتعلق بعيد الأضحى فقد نشرت منذ سنوات ترجمة لمقامة كتبها شاعر من مالقة في القرن الرابع عشر. انظر:

"La Maqama de la fiesta" de Ibn Murabi al Azdi, en Etudes d'Orientalismo dediles a la memoire de Levi Provencal, Paris, 1962, II, 591-603:

(٣) حول هذا العيد انظر:

Enciclopedia de l'Islam, III, 949-950 (art. De R. Levy)

(٤) انظر كتاب ليفي بروفنسال المذكور، ص ٢٨٣.

(٥) انظر كتاب هنري بيريس حول الشعر الأنلسي.

La poesie andalouse en arabe classique au XI siecle, Paris, 1953, p. 303.

(٦) المرجع السابق ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٧) موسوعة الإسلام المذكورة ص ٥٣٠-٥٣١.

(٨) Cf. Infra, pp. 7 y 9-10

(٩) انظر:

Adam Mez, *El Renacimiento del Islam*, trad. De salvador Vila, Madrid, 1936, p. 499.

(١٠) عنوان الكتاب "الأعمال الكاملة لابن قزمان" أعلن المؤلف عن قرب ظهوره في مقال بعنوان "مدخل إلى عروض ابن قزمان" نشر في مجلة الأنلس عام ١٩٦٨، ص ٢٤١-٢٩٠.

(١١) انظر كتاب المقرئ "أزهار الرياض"، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٤٠، ص ٣٧٥-٣٧٦

(١٢) انظر:

Charles E. Dufourcq, *La question de Ceuta au XIII siecle*, en Esperes, XLII (1955), pp. 67-127.

(١٣) انظر:

L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIII siecle, Paris, 1966.

(١٤) - انظر كتاب بونس بويجس عن المؤرخين والجغرافيين الأنلسيين.

Ensasyo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo españoles,
Madrid 1898, pp. 280-281.

(١٥) - انظر :

Le genre des poemes de Nativite (maludiyya-s) dans le royaume de
Grenade et au Maroc, du XIII au XVII siecle, en Hesperis, XLIII (1956), pp. 335-
347.

(١٦) - انظر الملاحظة القادمة.

(١٧) - راجع كتاب أسين بلاثيوس وريبيرا:

Manuscritos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta, Madrid, 1912,
pp. 53 y 55-56.

الكتاب يدور حول مولد النبي.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) - انظر كتاب سيمونيت:

Historia de los muzárabes de España, 1897 -1903, p. 618 y nota 1.

(٢٠) انظر كتاب غيين روبليس عن المخطوطات العربية في مكتبة مدريد الوطنية:

Catalogo de los manuscritos árabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid,
Madrid, 1889, p. 35.

يطلق غيين روبليس على الكتاب عنوان:

Colección de consultas y resoluciones sobre cuestiones religiosas y jurídicas.

(٢١) من الغريب أن سيمونيت لم يستغل هذه الفقرة الطويلة التي تتضمن تفاصيل مهمة عن
الموضوع وأن يقتصر على قراءتها قراءة عابرة وأن يختصرها في سطور قليلة.

(٢٢) نذكر في هذا العدد ابن دحية الإسباني مؤلف كتاب "المطرب" الذي ألف عام ٦٠٤٥هـ —
١٢٠٧م كتاب التتوير في مولد السراج المنير" عن الاحتفال بمولد محمد . عن ابن
دحية انظر مقالنا في موسوعة الإسلام . انظر أيضا عن المولد مقال هـ فوكس في
موسوعة الإسلام.

(٢٣) في العرض التالي استخدم ما جاء في "موسوعة الإسلام":

Enc. De l;Islam, I, 123435 (de) Robinson)

(٢٤) يفهم ذلك من حكاية يرويها ابن الخطيب عن أحد هؤلاء الرواد واسمه أبو محمد عبد
المهيمن الحضرمي عام (٧٤٩هـ-١٣٤٩م): كان ذات يوم يتحدث عن العزفيين في
موضوعات دينية فقالوا له إن للعزفيين كانوا يحبون أهل البيت فأى نوع من الحب

تشعر به تجاههم؟ أجاب: "حبى لهم حب التشرع لا حب التشيع" انظر كتاب المقرئ
"فتح الطيب"، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩، الجزء السابع، ص ٣٨٩.
(٢٥) الفقرة الأولى وردت فى مخطوطة المجموعة وهى مختصرة فى المخطوطات الأخرى.
استعمل أيضا نص هذه الفقرة الذى يرد فى كتاب "أزهار الرياض" للمقرئ وهى فقرة
نقلها المقرئ من مخطوطة نقلها عن أبى القاسم فى حياته.

(٢٦) هاتان الدراستان هما "البدع والنهى عنها" لمحمد بن وضاح القرطبى الأندلسى (بمشق
١٣٤٩ هـ) و"كتاب الحوادث والبدع" لأبى بكر محمد بن الوليد الطرطوسى (تونس
١٩٥٩).

(٢٧) انظر المقرئ: "أزهار الرياض"، الجزء الثانى، ص ٣٧٥.

(٢٨) نفس المصدر.

(٢٩) برنامج شيوخ الرعينى، (بمشق ١٣٨١هـ-١٩٦٢م).

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) يقول بونس بويغس فى كتابه "إن أبى القاسم كان قد قرأ الكتاب مع والده عام ٦٣٣هـ—
ويقول فى الهامش: "إن واستدفيلا يؤكد أنه مات عام ٥٧٠. وقد ذكرنا أن بونس قد
اخطأ فيما يتعلق بالمؤلف".

(٣٢) انظر:

Levi Provencal, Une description de ceuta musulmane au XV siecle, en Hesperis,
XII, (1931), pp. 145- 176.

(٣٣) انظر مقال أحمد سلمى الذى أشرنا إليه فى الملاحظة رقم ١٥.

(٣٤) حول هذا الموضوع انظر دراسة:

Alfred Bel, *La Ansara flux et rites du solstice d;ete en Berberie, Melanges*
Demomlynes, Cairo, 1935-1945, pp. 50-83.

الاحتفال بأعياد مسيحية في الأندلس

مصادر لدراسة الموضوع

الجزء الثاني: نصوص الطرطوشي والقاضي عياض والونشريسي

فيرناندو دي لاغرانخا

في الجزء الأول من هذه الدراسة - الذي نُشرَ في العدد السابق من هذه المجلة- عرضت نصًّا مهمًّا غير منشور يفيد في دراسة الأعياد المسيحية في الأندلس^(١). في هذا الجزء الثاني أجمع - وأترجم- نصوصًا جديدة حول الموضوع نفسه وردت كلها تقريبًا في مصادر عربية تتحدث عن الأعياد بشكلٍ عام ثم تتحدث عن علاقتها "بالبدعة" وهو مصطلح أسهب في شرحه كل من أبي العباس وأبي القاسم العزفي في كتاب "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" كما رأينا، وسيحدث ذلك أيضًا في النصوص الأخرى التي سنعرضها الآن.

المصادر التي أجمعتها في هذا الجزء والدراسة كلها سبق نشرها لكنها لم تترجم إلى الإسبانية بل لم يتم تحليلها على حد علمي: عمومًا، ولأن النصوص مدرجة في كتب ليست متاحة، رأيت أنه من المناسب كتابة هذه النصوص وهي كلها قصيرة باستثناء « نص » واحد وقد أعدت كتابته هنا لأنه مدرج في كتاب نادر وصعب القراءة ذلك لأن طبعته المغربية- التي نُشرت في القرن الماضي- سيئة.

عند نشر النصوص المختلفة راعينا الترتيب الزمني للمؤلفين ولجامعي الكتب. فيما يتعلق بالكتب - ومع مراعاة أن جامعي الكتب فقهاء من عصور مختلفة- نشرت النصوص طبقًا لترتيب ظهورها في الكتب. علينا أن نضع في الاعتبار أنني في هذه الصفحات أحاول فقط التعريف بالمصادر القليلة التي تشير إلى الأعياد المسيحية في الأندلس واحتفال المسلمين بها، وأنني أنوي نشر دراسة أعالج فيها التصور الناتج عن عدم ترتيب المعلومات المتفرقة والنصوص التي

أستعملها. فى الدراسة التى أعدها سأجمع كل البيانات التى حصلت عليها حول الموضوع: بعضها معلوم جيداً والبعض الآخر مدرج فى كتب عربية لم تترجم إلى الإسبانية بل إن بعض هذه النصوص لم يُنشر بعد.

١ - كتاب "الحوادث والبدع" لأبى بكر الطرطوشى:

أشرت فى المقال الأول من هذه السلسلة^(٢) إلى كتابين غربيين وُضعا خصيصاً لمقاومة البدع ولتحذير المسلمين الأتقياء من أخطار الوقوع فيها. الكتاب الأول هو كتاب "البدع والنهي عنها" لمحمد بن وضّاح^(٣) ليس فيه - للأسف - مادة ثرية يمكن استخدامها فى دراستنا^(٤) رغم أن هذا الكتاب يذكره كثيراً الفقهاء اللاحقون الذين يستشهدون بمذهبه عند الحديث عن احتفال المسلمين بالأعياد المسيحية. على ما يبدو فإن من جمع هذا المذهب هم تلاميذ ابن وضّاح ولم يحرر هو هذا الكتاب على الأقل.

وقد كتب ابن وضّاح كتاباً آخر عن البدع بعنوان "اتقاء البدعة" تُحفظ نسخة منه فى جامعة برنستون^(٥) وربما كان هذا الكتاب يتضمن بيانات أخرى عن الأعياد المسيحية.

الكتاب الثانى الذى أشرت إليه عنوانه "كتاب الحوادث والبدع"^(٦) وقد ألفه أبوبكر الطرطوشى، مؤلف كتاب "سراج الملوك" ، يعرفه فى إسبانيا حتى غير المستعربين، فقد ترجمه إلى الإسبانية ماكسميليانو ألكون^(٧)، وقد مات هذا المؤلف - المولود فى طرطوس - عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م أو بعده بخمسة أعوام، ففى ذلك خلاف بين المؤرخين^(٨) أى ما يزيد عن قرن قبل تأليف كتاب "الدر المنظم" للعزفى. وجدت فى كتاب "الحوادث والبدع" - وهو ينتمى إلى نوعية كتب ابن وضّاح الذى أشرت إليه وأكبر منه - وجدت فقرة واحدة تشير إلى الأعياد المسيحية، لكنها مهمة جداً رغم قصرها.

هناك كتاب ثالث لمؤلف أندلسي حول البدع. إنه "كتاب الاعتصام" لأبى إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، المعروف بالشاطبي (توفي عام ٧٩٠هـ / ١٣٨٨)^(٩). هناك طبعة لهذا الكتاب، لم أتمكن من الاطلاع عليها، نشرت في القاهرة في عام ١٣-١٩١٤ في ثلاث مجلدات كما يذكر بروكلمان. الطبعة التي اطلعت عليها نشرت في القاهرة وهي بدون تاريخ ولا يذكرها بروكلمان^(١٠). وقد صدرت في مجلدين فقط، وقد ورد فيها في الجزء الثاني، صفحة ١٣١٦ أن المؤلف لم يتم كتابه. في هذه الطبعة - التي ترد فيها أخبار مهمة خاصة بالأندلس - لم أجد سوى إشارات قليلة إلى الأعياد المسيحية أو الأعياد "غير العربية" التي يُحتفل بها في المشرق، والرواية المأخوذة عن ابن وضّاح ترد في كتابه "البدع والنهي عنها" وهي رواية يوردها العزفي أيضًا في كتاب "الدر المنظم"^(١١).

الفقرة التي أنقلها عن كتاب الطرطوشي المشار إليها تقول:

«ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان، وكذلك على إقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء المجنّات والإسفنج، وهي من الأطعمة المبتدعة، وخروج الرجال جميعًا أو أشتاتًا مع النساء مختلطين للتفرّج، وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلّى، ويقمن^(١٢) فيه الخيم للتفرّج، لا للصلاة^(١٣)».

يحدثنا الطرطوشي عما كان يفعله مسلمو الأندلس في أعياد مختلفة - إسلامية ومسيحية - ولا يفرق بين نوعي الأعياد ولا يحدد أهمية كل منها. العيد الأول الذي يشير إليه هو ليلة السابع والعشرين من رمضان ومن المحتمل أنها توافق ليلة القدر أي الليلة التي أنزل فيها القرآن على محمد وهي ليلة "خير من ألف شهر" وفقًا لنص السورة رقم ٢٧ من كتاب المسلمين المقدس والتي تتحدث بالتحديد عن ليلة القدر. لم يكن هناك أبدًا إجماع بين المسلمين حول تاريخ ليلة القدر التي تكون - طبقًا لغالبية الفقهاء - في ليالي الوتر من العشر الأواخر من رمضان^(١٤).

كان المسلمون في المغرب الإسلامي يحتفلون بليلة القدر وقد جمعت بيانات حول الموضوع، بل وهناك جدل حول أيهما أفضل هل ليلة القدر أم ليلة المولد^(١٥).

الأعياد الأخرى التي ذكرها الطرطوشي صراحة أعياد مسيحية: النيئر والعنصرة (خميس أبريل) هذا النص هو الإشارة الوحيدة التي أعرفها لهذا العيد في الأندلس واحتفال المسلمين به. أي خميس في أبريل هذا؟ إنه الخميس المقدس كما تدل على ذلك فقرة في (كتاب) "الخطط" للمقریزی المصري (المتوفى عام ١٤٤٢م) يشير إليهما محقق كتاب "الحوادث والبدع" في ملاحظة هامشية. عندما يشير المقریزی إلى الخميس المقدس (خميس العهد) ويقول إن المسيحيين في هذا اليوم يحيون ذكرى غسل المسيح لأقدام تلاميذه لكي يعلمهم التواضع، يضيف:

«في أيامنا هذه يسميه العامة في مصر "خميس العدس" ففي هذا اليوم يطبخ المسيحيون العدس المصفي، ويسميه السوريون "خميس الأرز" أو "خميس البيض" ويسميه أهل الأندلس "خميس أبريل" وأبريل اسم شهر من الشهور»^(١٦).

لا يذكر لنا الطرطوشي ما إذا كان المسلمون يشاركون بشكل آخر في هذه الاحتفالات المسيحية بالإضافة إلى تناولهم المأكولات التقليدية التي كان يتناولها المسيحيون: الفواكه في يناير، والمجبّن في العنصرة، والكعك والمجنّبات في الخميس المقدس، وربما كانت هذه الأطعمة هي أساس الحلوى التي يتناولها المسيحيون في الأسبوع المقدس.

الفقرة الثانية ليس من الواضح ما إذا كانت تشير إلى الأعياد المسيحية (أعتقد شخصيًا أنها تشير) لكنها على أية حال تمدنا بمعلومة أخرى حول الحرية التي كانت المرأة الأندلسية تتمتع بها.^(١٧)

(١٥) مؤخرًا نشرت للدكتورة مانويلا مارين الأستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمي بمدرّيد كتابًا عن المرأة في الأندلس، وربما تصدر

ترجمته العربية عن المركز القومي للترجمة. (المترجم)

٢ - ترتيب المدارك للقاضي عياض السبتي:

كان قاضي سبته أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (المتوفى عام ٥٤٤/١١٤٩) معاصرًا لأبي بكر الطرطوشي، وقد خصص له المقرئ كتاب "أزهار الرياض" - رغم أن الكتاب يشتمل على موضوعات أخرى. كان القاضي عياض شخصية وثيقة الصلة بالتاريخ السياسي والديني للأندلس (كان قاضيًا لغرناطة) وكتب - بين مؤلفات أخرى - كتابًا عن الفقهاء المالكيين وخصص جزءًا كبيرًا من كتابه للأندلسيين. عندما قرأت هذا الكتاب، وعنوانه "ترتيب المدارك"، الذي نُشر منذ سنوات^(١٧) وجدت طرفة مهمة عن حياة أبي بكر يحيى بن هذيل Hudayl "شاعر وقته" كما يقول ابن الفرضي^(١٨) وهو تأكيد ينبغي أن يؤخذ على محمل الجد. إن أشعار أبي بكر يحيى بن هذيل هذا التي وصلت إلينا - خارج ما كتبه الذين أرخوا له - قليلة. يكفي أن نذكر أن المقرئ لم ينقل عنه سوى قصيدة قصيرة من ستة أبيات^(١٩) وحكاية ترجمها شاك Schack عن لقائه ابن القوطية في حملة قرطبة وبيت الشعر الذي ردَّ به ابن القوطية على سؤال صيغ في بيت شعر، وهي حكاية استعان بها خوليان ريبيرا لرسم صورة لذلك المؤرخ الشهير في مقدمة ترجمته لكتاب "تاريخ افتتاح الأندلس"^(٢٠). مع ذلك يبدو أن ابن هذيل كان شاعرًا كبيرًا بالفعل أو على الأقل كان كذلك في نظر الناس، ففي طبعة حديثة لكتاب "التشبيهات من عصر أهل الأندلس" لأبي عبد الله محمد الكتاني Kattani، وهو معاصر ليحيى بن هذيل، يرد ما لا يقل عن ٢١٢ فقرة شعرية له من إجمالي ٧٦٠ فقرة وردت في الكتاب^(٢١).

الحكاية التي حفظها القاضي عياض والتي لا أنكر أنني وجدتُها في أي مصدر آخر والتي لم تسترِع انتباه أحد على ما أعتقد - وردت هكذا:

«ومن أخباره أنَّ الناصر كان قد أُنذر الخطباء والشعراء بحضور خيل الحلبة في المهرجان. قال ابن هذيل: فجاءني الأمر بذلك، عشيَّ نهارها. فخلوت

بقية يومى والنصف من ليلتى، لم أنظم كلمة. فأويت إلى فراشى، أخذتني عيني، فكنت أرى شخصاً فى المنام يقول لى: ترقد يا أبا بكر، ولم يفتح عليك. ثم يقول:

مشاهد يلزمنا حضورها للخيل حتى تنقضى أمورها

وهببت سريعاً وقد توقد خاطرى وافتتحت بهذا الابتداء، وانثالت على القوافى. فجئت بأرجوزة حسنة. غدوت بها أول منشد^(٢٢)».

هذه الفقرة تقدم لنا الدليل الأول - غير المعروض على ما أعتقد والذي لم يبرزه المحقق - عن الاحتفال بمسابقات الخيل فى "المهرجان" أو "العنصرة"، أى فى أثناء الاحتفال بالنبي يحيى San Juan Bautista التى كان ينظمها ويرعاها عبد الرحمن الثالث نفسه والتى كانت تتم فى ساحة قصر الخليفة والتى واكبها - على الأقل فى تلك المرة - مهرجان شعري.

حول مسابقة الخيل فى عيد النبي يحيى تحدثنا نصوص أخرى جمعتها فى هذا المقال. إن الفقرة المهمة التى وردت فى كتاب القاضى عياض تخبرنا - دون تعليق، وهو ما يعنى أن الأمر لم يكن جديداً - أن أول خليفة أموى إسباني كان يشترك بشكل أو بآخر فى احتفالات رعاياه المسيحيين.

٣- "كتاب المعيار المغرب" للونشريسى:

فى مجموعة الفتاوى الكبيرة التى تتدرج تحت عنوان "كتاب المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب" - التى رجعت إليها فى أكثر من مناسبة^(٢٣) - والتى تحتوى على مضمون فى غاية الأهمية والتى لم يترجم منها إلا جزء يسير - يعرض المؤلف أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى (٨٣٤-٩١٤/١٤٣٠-١٥٠٨) حكايات تشير إلى أعياد مسيحية فى الأندلس (وفى شمال إفريقيا) واحتفال المسلمين بها. فى المقال الأول من هذه السلسلة رأينا - من خلال كتاب "الدر المنظم" لأبى العباس العزفى وابنه أبى القاسم - آراء عدد من فقهاء الأندلس وشمال إفريقيا حول الموضوع الذى كان مدعاة للقلق فى مختلف

العصور بالنسبة لفقهاء المالكية. من هنا كانت الأسئلة التي وردت إلى فقهاء الأندلس والمغاربة الذين أدانوا تلك الاحتفالات بالإجماع. إن النصوص التي جمعها الونشريسي في كتابه نجد فيها الأسباب نفسها التي ساقها العزفي، بل والجمل نفسها في بعض الأحيان لبعض فقهاء الأندلس الذين يرد ذكرهم في كتاب "الدر المنظم". من الطبيعي أن ترد نفس الأحاديث أو ما يشابهها في الكتب المختلفة. ولما كانت النصوص في كتابي "الدر" و"المعيار" ليست متطابقة تمامًا ولا تتفق إلا في نص ما، ولما كان "المعيار" كتابا يصعب العثور عليه في المكتبات وقراءته صعبة لأن طبعته سيئة، وخطها سيئ (خطوط كثيرة) وورقه سيئ (مما أدى إلى انسكاب الحبر ومحو بعض الكلمات)^(٢٥) لذلك كله قررت نقل هذه النصوص - وهي عملية أكثر صعوبة من قراءة مخطوطة متوسطة المستوى - لكي تتوافر لدينا المادة العلمية اللازمة لدراستنا.

من الغريب أن الونشريسي لم يستخدم كتاب "الدر المنظم" وأنه لا يكاد يذكره عندما يشير إلى الاحتفالات المسيحية. إذا كان لم يعرف الكتاب فقد استعان بمصادر أخرى لم يستخدمها العزفي وعليه فإنه يقدم أخبارًا جديدة ومهمة لمؤلفين قدامى لا يرد ذكرهم في "الدر".

في الصفحات التالية سنورد كل فقرة مع ترجمتها الإسبانية ونراعي ترتيب كل فقرة ضمن كتاب "المعيار".

(١)

تنتمي هذه الفقرة الأولى للونشريسي إلى مجموعة فتاوى حول البدع جمعها هو نفسه وربما كانت مكتوبة قبل أن يشرع في كتابة "المعيار". هذا الفصل الذي يشغل الصفحات ٣٥٨-٤٠١ من المجلد الثاني ليس له عنوان ويبدأ بجملة "فصل أذكر فيه المستحسن من البدع وغيرها"^(٢٦) رغم أن كتاب "المعيار" - نظرًا لتاريخ

تأليفه - لا يهم موضوعنا، فقد رأيت أنه من المناسب أن أورد هذه الفقرة نظراً لأنها تتضمن نعتاً لفقّيه يُدعى ابن الحاج.

من كان ابن الحاج هذا؟ على مدى وقت طويل كنت مقتنعاً بأنه عبد الله محمد بن العبدري المعروف بابن الحاج وهو عالم من فاس ذائع الصيت توفي عام ٧٣٧هـ/١٣٣٩-٣٧ ومؤلف - من هنا ظني - كتاب ضد البدع عنوانه "مدخل في تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبية على كثير من البدع المحدثّة والعوائد المنتحلة" وهو كتاب أورد ابن فرحون نبذة عنه^(٢٧). ومع ذلك فإن قراءة كتاب "المعيار" تدعوني إلى الظن أنه في الحقيقة القاضي أبو عبد الله بن الحاج كما يسميه الونشريسي عندما يورد بعض فتاواه. من هذه الفتاوى نعلم أنه إسباني ونعرف العصر الذي عاش فيه^(٢٨). أعتقد إذن أنه محمد بن أحمد بن خلف إبراهيم بن اللبّ التجيبي قاضي جماعة قرطبة الذي اغتيل في المسجد عام ١١٣٥/٥٢٩ بينما كان يؤدي الصلاة.^(٢٩)

«ومنها أن يُباع من النصارى شيء من مصالح عيدهم من لحم أو إدام أو ثوب. قال ابن الحاج: ولا يعارون دابةً ولا يعانون على شيء من عيدهم لأنّ ذلك من تعظيم شركهم وعونهم على كفرهم. وينبغي للسلطان أن ينهوا المسلمين عن ذلك، وهو قول مالك وغيره، ولم أعلمه اختلف قوله في ذلك. قاله في مختصر الواضحة^(٣٠)».

(٢)

ينقل الونشريسي في هذه الفقرة فتوى لأبي الطيب - ولا يذكر غير كنيته ولهذا فلم أتمكن من التعرف عليه - حول الهدايا التي يتلقاها المعلم في المدرسة يوم عاشوراء^(٣١). وفي أعياد أخرى (أي إسلامية). الفتوى واضحة: ليس هناك ضرر في ذلك. لكن حتى لا يفهم السائل أن الفتوى تشمل أيضاً الأعياد المسيحية (وهو ما يدعونا إلى الاعتقاد أن الأعياد المسيحية كانت شيئاً مألوفاً) يعلن أبو الطيب أن العادة غير جائزة.

«وسئل أبو الطيب عما يأخذه المعلم في عاشوراء والأعياد، فأجاب: لا بأس بالأخذ في عاشوراء وأعياد المسلمين، وأمّا أعياد العجم فلا يجوز أخذه وعليه ردّه إلى أصحابه فإن لم يعرفهم تصرّف به»^(٣٢).

(٣)

سؤال ورد إلى محمد بن عمر بن لبابة حول ما يفعله المسلمون يوم القديس خوان. المفتى - وهو واحد من أبرز فقهاء عصر الأمير عبد الله أو أبرزهم على الإطلاق إذا اعتمدنا ما يقوله عنه ابن هذيل - برز من بداية حكم عبد الرحمن الثالث وحتى وفاته في ٣١٤هـ/٩٢٦م.

«وسئل محمد بن عمر بن لبابة عما يفعله الناس بالبادية يوم العنصرة من نشر الثياب وصم^(٣٤) الخيل قبل الصلاة أسنة أم مستحب أم مكروه، فأجاب: مجانين الحاضرة يفعلونه وهو خطأ في الدين والأدب»^(٣٥).

إن أهمية هذه الفقرة تكمن في أنها تذكر أن العنصرة كان يُحتفل بها في إسبانيا الإسلامية، ليس فقط في قرطبة ومدن أخرى كما نعلم، بل في الريف، وهذا كان مسموحًا به نظرًا لطبيعة الاحتفال.

(٤)

الفقرة الرابعة عبارة عن سؤال موجه إلى أبي الأصبغ موسى بن محمد التميلي وإجابة مسهبة عن السؤال. لم أتمكن من التعرف على هذا الفقيه الذي يظهر اسمه في النص على أنه "أبو الأصبغ عيسى بن محمد التميلي" ويصوب الاسم في الهامش^(٣٦). في بداية الفتوى هناك ربط لا داعي له لليلة اليناير بالميلاد لا نجده في أي نص آخر. ربما كانت الجملة مبتورة ويجب أن نفهم أنها تشير إلى احتفالين لا احتفال واحد. وأيًا كانت شخصية أبي الأصبغ (وهو إسباني دون شك) فمن المؤكد أنه يستند في فتواه إلى فقرة ليحيى بن يحيى الليثي وهو شخص

معروف ليس فقط كفقّيه وإنما لدوره في ثورة الربض في قرطبة التي قمعها الحكم الأول (٣٧).

«وسئل أبو الأصبغ موسى بن محمد التطيلي عن ليلة ينير التي يسمونها (كذا، والصحيح يسميها) الناس الميلاد، ويجتهدون لها في الاستعداد ويجعلونها كأحد الأعياد ويتهادون بينهم صنوف الأطعمة وأنواع التحف والطرف المنويّة لوجه الصلة، ويترك الرجال والنساء أعمالهم... تعظيمًا لليوم، ويعتونه رأس السنة. أترى ذلك - أكرمك الله - بدعة محرّمة، لا يحلّ لمسلم أن يفعل ذلك ولا أن يجيب أحدًا من أقاربه وأصهاره إلى شيء من ذلك الطعام الذي أعدّه لها، أم هو مكروه ليس بالحرام الصراح، أم مستقبل؛ وقد جاءت أحاديث مأثورة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المتشبهين من أمته بالنصارى في نيروزهم ومهرجانهم وأنهم محشورون معهم يوم القيامة، وجاء عنهم أيضًا أنه قال: من تشبهه بقوم فهو منهم. فبيّن لنا - أكرمك الله - ما صحّ عندك في ذلك إن شاء الله تعالى».

فأجاب:

«قرأت كتابك هذا، ووقفت على ما عنه سألت، وكلّ ما ذكرته في كتابك فمحرّم فعله عند أهل العلم، وقد رويت الأحاديث التي ذكرتها من التشديد في ذلك، ورويت أيضًا أن يحيى بن يحيى الليثي قال: لا تجوز الهدايا في الميلاد من نصراني ولا من مسلم، ولا إجابة الدعوة فيه، ولا استعداد له، وينبغي أن يجعل كسائر الأيام، ورُفِعَ فيه حديثًا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال يومًا لأصحابه: إنكم مستنزلون بين ظهرائي عجم، فمن تشبه بهم في نيروزهم ومهرجانهم حُشِرَ معهم. قال يحيى؛ وسألت عن ذلك ابن كنانة وأخبرته بحالنا في بلدنا فأنكره وعابه وقال: الذي يثبت عندنا في ذلك الكراهية، وكذلك سمعت مالكا يقول لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): من تشبهه بقوم حُشِرَ معهم. قال يحيى بن يحيى: وكذلك إجراء الخيل والمهارة في العنصرة لا يجوز ذلك. وكذلك ما

يفعله النساء من وشى بيوتهن يوم العنصرة، وذلك من فعل الجاهلية، وكذلك إخراج ثيابهن إلى الندى بالليل، ومكروه أيضاً تركهن العمل في ذلك اليوم، وأن يجعل ورق الكرنب والخضرة واغتسالهن بالماء ذلك اليوم، لا يحل أصلاً إلا لحاجة من جنابة. قال يحيى بن يحيى: ومن فعل ذلك فقد أشرك في دم [يحيى بن] زكرياء، وقد جاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: من كثّر سواد قوم فهو منهم، ومن رضى عملاً كان شريك من عمله؛ هذا فيمن رضى ولم يعمله، فكيف من عمله وسنه سنة؟ والله نسأله التوفيق. وإياكن تعظيم يوم الأحد والسبت وترك العمل فيهما وفي أعياد النصارى، وليعمل (وليعلن) الأيام كلها ويوم الجمعة حتى ينادى بالصلاة، ثم يصلين، فإذا فرغتن فأقبلن على شغلكن ومعاشكن ومصلحة أزواجكن وأولادكن، ولا تدعن العمل راتبا ولا تعظمن يوماً بترك العمل فيه إلا يوم الفطر والأضحى، فإنهما يوماً طعام وشراب وشكرا لله».

(٥)

الفقرة الخامسة عبارة عن سؤال موجه إلى سحنون عالم القيروان الشهير، وربما كان السائل فقيهاً أندلسياً وربما كان هو ابن وضّاح بالتحديد:

ووقع لسحنون مثل ما تقدّم ونصه:

«ولا تجوز الهدايا في الميلاد من مسلم ولا من نصراني ولا إجابة الدعوة فيه ولا الاستعداد له. قال: ولا يجوز إجراء الخيل في العنصرة ولا بأس به في غيرها، ولا يجوز الاستعداد في العنصرة، ولا الاستحمام منها، ولا حمّ الدواب، ولا وقد النيران تحت الثمار وغيرها، كهينة فعل شرار هذه الأمة وسفالتها؛ وكل ذلك حرام محرّم، وكذلك الاستعداد في الليلة التي يُقال [لها] ليلة الحاجوز. وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوماً لأصحابه: إنكم تستزلون بين ظهرائي عجم، فمن تشبه بهم في نيروزهم حشره الله معهم. فالنيروز ليلة يتّير والمهرجان العنصرة».

هذه الفقرة - التي تردد آراء وأخبارًا ظهرت في كتابات أخرى وترجمات في صفحات سابقة - تكمن أهميتها في أنها أول إشارة في نصوص عربية قديمة - سحنون توفي عام ٢٤٠هـ/٨٥٤ - إلى النيران التي توقد في ليلة عيد القديس خوان.

(٦)

الفقرة التالية ترد أيضًا في كتاب "الدر المنظم" لأبي العباس وأبي القاسم العزفي. هي عبارة عن سؤال وجهه ابن خميس إلى ابن وضّاح بخصوص ليلة العجوز:

«وسئل ابن وضّاح من قبل المعلم محمد بن خميس عن ليلة الحجوز وما يفعله أهل بلدنا فيها. فأجاب بأن ذلك مكروه وعابه عيبًا شديدًا ونزع بآى من القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(*)، ﴿وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(**).

(٧)

الفقرة الأخيرة من كتاب "المعيار" التي أجد فيها إشارات للأعياد المسيحية ترد ضمن فتوى للفقير المغربي أحمد القَبَّاب (توفي عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧-٧٨م) ردًا على سؤال حول طريقة تعظيم التلاميذ للنبي في الاحتفال بمولده، وقد بدت للمفتي بعض هذه الأفعال غير صحيحة.

وتأكيدًا لرأيه حول الهدايا التي يتلقاها المعلم من تلاميذه في المولد يستند القَبَّاب إلى رأى كبار الفقهاء الأندلسيين: عبد الملك بن حبيب وابن رشد (الجد أو الحفيد):

(*) سورة الأعراف، آية ١٤٢. (المترجم)

(**) سورة يونس، آية ٨٩. (المترجم)

«قال ابن حبيب إنه لا يقضى للمعلم بشيء في أعياد المسلمين وإن كان ذلك مما يستحب فعله. وقال: إنَّ الإِطاء في أعياد النصارى مثل النيروز والمهرجان مكروه ولا يجوز لمن فعله ولا يحلُّ لمن قبله لأنه من تعظيم الشرك. قال ابن رشد: كان القياس أن لا فرق بين الحذاق وما يعطى في الأعياد، إذا جرت بها العادة وإنه يقضى بالجميع وإنما فرَّق ابن حبيب بين ذلك لأن الحذاق بلغها الصبي بتعليم المعلم والأعياد لا فعل له فيها؛ وإذا كان ابن حبيب يقول لا يقضى له بالأعياد والمواسم الشرعيَّة فكيف بما ليس بشرعي؟».

الهوامش:

- ١- انظر الجزء الأول من هذه الدراسة.
- ٢- المصدر السابق.
- ٣- حققه محمد أحمد دهمان ، دمشق، ١٣٤٩هـ.
- ٤- الإشارات القليلة إلى الموضوع الموجودة في الكتاب نشرها العزفي في كتاب "الدر"، انظر الجزء الأول من الدراسة.
- ٥- Cf. Sezgin, *Geschichte des arabischen Schrifttums*, Leiden, 1967, I, 475. Vease tambien Broickelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur, Supplementband*, II, 978.
- ٦- حققه محمد الطالبى ، تونس، ١٩٥٩. وقد اعتمد أسين بالاثيوس عليه في كتابه "الإسلام المتأثر بالمسيحية". El Islam cristianizado, Madrid, 1931.
- ٧- *Lampara de los Príncipes* por Abubequer de Tortusa, traducción española de Maximiliano Alarcón, Madrid, 1930'31, dos vols.
- ٨- Cf. Broickelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*, I, 459 y *Supplementband*, I, 829.
- حول الطرطوشى انظر أيضا مقدمة ماكسميليانو ألكون في ترجمته المشار إليها في الملاحظة السابقة.
- ٩- Broickelmann, *Supplementband*, II, 374-375
- ١٠- Ibidem, p. 375
- ١١- انظر الجزء الأول من هذه الدراسة. النص المشار إليه موجود في "كتاب الاعتصام"، الجزء الثانى، ص ٢٥-٢٦.
- ١٢- وردت هكذا ، وربما كان الصحيح "يقيمون".
- ١٣- انظر الطرطوشى "كتاب الحوادث والبدع" ، سبق ذكره ، ص ١٤٠-١٤١.
- ١٤- Cf. *Shorter Encyclopaedia of Islam*, editada por H. A. R. Giba y J. H. Kramers, Leiden, 1961, p. 189. Vease tambien E. W. Lane, *Manners and Customs of the Modern Egyptian*, Londres, Everyman's library, ed. 1954, p. 484.
- ١٥- حدث في تونس العاصمة في النصف الأول من القرن الرابع عشر واشترك فيه الفقهاء ابن عرفة وابن حيدرة وابن مرزوق وآخرون. يتحدث الونشريسي عن الموضوع في كتاب "المعيار" الجزء الثامن.

- ١٦- انظر أبو بكر الطرطوشي، مصدر مذكور، ص ١٤١.
- ١٧- حول هذه الشخصية المهمة انظر Broickelman - GAL, I, 369-370، درس المؤلف التونسي محمد الطالبى حياته وأعماله فى مقدمة الطبعة الجزئية للعمل الذى أشير إليه فى الملاحظة القادمة.
- ١٨- " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة عالم مذهب مالك" تحقيق أحمد بكير محمود، فى مجلدين ومجلد آخر للفهارس، بيروت ، بدون تاريخ (تحل مقدمة المجلدين الأول والثالث عامى ١٩٦٥ ، ١٩٦٨) هناك طبعة جزئية للكتاب بعنوان *Biographies aghlabides extraites des Madarik du Cadi lyad* نشرها البروفيسور للطالبى فى تونس عام ١٩٦٨ ضمن إصدارات الجامعة.
- ١٩- Apud Analectes, II, 106
- ٢٠- Ibidem, II, 51; Adolfo Federico de Shack, Poesía y arte de los árabes de España y Sicilia, trad Juan Valera, Mejico, 1944, pp. 158-159; Historia de la Conquista de España por Abnelcotia el Cordobés, ed. P. de Gayangos, trad. Y prologo de Julián Ribera, en *Colección de Obras Arábicas de Historia y Geografía* que publica la R. A. de la Historia, II, Madrid, 1868'1926, p.x
- ٢١- كتاب التشبيهات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، بدون تاريخ (تاريخ المقدمة عام ١٩٦٦) انظر الفهرس ص. ٣٣٧-٣٣٨
- ٢٢- ترتيب المدارك، مصدر مذكور، الجزء الثالث والرابع، ص. ٥٥٢-٥٥٣
- ٢٣- أشرت إلى أهمية هذا الكتاب فى مقال لى بعنوان " جدل دينى فى مرسية فى عصر ألفونسو العالم"، وهى دراسة تستند إلى نص أنقذه الونشريسى من النسيان. حول الكتاب والمؤلف انظر مقالى المذكور ص ٤٧-٤٨. وقد نشرت فى مجلة الأندلس أيضاً مقالا بعنوان "حول اسم محمد فى الغرب" اعتمدت فيها على فتوى نشرها الونشريسى. أعددت دراسات تعتمد على معلومات وردت فى هذا الكتاب.
- ٢٤- فى مقالى المذكور فى الملاحظة السابقة أشرت إلى وجود نصوص "كتاب المعيار" هذه.
- ٢٥- حول خصائص هذه الطبعة التى نشرت فى فاس عام ١٨٩٦-٩٧ انظر مقالى المنشور فى مجلة الأندلس عام ١٩٦٦.
- ٢٦- الونشريسى، "المعيار"، الجزء الثانى، ص. ٣٥٨.
- ٢٧- ابن فرحون "كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب" القاهرة، ١٣٥١ هـ، ص. ٣٢٧-٣٢٨.
- ٢٨- كثير من الأسئلة التى طرحت عليه جمعها الونشريسى فى كتاب " المعيار" ، الجزء الرابع، ص ١٤٤ وما يليها.

٢٩- سيرة حياته موجودة في كتاب "الصلة" لابن بشكوال، تحقيق فرانثيسكو كويرا، مدريد، ١٨٨٢-١٨٨٣، ص. ٥٢٢.

٣٠- الونشريسي، "المعيار"، الجزء الثاني، ص ٣٨٣.

٣١- هو لليوم العاشر من شهر المحرم، وهو يوم يحتفل فيه أطفال مدارس القرآن بالمغرب ببعض الاحتفالات الشعبية. هذه الشعائر ونشأبتها مع الاحتفال بالعنصرة في مناطق مغربية، كان موضع دراسات قام بها باحثون فرنسيون. انظر:

Alfred Bel, *La ansaraÑ flux et rites du solstice d'ete en Berberie*.

٣٢- الونشريسي، "المعيار"، الجزء الرابع، ص ١٦٠.

٣٣- يسميه "زعيمهم (زعيم الفقهاء)" انظر "المقتبس" الذي نشره ميلشور م. أنتونيا، باريس، ١٩٣٧. انظر كذلك بونس بوغيس *Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y geográficos árabe-españoles*, Madrid, 1898, p. 51.

٣٤- ربما كانت "وحم".

٣٥- الونشريسي، "المعيار"، الجزء العاشر، ص ٧٤.

٣٦- لا أجرؤ على ترجمة هذا المصدر، فقرأه النص صعبة.

٣٧- Véase E. Levi Provencal, *España Musulmana*, tomo IV, de la *Historia de España*, dirigida por R. Menéndez Pidal, Madrid, 1950, p. 108.

معجزات إسبانية فى مؤلف جدلى إسلامى كتاب "مقامع الصليان" للخزرجى

فيرناندو دى لاغرانخا

منذ سنوات كثيرة - حين كنت أبحث عن موضوع لرسالة الدكتوراة - عكفت على مجموعة مخطوطات عربية، بتلك الرغبة السانجة التى يتميز بها المستعربون القدامى والمعاصرون أيضاً: الرغبة فى العثور على كنوز مدفونة. أما عن الكنوز فلم أجد شيئاً، لكننى اكتسبت قدرة على قراءة المخطوطات، وكانت رسالتى للدكتوراه عبارة عن نشر نص عربى على أساس مخطوطتين وترجمته وإعداد دراسة حوله.

قبل أن أقرر ما هو الموضوع كانت هناك عدة مؤلفات أثارت اهتمامى، وكنت قد قرأتها ونقلت منها فقرات طويلة بل وصفحات، وفى بعض الأحيان نقلت النص كاملاً. كانت هناك حينئذ مخطوطتان أثارتا اهتمامى رغم أننى فى النهاية لم أدرسهما. إذ إنهما كانا تتطلبان استعداداً خارج نطاق الاستعراب لم أكن مؤهلاً له، ولست الآن قريباً منه. هناك صورة ضوئية لتلك المخطوطتين المحفوظتين فى المكتبات التركية فى مدرسة الدراسات العربية بمدريد، وهما تتضمنان مؤلفات فى الجدل ضد المسيحية، وتجمع بينهما بعض أوجه التشابه التى سأحدث عنها فيما بعد.

أحد هذه المؤلفات عنوانه "كتاب الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والبهتان وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا"، وهو ينسب إلى محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى المتوفى فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر. الكتاب ومؤلفه يجهلها على ما يبدو المؤلفون المسلمون، ولم يشر إليهما حتى وقت قريب أى مستعرب أو دارس للثقافة الإسلامية. ورغم خدعة نسب القرطبى فإن المؤلف شرقى. وطبقاً لعادة اتخاذ الألقاب التى امتدت من المشرق

إلى جميع أنحاء العالم فإن المؤلف كان يستخدم لقب "شمس الدين". كل هذه المعلومات على ضوء ما يكتبه بروكلمان الذي كتب عنه نصف صفحة في دراسته *Geschichti der Arabischd*، ونفس القدر^(١) في الملحق *Supplementband*.

هناك مؤلف سابق لهذا الكتاب، يمثل حلقة أخرى في سلسلة الجدل الديني بين الإسلام والمسيحية، وهو موجود في المخطوطة الأخرى التي أشرت إليها. أعنى كتاب "مقامع الصليبان". سأحدث عن العنوان فيما بعد. بروكلمان لا يذكره ولا يذكر مؤلفه واسمه أحمد بن عبد الصمد، ونسبته على ما يبدو هي الأنصاري القرطبي، وهذه النسبة صحيحة لأن المؤلف قرطبي بالفعل. سنشير في صفحات قادمة إلى معلومات محتملة عن حياته، وسنحلل بعض الأخبار التي ترد في مخطوطة لهذا الكتاب وتشير إلى معجزات مسيحية في الأندلس وأظن أنها مهمة جدا.

إن وجود الصورة الضوئية لهاتين المخطوطتين في مدرسة الدراسات العربية ليس بمحض الصدفة، فلا شك في أن ميغيل أسين بالا ثيوس (وهو الذي نشر عدة دراسات حول الجدل الديني بالإضافة إلى علاقة هذا الموضوع بكتاب ابن حزم القرطبي) كان هو الذي طلبهما لإعداد أبحاث جديدة أو للبحث عن أثر لابن حزم في هذا الكتاب. أدرجت المخطوطتان في مدرسة الدراسات العربية بعد تأسيسها بقليل، إذ يرد ذكرهما في سجل المكتبة تحت رقمي ٨٠٣، ٨٠٢ وتاريخ دخولهما هو ٢ أكتوبر ١٩٣٣. والمخطوطتان موجودتان معاً في الصندوق رقم ٩١ وهو رقمهما الحالي. وسواء في كتاب سجل المكتبة أو في الفهارس فإن اسم المؤلفين هو القرطبي فقط ربما لظن البعض أن الكتابين لمؤلف واحد. من الغريب أن القدر يجمع بين القرطبيين اللذين لا يقتصر تشابههما على مكان النشأة وموضوع الكتاب وإنما يتشابهان كذلك في القضايا التي يطرحها قساوسة من طليطلة. أعترف أنني أيضاً عندما قرأت المخطوطتين كنت مقتنعا أن مؤلفهما واحد.

صورة المخطوطة التي تتضمن "كتاب الإعلام" توافق المخطوطة رقم ٧٩٤ في مكتبة كوبرولو أحمد في إسطنبول. ورغم أن ميغيل أسين - على حد علمي - لم يستعمل هذه المخطوطة في أى بحث، فالشيء المؤكد أنه قرأها، فهناك عدة ملحوظات بخطه في هوامش الصور مثل: الهامش، نص، مقدمة كتاب مسيحي عنوانه "تثليث الوجدانية"، اجتماع القساوسة في طليطلة، نص، العقيدة المسيحية الخاصة بشخصيات التثليث... إلخ، وهى ملاحظات تتواصل على مدى النص وأبرزها هى تلك الملاحظات التى تشير إلى القضايا الإسبانية. تتوقف الملاحظات اعتباراً من صفحة ٢١٦ حيث يبدأ المؤلف الآخر: "كتاب على التوراة" للباي (٢) الذى يشمل حتى صفحة ٢٧٥، أى آخر صفحة فى المخطوطة، وهناك أمر يجعلنى أظن أن ميغيل أسين فى نهاية حياته كان يريد دراسة هذه المخطوطة فى الفترة التى كان يحرر فيها كتاب "الشاذليون" الذى مات قبل أن يتمه (٣).

منذ شهور وعندما كنت قد انتهيت من هذا البحث حدثنى البروفيسور كاردايك، وهو متخصص فى أدب الجدل عند الموريسكيين (٤)، عن رسالة الدكتوراة لباول دوفيلار عن القرطبي ناقشها فى جامعة إيكس إن بروفنس. لم يذكر لى وقتها عن أى القرطبيين كان يتحدث ولا عنوان الكتاب، لأنه لم يكن قد قرأ الرسالة بعد. لما رأى كاردايك اهتمامى بهذا الموضوع لم يكتف بتوضيح القضية كما طلبت وإنما أحضر لى فى اليوم التالى نسخة من الرسالة، وهى لفظة كريمة أشير إليها بامتنان.

تتكون رسالة دو فيلار من ثلاثة مجلدات. الدراسة عنوانها "مدخل إلى كتاب القرطبي "الإسلام (كذا) (٤) بما فى دين النصارى من الفساد...". المجلدان الآخران يتضمنان نشرًا جزئيًا للمخطوطة العربية ثم ترجمتها إلى الفرنسية.

(٤) له كتاب كامل بالفرنسية عن الجدل بين الموريسكيين والمسيحيين، وقد ترجمه الدكتور عبد الجليل التميمي إلى العربية مختصرًا تحت عنوان "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية" زغوان، تونس، ١٩٨٩. (المترجم)

لم يكن الأمر يتعلق إذن بالمخطوطة التي يقوم عليها بحثي الذي كنت قد انتهيت منه وإنما كان يتعلق بكتاب آخر، لا لمحمد بن فرح الأنصاري القرطبي في (رأى بروكلمان)، وإنما لأبي جعفر بن نصر الروادي القرطبي^(٥). من بين المخطوطتين الموجودتين يستعمل دوفيلار رقم ٧٩٤ من مكتبة إسطنبول وهي التي توجد نسخة منها في مدرسة الدراسات العربية.

لا توجد هناك دراسة جامعة عن الجدل بين المسيحيين والمسلمين، خاصة فيما يتعلق بالغرب. من المؤسف في هذا الصدد قلة المعلومات عن الجانب المسلم التي يقدمها كتاب نورمان دانييل^(٦)، وهو كتاب ممتاز قد يكون من المستحسن تكملته. وكما يحدث في مجالات كثيرة للدراسات العربية فمن الضروري إعداد دراسة مسبقة عن النص المحقق أو على الأقل يجب أن تكون هناك طبعة معقولة كطبعات بولاق تلك، وأن تكون هناك ترجمات ودراسات متعلقة بها تضع شيئاً من الضوء على طريق ممثلي بالظلمات. يجب ألا ننسى أن كتاب أسين بالاثيوس "ابن حزم القرطبي وتاريخ الأفكار الدينية" قد أعد استناداً إلى طبعة شرقية غير جيدة.

لقد برزت في الحقيقة أعمال مهمة ربما كانت خيطاً يقود إلى المعرفة. هناك أشخاص يعملون منذ سنوات في هذا المجال وقد نشروا نصوصاً مهمة وترجمات ودراسات. إن إحصاء أهم الدراسات، الذي قمت بإعداده وفكرت في إدراجه في الهوامش، لن يظهر في هذه الصفحات، فقد عدلت عنه في اللحظة الأخيرة لأسباب سأوضحها في الحال. عندما كان هذا البحث تحت الطبع وصل إلى يدي العدد الأخير من مجلة أرابيكا (فبراير ١٩٧١) وهو يتضمن موجزاً رائعاً عن وضع القضية، كتبه ميكيل دي إيبالنا (له رسالة دكتوراه عن عبد الله الترجمان، وكان اسمه أنسيلمو دي تورميديا قبل إسلامه). أوجه الباحثين إذن إلى هذا الموجز الذي كتبه ميكيل دي إيبالنا وعنوانه Notes pour une histoire des polemiques

antichristiennes dans l'Occidente^(٧).

وأنبه إلى أنه على صفحات هذا البحث ستظهر بعض الملاحظات والمعلومات التي كنت أريد حذفها لو كان لدى مزيد من الوقت. لم أشر إلى هذا الموجز الذي كتبه البروفيسور دوفيلار^(٨) لأن الموجز طبع بأعداد محدودة^(٩) ولا يبدو أن أيا من دوفيلار أو إيبالنا يعلم شيئاً عن مقال البروفيسور محمد المنوني "مناقشات حول الديانات في المغرب الوسيط والحديث"^(١٠) وهو يتضمن أخباراً وتفاصيل مهمة.

كتاب مقامع الصليبان:

المخطوطة الأخرى التي لم أكد أذكرها حتى الآن هي كتاب "مقامع الصليبان" والتي تحفظ صورة ضوئية منها في الصندوق رقم ٩١ بمدرسة الدراسات العربية في مدريد ولا توجد بها أية ملاحظات، وهو ما يدعوني إلى الاعتقاد بأن ميغيل أسين لم يدرسها ولا حتى قرأها قراءة عابرة، إذ كان من عادته تدوين ملاحظات عند النقط المهمة في الكتب التي يقرأها.

الصفحات المصورة ظلت طيلة هذا الوقت داخل حافظة، وكنت أضيف إليها بين الحين والحين ملاحظة ما، ذلك أنني وإن كنت قد رفضت دراسة الكتاب كله دراسة متأنية - إذ إن مجال الجدل الديني ليس من تخصصي - فإن صفتين من الكتاب قد أثارتا اهتمامي بشكل خاص وهما يتعرضان لمعجزات مسيحية حدثت في إسبانيا يرويها المؤلف ويسخر منها ويعيب على المسيحيين الاعتقاد فيها. الصفحات التالية، بعد دراسة عن المؤلف والكتاب، تحاول الوصول إلى أصل هذه المعجزات المشار إليها كوسيلة للتعرف على طرق الاتصال بين المسلمين والمسيحيين الإسبان، أي دون الدخول في صميم الجدل الديني. في هذا الخط نفسه قمت بدراسة "الجدل الديني في مرسية في عصر ألفونسو العالم" واستندت في دراستي إلى نص حفظه الونشريسي، وتحت العنوان نفسه نشرت الدراسة في هذه المجلة منذ سنوات^(١١). (من الغريب أنه في عدد المجلة نفسه ظهرت دراسة

للبروفيسور عبد المجيد تركي^(١٢) يتعرض فيها لموضوع الجدل الديني الذي كان قد درس عدة مرات على صفحات مجلة الأندلس.

مؤلف "كتاب مقامع الصلبان":

يبدو أن ابن الآبار كان أول من أشار إلى هذا الرجل وذكر عنه خبراً أترجمه كاملاً:

أحمد بن عبد الصمد بن عبيدة بن محمد بن أحمد بن محمود بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجي، قرطبي، انتقل إلى العيش في بجاية بعد أن عاش في غرناطة فترة من الوقت. كانت كنيته "أبو جعفر" تعلم الحديث من أبي عبد الله بن مكي وأبي جعفر البطرأوي وعبد الرحمن الحجارى وأبي بكر بن العربي وشريح بن محمد وابن ورد ابن أبي الخصال وآخرين. عكف على دراسة الحديث ونقله. كتب مؤلفاً عن شريعة النبي (صلى الله عليه وسلم) أسماه "آفاق الشمس وعلاق النفوس"، ومؤلفاً آخر أسماه "مقامع الصلبان" (الناشرون يضيفون إلى العنوان "ومراتع رياض الإيمان"). نقل الأحاديث الشريفة عنه أبو القاسم بن بقي وأبو سليمان بن حوط الله. توفي بمدينة فاس في أواخر ذي الحجة عام ٥٨٢ (١٢ مارس ١١٨٧) وكان قد ولد عام ٥١٩ (١١٢٥)^(١٣).

من هذه المعلومة عن حياته تأتي المعلومات الواردة في "نيل الابتهاج" لأحمد بابا^(١٤) الذي يذكر في نهاية كتابه اسم ابن الآبار (ونكره ابن الآبار) وبالفعل فإنه يقتصر على نقل فقرات مع تغييرات طفيفة كأن يصلح كلمة "مرة" فيكتبها "مدة" وربما كانت مكتوبة هكذا في مخطوطة "التكملة" التي استند إليها ابن بابا. لن نتعرض هنا لهذا المؤلف، فهو لا يضيف جديداً إلى المصادر التي لدينا.

أقول الآن وقبل أن أتعرض لابن عبد الملك - وهو الذي كتب السيرة الذاتية لابن عبد الصمد القرطبي وقد سبق كل من أحمد بابا وابن فرحون - إن هذا الأخير كتب شيئاً عن مؤلفنا^(١٥) يزيد عما كتبه ابن الآبار. ومع ذلك، ولأنه لاحق

لابن عبد الملك ولأن معلوماته ترد مع شيء من التفصيل في كتاب ابن عبد الملك، فإننى لن أتعرض للديباج، وسأقتصر على الإشارة في السطور التالية إلى المعلومات المهمة فقط^(١٦).

إن شخصية مؤلفنا قد درست في كتاب "الذيل والتكملة" بشيء من الاستفاضة، والأهم من ذلك هي سلسلة التفاصيل المهمة التي تجعل هذه الترجمة نموذجًا لتراجم السيرة الذاتية داخل إطار الأدب العربى فى العصور الوسطى. إن أهميتها تجعلنا نتمنى لو أنها أطول. لهذا فإننى أعتقد أنه من المناسب أن أترجم النص كاملاً فكله مفيد:

أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبدة... محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق... الخرجى الساعدى ينسب إلى سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه.

قرطبى سكن غرناطة مدة وبجاية أخرى، ثم استوطن مدينة فاس أبو جعفر. روى عن أبى بكر بن عبد الله بن العربى وأبى جعفر بن عبد الرحمن البطروجى وأبوى الحسن: شريح وعبد الرحمن الحجارى، وأبى الحسين سليمان بن محمد بن الطراوة وأبوى عبد الله: جعفر حفيد مكى وابن مسعود بن أبى الخصال، وأبى القاسم بن ورد وغيرهم، وله برنامج فى نكرهم.

روى عنه أبو الحسن: ابن عتيق بن موسى لقيه ببجاية، وإبراهيم بن القفاص، وأبو سليمان وأبو محمد: ابنا حوط الله، وأبو عيسى محمد بن محمد بن أبى السداد، وأبو القاسم أحمد بن يزيد بن بقى، وكان فى شببته معروفاً بالذكاء والنبيل مشهوراً بالحفظ للحديث ذاكراً للتواريخ والقصص ممتع المجالسة متين الأدب، تعلق بالرئاسة فنال حظوة وجاهاً، وكفَّ بصره نفعه الله ولم ينقص من حفظه وذكائه شيئاً، وكان له مملوك من أبناء الروم قد علّمه الكتابة فكان يكتب عنه كل ما يؤلف أو يصدر عنه من نظم أو نثر.

ونكب نكبات نفعه الله وامتن بالأسر سنة أربعين وخمسمائة وحمل إلى طليطلة وبها ألف كتابه المسمى بـ "مقام همامات الصلبان وروائع رياض الإيمان" يرد به على بعض القسيسين بطليطلة وتركه في نسخ بأيدي جماعة من المسلمين المبطلين بالأسر هناك لما يسر الله في تخلصه فانفصل عنها سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وله تصانيف ككتابه "آفاق الشمس" في الأقضية النبوية ومختصره "إشراق الشمس" و"نفس الصباح" في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه، و"حسن المرتفق في بيان ما عليه المتفق فيما بعد الفجر وقبل الشفق"، و"قصد السبيل في معرفة آيات الرسول: صلى الله عليه وسلم"، و"مقام المدرك في إفحام المشرك"، وكل ذلك من أحفل ما ألف في معناه إلى غير ذلك من الأجوبة على المسائل التي كانت ترد عليه، وكان أبو القاسم بن بقي يكثر الثناء عليه ويقول بفضله، ولما قدم مدينة فاس التزم إسماع الحديث والتكلم على معانيه بجامع القرويين إحدى عدوتى فاس واستمر على ذلك صابراً محتسباً ونفع الله به خلقاً كثيراً وحضر مجلسه يوماً خطاب رئيس أهل المعدن^(١٧) فسمع كلامه وأعجب به وسأل عن مؤنثه فأخبر أنها من تفقد الإخوان وإحسانهم فتقدم إليه وتعرف له وسأله تعيين ما يحتاج إليه عن (كذا) نفقة في كل سنة فقال ثلاثمائة دينار وستين ديناراً فدفع له خطاب ثمانمائة دينار وقال له هذه جراية عامين لك دون ما تحتاج إليه من كسوة ومؤون مواسم، ورتب له هذه الجراية ولم يقطعها عنه مدة من تسعة أعوام جزاه الله أفضل جزاء المحسنين إلى أن توفي أبو جعفر بفاس عقب ذى الحجة من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ومولده سنة تسع عشرة وخمسمائة^(١٨).

لا ندرى ما هي الظروف التي أسر فيها أحمد الخزرجي وحمل إلى طليطلة حيث عانى من الأسر لمدة عامين. نعلم من عدة مصادر أن ذلك الأسر وقع منذ عام ٥٤٠ حتى عام ٥٤٢ هـ. إن عام ٥٤٠ هـ (من ٢٤ يونيو ١١٤٥ إلى ١٢ يونيو عام ١١٤٦) هو أكثر الأعوام اضطراباً في تاريخ قرطبة وفيه - على الجانب الآخر من المضيق - كانت سلطة المرابطين محل شكوك بسبب حركة

الموحدين أعدائهم الأقوياء، وقد انعكس ذلك في الأندلس في صورة تمرد في عدد من المدن ترعّمه أشخاص من مختلف الأسر بهدف التخلص من سلطة آل لمتونة البغيضة. وقد اتخذ أبو جعفر بن حمدين - الذي أعيد في العام السابق إلى حكومة مدينة قرطبة بعد أن بايعه الخاصة والعامة في المسجد الجامع- اتخذ لقب أمير المسلمين وأصبح لقبه "ناصر الدولة". دام حلم الخلافة هذا أقل من عام إذ إن ابن غانية حاكم المرابطين في الأندلس انتهز سخط أعيان قرطبة وتحرك من العاصمة إشبيلية إلى ابن حمدين الذي خرج لملاقاته وهزم في إيثخا في شهر جمادى الثانية عام ٥٤٠ (نوفمبر / ديسمبر ١١٤٥). استولى ابن غانية على قرطبة ودخلها في ١٢ شعبان (٢٨ يناير ١١٤٦). لجأ ابن حمدين المخلوع إلى قلعة أندوخار بعد أن غادر منفاه الأول في بداخوث وعانى حصاراً من قبل ابن غانية لمدة شهر حتى اضطر إلى طلب معونة العاهل الإسباني القوى ألفونسو الثاني، وهذا الملك المسيحي كان لفترة من الوقت هو المتحكم في الوضع، وقدم دعمه مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك، فجعل مصير عاصمة الخلافة رهن إشارته وفي النهاية جعلها لابن غانية بعد أن علم أن قوات الموحدين قد عبرت المضيق^(١٩).

بعد هذه الفترة المضطربة في عام ٥٤٠ خرج أحمد الخزرجي^(٢٠) من المدينة "عندما شاء الله تعالى بانحلال السلطة في قرطبة، وتفرق ساكنوها بسبب الشدة التي عانت منها المدينة"^(٢١) هل اضطر إلى الهرب خوفاً من أن يكون ضحية لغضب هؤلاء وأولئك؟ هل أسر وسلاحه في يده وحمل كشخص له وزنه إلى طليطلة؟ هل دخلها كشخص عادى ضمن الرهائن الذين قدمهم ابن حمدين أو ابن غانية إلى الإمبراطور؟ ربما لن نعرف أبداً إلا أن أحمد الخزرجي - لسبب أو لآخر - ذهب إلى طليطلة في عام ١١٤٥ (أو ١١٤٦) وهي المدينة التي احتفظت بطابعها الإسلامي خلال قرون بعد غزوها.

بعد ذلك بعامين انتهى روبرتو كيتون من ترجمة القرآن إلى اللاتينية بتكليف من بدرو المبجل^(٢٢) وعلا في المدينة حينئذ شأن غونديسابو ورواد حركة

الترجمة. كان هناك اهتمام عظيم بالفلسفة والعلوم التي جمعها العرب من الأقدمين وطوروها بطريقتهم. وكانت هناك أيضاً رغبة عارمة في تنصير المسلمين وتقنيدهم. ليس من الغريب إذن أن يطرح قسيس طليطلة عدة قضايا على مسلمي قرطبة الذين قادتهم الصدفة إلى طليطلة، وليس من الغريب كذلك أن ينقل هؤلاء تلك القضايا إلى الشاب ابن عبد الحق تلميذ الأساتذة الكبار والذي كان قد وصل لتوه إلى طليطلة من قرطبة مهد المعرفة رغم النوائب التي كانت تمر بها.

لقد رد الشاب القرطبي على كتابات القسيس بسلسلة طويلة من القوالب المحفوظة وتحليل مختلف آيات التوراة والإنجيل (فهاجم اليهود أيضاً). إن هذا الكتاب لا تهمنى فيه طبيعته الخاصة بالجدل الدينى. سأشير فقط إلى قائمة من المعجزات (على حد تصور المسيحيين) طبقاً لتأكيدات الشاب المسلم الذى يصفها بالخرافات وبأنها زيف منكر. إن الأمور المعجزة التى يشير إليها على أنها تراث عام عند المسيحيين هى فى مجملها إسبانية وليست كلها معروفة المصدر ولكن أحدها يبجله الإسبان ويعتبر حتى اليوم أحد أسباب الفخر عند الكاثوليكين من أهل طليطلة.

عنوان الكتاب :

عنوان الكتاب الذى ندرسه ذكر بالصيغ التالية (٢٣):

- مقامع الصليبان لابن الأبار.
- مقامع الصليبان: هكذا يسميه أيضاً أبو الحسن الرعيني فى ترجمة أبى القاسم بن بقى - وهو أحد تلاميذ الخزرجى - عندما يشير إلى أنه درسه مع مؤلفه (٢٤).
- مقامع الصليبان ومراتع رياض الإيمان لابن بابا.
- قامع هامات الصليبان وروائع رياض الإيمان لابن فرحون.

- مقامات الصليبان: هكذا يرد في أكثر من مخطوطة كما يشير البروفيسور تركي (٢٥).

العنوان الأكثر تمامًا الذي أجده هو المذكور في المخطوطة رقم ٢٣٦٧ في آيا صوفيا والتي استخدمت صورتها الضوئية لإتمام هذه الدراسة: "كتاب مقام همامات الصليبان ومراتع روضات الإيمان" وهو مأخوذ بلا شك من العنوان الموجود في صفحة ٤: "كتاب المقام في رد ما قالت النصارى من قبل علم الكلام".

هناك عدة مخطوطات لهذا الكتاب بالإضافة إلى المخطوطات التي يذكرها البروفيسور عبد الحميد تركي (٢٦) والمحفوطة في تونس. أعتقد أن البروفيسور سيزجين حدثني في مدريد أو في بون عن مخطوطة أخرى في إسطنبول بالإضافة إلى مخطوطة آيا صوفيا التي استعنت بها لكتابة هذه الدراسة (٢٧).

أسباب كتابة المؤلف وتاريخه:

كان الدافع وراء تأليف كتاب "مقامات الصليبان" لأحمد بن عبد الحق الخزرجي هو نفس الدافع وراء كتابة مؤلفات جدلية أخرى وضعها مسلمون. بالإضافة إلى ذلك هناك سبب عرضي واضح أشار إليه عبد الملك المراكشي في السيرة الذاتية التي ترجمناها في صفحات سابقة: إنه كتب رداً على كتاب قسيس من طليطلة، وكتب في نفس المدينة خلال الأسر، رغم أن كلماته يفهم منها أنه لم يجرؤ على إرسالها إلى القسيس حتى غادر المدينة. في بداية المخطوطة تشرح أسباب تأليف الكتاب وهي الأسباب نفسها التي يذكرها صاحب كتاب "الذيل والتكملة". بعد البسملة والصلاة على النبي - لا توجد مقدمة ولا حتى كلمة أما بعد - يتعرض المؤلف - أو بعض تلاميذه، إذ إن المؤلف لا يتحدث بصيغة المتكلم - يتعرض للموضوع مباشرة وأسباب تأليف الكتاب يشرحها الآن بإسهاب.

أنقل النص كما يرد في ظهر الصفحة الأولى من المخطوطة:

لما نفذ القضاء من الله تعالى على قرطبة بانتثار ملكها وتفرق أهلها عنها لتتابع ضنكها ألحق منهم بطليطلة صبيًا من آل عبد الحق الخزرجي يوصف بذكى؛ وكان بطليطلة قسيس من القوط يكثر اعتراضه في الدين على نفر كانوا يأتونه من المسلمين. فجعلوا يرفعون سؤالاتهم إلى الصبي، فيجوابهم الصبي عليها فيرجعون بذلك إلى القسيس. فأنكر جوابهم لعلمه أنهم ليسوا من أهل الذكاء؛ فاستفهمهم فأعلموه بذلك. فكتب القرطبي إليه كتابًا وسألهم أن يوصلوه إليه ويأتوا منه بجواب.

هذه المقدمة التي تمنينا لو أنها أكثر طولًا تعطينا الانطباع بأنها كتبت على عجل (هناك أخطاء نحوية، على الأقل في مخطوطتنا) ويبدو كذلك أنها كتبت بعد قراءة سريعة للصفحات التي تليها. لأن ما يرد بعد ذلك "وهذا كتابه"... ليس كتاب الخزرجي بل كتاب قسيس طليطلة (من المؤسف أن اسمه غير مذكور هنا)، ويبدأ بجملة "باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد" وهي صيغة التثنية التي يعلم أنها ستكون الهدف المباشر لهجوم الشاب المسلم. يلي هذا الكتاب - الذي يشغل من صفحة ١ إلى صفحة ٤ - كتاب الخزرجي وهو الذي عنوانه "مقامع الصليان" الذي وضع عنوانًا للمخطوطة كلها.

بين الكتاب والكتاب الآخر (في نهاية صفحة ٤ ظهر) نجد التوضيح التالي:

بعد أن قرأ الفتى تلك الرسالة رد على من حملوها إليه وأبى أن يرد على ذلك القسيس خوفًا منه إذ إنه كان بينهم أعلمهم بدينهم. لكنهم لما ألحوا عليه أن يجيب وفي أثناء ذلك واثته الفرصة لكي يرحل (من طليطلة) كتب هذه الإجابة وعنوانها "مقامع الصليان وروائع روضة الإيمان" وتركها لهم عند رحيله.

هذا أمر لا يتفق مع ما ذكر في الصفحة الأولى التي نقلتها وترجمتها منذ لحظات والتي تحكى فيها الوقائع بطريقة تختلف عما حدث في الواقع حسب ما يفهم من المخطوطة نفسها وما يؤكد عبد الملك في سيرة الخزرجي والتي ترجمتها منذ قليل. البقية، عند بداية الصفحة الخامسة، هي نسخة من نص إجابة الشاب

المسلم تسبقها عبارة و"هذا نسخته". من سوء الحظ فإنه قبل البسملة التي يبدأ بها الكتاب حذفت أسماء المرسل إليهم فيقال "من فلان إلى فلان" وهكذا لم نتمكن من معرفة شخصية القسيس المرسل إليه الرد. أول كلمات الخزرجي تؤكد وحدانية الله (وتستند إلى الآيات الثلاث الأخيرة من سورة الإخلاص وهي تسمى أيضًا "سورة التوحيد") في مواجهة غموض التثليث الذي يبدأ به كتاب القسيس.

اعتبارًا من هنا وإلى أن تنتهي المخطوطة يوجد نص كتاب مقامع الصليبان الذي لن أتعرض لمضمونه ولا أنوى تحليله الآن ولا فيما بعد. سأقتصر في هذا المقال على دراسة معجزات محتملة في إسبانيا المسيحية.

هناك معلومة أخرى لا يشير إليها ميكيل دي إيبالثا هي التي جعلته يقول عن مقامع الصليبان Cet ouvrage aurait été écrit en 582/1186 contre in livre envoyé par un prêtre de Tolède a Cordoue par un fils ou disciple de Abda al Haq al Jazrayi^(٢٨)

إنني أجهل المعلومة التي تستند إليها هذه الافتراضات (التي يكررها دوفيلار بالنص^(٢٩))، لأن كل المصادر التي لدينا والتي أشرت إليها تتفق حول النقاط التالية:

١- إن الكتاب ألف في طليطلة ولم يكن هناك سبب يدعو لخروج كتاب القسيس منها إذ إن المرسل إليه (وهو القرطبي) كان موجودًا في نفس المدينة (طليطلة) لا في قرطبة.

٢- إن كتاب مقامع الصليبان ألف بين عامي ٥٤٠ - ٥٤٢ هـ أي بين ١١٤٥ - ١١٤٧.

٣- إن الكتاب حرره الخزرجي بنفسه ولم يحرره أحد تلاميذه أو أحد أبنائه (إلا إذا كان إيبالثا يقصد بـ 'أحد أبناء عبد الحق' الخزرجي نفسه ابن عبد الحق). ما هو حقيقي بالفعل هو أن المقدمة الصغيرة التي بين كتاب القسيس

وكتاب المقامع ليست من عمل المؤلف، فلو أنها كذلك لاستخدم صيغة المتكلم.

فيما يتعلق بالتاريخ يبدو أن هناك خلطاً في القائمة التي أعدها فؤاد سيد، إذ يقول فيها إن الكتاب وضع عند سقوط قرطبة، أي عندما غزاها فيرناندو الثالث عام ١٢٣٦ علماً بأن المؤلف مات عام ١١٨٧، وهذا الخطأ قد تنبه إليه محمد المنونى، ويبدو أن صاحب القائمة قد وقع في هذا الخلط لأنه أخطأ في تفسير مقدمة الكتاب التي نقلتها وترجمتها فيما سبق.

ونبرز في النهاية خاصية تربط هذا العمل للخزرجى بأعمال أخرى ذات طبيعة جدلية كتبها مسلمون في الغرب. أولاً كانت المبادرة من جانب المسيحيين القسيسين والرهبان في كل الأحوال تقريباً، فهم الذين يطرحون سلسلة من القضايا يتعين على الجانب الآخر معالجتها. لنتذكر على سبيل المثال حالة "راهب فرنسا" و"القضايا الصقلية" و"كتاب الإعلام" ... إلخ، لكن هناك أمراً مهماً يتعين إبرازه: في مواجهة الأسئلة الماكرة المليئة بالمعاني الخافية، من قبل المسيحيين أهل المعرفة والحكمة، يقوم بالرد مسلم شاب. الخزرجى لم يكن عمره يزيد عن العشرين بكثير عندما حرر كتابه رداً على قسيس طليطلة. إنه عمر صغير إذا وضعنا في الاعتبار الصعوبة القصوى التي يواجهها كل من يتعرض لهذا المجال، لكننا نقول إنها ليست حالة وحيدة. بعد ذلك بقرن تحديداً كتب ابن سبعين الشهير "أجوبة يمانية عن أسئلة صقلية" رداً على قضايا طرحها فيديريكو الثاني الصقلي، قام بذلك وعمره بين العشرين والثلاثين^(٣٠). في تلك السنوات التي بدأ فيها ابن سبعين كتابة مؤلفه حدثت مواجهة ابن رشيق المرسي في مرسية (بعد قليل من غزو ألفونسو العالم للمدينة)، وهي مواجهة بدأها أيضاً قسيس عندما كان المسلم لم تكبر لحيته بعد". إن الأثر النفسى لهؤلاء الغلمان الأشداء الذين تؤدي كتاباتهم وحججهم الدامغة إلى سحق مجاليهم من المسيحيين، هذا الأثر النفسى لا بد أن يكون كبيراً بين المسلمين.

المعجزات التي يصفها الخزرجي:

كانت الرسالة التي بعث بها قسيس طليطلة - ونصها موجود قبل كتاب "مقامع الصليان" - بالنسبة للخزرجي بمثابة دليل يسير عليه كتابه، فهو يواصل الرد نقطة نقطة على الرسالة التي بعث بها القسيس بهدف تنصيره.

إذا كان القرطبي يتوقف في الصفحات ٤٨ - ٥٠ ليتحدث عن سلسلة من الأمور التي يعتقد المسيحيون أنها معجزات وليهاجم سذاجة المسيحيين، فذلك لأن قسيس طليطلة قد تصدى لهذه القضية في كتابه:

ليتك قرأت كتبنا كلها وعلمت العجائب التي حدثت على يد قديسين قاموا بمعجزات وبراهين، ومع ذلك فهم لا يظهرونها إلا في حالة الضرورة. لو أنك رأيت بنفسك النور الذي يظهر كل عام في ليلة عيدنا الكبير، لرأيت العجائب والغرائب. (٣١)

ويتباهى الخزرجي في نهاية كتابه بأنه على علم بكتب المسيحيين واليهود التي قرأها، وذكر منها فقرات على مدى كتابه، ويجب على إشارة القسيس إلى المعجزات: "فيما يتعلق بما تقوله من أن دينكم فيه صلحاء يظهرون المعجزات عند الضرورة..." ويحكي له عن بعض ما سمعه ويعلق عليه متباهيًا بأنه على علم بتلك "الخدع".

فيما يلي أنقل وأترجم خمس فقرات متعلقة بالمعجزات تبدو في المخطوطة، ويفصل بين كل واحدة والتي تليها دائرة صغيرة في منتصفها نقطة، وهذه إشارة متكررة على مدى المخطوطة وتعني بداية فقرة جديدة.

ولأنني استخدمت مخطوطة واحدة (نسخة شرقية على واجهتها تاريخ ٨٠٤ هـ - ١٤٠١ - ١٤٠٢ بعد اسم عبد الرحمن الأنصاري الحنبلي "عفا الله عنه بلطفه" ويبدو أن كل ذلك من عمل مالك المخطوطة لا من عمل الناسخ) وهي مخطوطة بها أخطاء وتخلو أحياناً من علاقات الضبط، فإنني لا أزعم أنني قد توصلت إلى

تحقيق نهائى لل فقرات التى لم تنشر حتى الآن. لقد اقتصررت على نقل هذه الفقرات وتصحيح بعض الأخطاء الكبيرة، لكن يجب الاستعانة بالطبعة المحققة للكتاب كله عندما يقوم بها أحد. على أى حال فبالنسبة للغرض من هذا المقال أعتقد أن الذى أقدمه مقروء، وعموماً فإن نص مخطوطة أيا صوفيا لا يمكن أن يفعل معه أكثر من ذلك كما يتضح من الصور الضوئية المرفقة لل فقرات التى نقلتها.

(١)

فمنها ما وصف لى عن بعض مشاهدكم المعظمة عندكم أن يد الله تخرج لكم منها فى يوم واحد من السنة من وراء ستر، ولا خفاء لديكم بهذا (فحكى لى) من أثق قريحته^(*) أن رجلاً من اليهود كان قد حظى عند (أحد) رؤسائكم بالأندلس بوصلة كانت بينهما. فدعاه الرئيس له فكان قد رame يوماً عن الخروج عن دين اليهودية إلى دينه وقال له: ألا ترى هذه الأعجوبة كظهور يد الله لنا فى يوم معلوم من السنة؟ فقال له اليهودى: يا مولاي أنا قد رضيت هذا الأمر بشهادتك وصدقتك عليه (٤٨ ظهر) فابحث عنه فإن كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقاً صبأت إلى دينك. فخالط الرئيس الشك، فلما دنا ذلك اليوم الذى تظهر فيه اليد سافر بحملة نحو الشمال وقرب مالا يهديه هناك. فبدر إليه الأساقفة وقربوه لتقبيل اليد. فلما ظهرت اليد له من وراء الستر وضع يده فيها فصاحوا به يقولون: اتق الله، الآن تخسف بك الأرض، الآن تقع عليك السماء، الآن ترسل الصواعق. فقال: دعوا عنكم هذا كله فإن هذه اليد لا أحل يدى عنها حتى أعلم أحقاً ما تصنعون فيها أم باطلاً. فلما رأوا الحجة لم يبق منهم إلا اثنان أسرا إليه القول وقالوا: ما تبغى فى ذلك؟ أصبأت عن دين آبائك؟ قال: لا. قال أتريد أن تحل ربطاً منذ ألف سنة أو نحوها؟ قال: لا ومعاذ الله ولكنى أريد أن أقف على سر هذه اليد. قال: هى يد الله، فقف دون هذا الستر. قال: أحب أن أراه. قال: أنت وذلك. فكشفوا له عن قس مجدود الخدين

(*) فى المخطوطة التى نشرها د. عبدالغنى شامة (فقد حكى لى من أثق بصدقه وقريحته). انظر "بين الاسلام والمسيحية" تحقيق د. عبد الغنى شامة.

موقوف وراء الستر. فلما عاين الرئيس أرسل يده وخرج إلى عسكره. فقال له اليهودى: مولاي ما ترى فى دينى؟ قال له: رأيك خرجت منه أو فلا خرجت. ففهم اليهودى وسكت.

لم أتمكن من العثور على أية أسطورة مسيحية يمكن أن تكون أساسًا لهذه الرواية التى يقصها الخزرجى. ومن المحتمل أن يكون كل ذلك مجرد ادعاء، لا من الخزرجى وإنما من بعض اليهود الذين حكوا له تلك الخرافة. نرى أنه سواء فى هذه المعجزة أو فى المعجزة الأخرى هناك يهودى يقوم بدور مهم فى كشف الخدعة.

علينا أن نقر بأن جو القصة مرسوم بشكل جيد وأنها تعكس بشكل ما إحدى الأساطير الدينية فى إسبانيا المسيحية: هذه الأفعال الخارقة التى تتكرر كل عام فى يوم محدد. المعجزة المفترضة تقع فى الأندلس دون تحديد أدق، لكن علينا أن نتساءل ما إذا كان الخزرجى لا يتحدث عن إسبانيا المسيحية كما هو منطقى إذ إن الرئيس المذكور (الذى يدل على لقب شرفى) يحضر إلى المعبد ومعه قواته. ربما أخذ الخزرجى هذه الرواية فى طليطلة وهى رواية غير دقيقة لأسطورة سابقة.

(٢)

وكذلك وصف لى عن صليب بعض مشاهدكم المعظمة (٤٩ ظهر) عندكم يمشى إليه الناس ليتعجبوا منه، وهو واقف بين السماء والأرض وأن أحد رؤسائكم سأل عن ذلك يهوديًا كان كاتبًا له. فأعلمه أنها حيلة، بعد ما استوثق منه، فاستكشفه إياها. فتفطن اليهودى أن ذلك الصليب تمسكه أحجار المغنطيس من جهاته الأربع. فأمر الرئيس أن يخلى له يومًا ذلك المشهد فدخله وحده وأمر بحفر جانب واحد من الحائط فاستخرج منه حجرًا من المغنطيس موازيًا للصليب، فمال إلى جهة واحدة، واستخرج منه من الجانب الثانى فاضطرب الصليب. وفهم الرئيس وانصرف عنه فما روى بعد ذلك (٣٢).

لا ندري من أين جاء الخزرجي بهذه الخدعة الرائعة التي - وإن لم نستطع تحديد مكانها- من المفترض أنها تتعلق بإسبانيا. ليس من الغريب أن ينتج كل ذلك عن مساعي يهودى - كما تكشف عن ذلك الفقرة الأولى - يريد أن يززع مركز المسيحيين أو أن فى ذاكرة الفتى المسلم كانت هناك قراءات وروايات شفوية عن أساطير شرقية نسبها- بوعى أو بدون وعى - إلى عصره وإلى بلده وإلى خلط دينى مختلف عن ذلك الذى روى فى عصر الأسطورة.

الشيء المؤكد هو أننى عندما قرأت "آثار البلاد" للقزوينى (المتوفى عام ١٢٦٦)، ذلك الراوى لكثير من العجائب، وجدت قصة ربما أخذها عن مصادر قديمة وهى بلا شك نفسها التى يرويها الخزرجي فى رواية موجزة مغيرة بعض البيانات أترجمها كاملة فيما يلى:

سومناة

بلدة مشهورة من بلاد الهند على ساحل البحر بحيث تغلبه أمواجه.

كان من عجائبها هيكل فيه صنم اسمه سومناة وكان الصنم واقفاً فى وسط هذا البيت لا بقائمة من أسفله تدعّمه ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه، وكان أمر هذا الصنم عظيماً عند الهند من رآه واقفاً فى الهواء تعجب مسلماً كان أو كافراً، وكانت الهند يحجون إليه كل ليلة خسوف، يجتمع عنده ما يزيد على مائة ألف إنسان وتزعم الهند أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه وهو ينشئها فى من شاء كما هو مذهب أهل التناسخ وأن المد والجزر عبادة البحر له.

وكانوا يحملون إليه من الهدايا كل شيء نفيس وكان له من الوقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية.

.. ولهم نهر يعظمونه بينه وبين سومناة مائتا فرسخ يحمل ماؤها إلى سومناة كل يوم ويغسل به البيت وكانت سدنته ألف رجل من البراهمة لعبادته وخدمة الوفود وخمسمائة أمة يغنين ويرقصن على باب الصنم وكل هؤلاء كانت أرزاقهم

من أوقاف الصنم وأما البيت فكان مبنياً على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وكانت قبة الصنم مظلمة وضوءها كان من قناديل الجوهر الفائق وعنده سلسلة ذهب وزنها مائتا "من" (*) كلما مضت طائفة من الليل حركت السلسلة فتصوت الأجراس فتقوم طائفة من البراهمة للعبادة.

حكى أن السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين لما غزا بلاد الهند سعى سعياً بليغاً في فتح سومناة وتخريبها طمعاً بدخول الهند في الإسلام فوصل إليها منتصف ذي القعدة سنة ست عشرة وأربعمائة فقاتل الهنود عليها أشد القتال وكان الهند يدخلون على سومناة ويبيكون ويتضرعون ثم يخرجون إلى القتال فقتلوا حتى استوعبهم الفناء وزاد عدد القتلى على خمسين ألفاً فرأى السلطان ذلك الصنم وأعجبه أمره وأمر بسلبه وأخذ خزانته فوجدوا أصناماً كثيرة من الذهب والفضة وستوراً مرصعة بالجواهر كل واحد منها بعته عظيم من عظماء الهند.

وكانت قيمة ما في بيوت الأصنام أكثر من عشرين ألف دينار.

ثم قال السلطان لأصحابه: ماذا تقولون في أمر هذا الصنم ووقوفه في الهواء بلا عماد وعلاقة فقال بعضهم: إنه علق بعلاقة وأخفيت العلاقة عن النظر فأمر السلطان شخصاً أن يذهب إليه برمح ويدور به حول الصنم وأعلاه وأسفله ففعل وما منع الرمح شيء.

وقال بعض الحاضرين: إني أظن أن القبة من حجر المغناطيس والصنم من الحديد والصانع بالغ في تدقيق صنعته وراعى تكافؤ قوة المغناطيس من الجوانب بحيث لا تزيد قوة جانب على الجانب الآخر فوقف الصنم في الوسط فوافقه قوم وخالفه آخرون.

(*) هكذا وردت في النص العربي، أما المؤلف فقد اكتفى بأن يترجم كلمة "من" على أنها وحدة موازين. (المترجم)

فقال للسلطان: ائذن لى برفع حجرين من رأس القبة ليظهر ذلك فأذن له فلما رفع حجرين اعوج الصنم ومال إلى أحد الجوانب فلم يزل يرفع الأحجار والصنم ينزل حتى وقع على الأرض (٣٣).

إن التقارب أو التشابه بين هذه الرواية للقزوينى ورواية الخزرجى واضح، والتشابه بين النصين أسهل إذا رجعنا إلى النص العربى. ورواية آثار البلاد لها أصل تاريخى هو غزو معبد سومناة فى ساوشترا وهو أحد أهم معابد الآلهة شيفا وما أعقبه من السلب على يد القائد المسلم الكبير محمود سلطان غزنة وقد حدث ذلك فى منتصف شهر يناير عام ١٠٢٦ وشكل أروع حملاته المظفرة.

الجانب التاريخى المحض الذى يرويه القزوينى يقترب من رواية "الكامل فى التاريخ" لابن الأثير المتوفى عام ١٢٣٠ إلا فيما يتعلق بالإله وبصفاته العجيبة (٣٤). لا يحكى ابن الأثير شيئاً عن ذلك بل يصف التمثال كقطعة من الحجر أسطوانية الشكل ودون وجه وطوله خمسة أذرع: يقول: "وسومناة من حجر طوله خمسة أذرع: ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان فى البناء وليس بصورة مصورة". كان الأمر يتعلق إذن وبلا شك بلنجام ضخيم ليس من المعدن بل من الحجر ولم يكن يسبح فى الهواء بل كان ثابتاً تماماً. ويحكى ابن الأثير أن محموداً أمر بتحطيمه وإلقائه فى النار. وقد حملت إحدى القطع إلى غزنة ووضعت فى مدخل مسجدتها الكبير حتى يدوس عليها المسلمون عند دخولهم إلى المسجد وعند خروجهم منه (٣٥).

ليس من الغريب أن يدرج القزوينى - وهو الذى يهوى العجائب - فى كتابه هذه الأسطورة التى اخترعت منذ زمن بعيد بهدف القضاء على معتقدات غريبة عن الإسلام.

لهذا السبب نفسه لا نستغرب أن تصل الأسطورة إلى الخزرجى فى أحد الكتب التى استعان بها القزوينى لكتابة مؤلفه أو أن تصله وقد أعيدت صياغتها فى الأندلس وطبقت على دير شهير بهدف الحط من قدرة المسيحيين أو لتبرير هدم

معبد يوحى بالكراهية - أو الحب - عند المسلمين، كما سنرى أن ذلك يحدث فى القطعة الثالثة، ولن يكون من الخطأ الاعتقاد بأن أسطورة سومناة مدرجة فى كتاب أحمد بن عمر العدرى المتوفى عام ١٠٨٥ والذى أفاد منه القزوينى كثيراً فذكره عدة مرات وأغفل ذكره مرات. وإذا كانت الأسطورة مدرجة فى كتاب العدرى فمن المحتمل أن تصل بطريق مباشر أو غير مباشر إلى الخزرجى^(٣٦) وأن تكون مناسبة له ليضعها فى كتابه المناهض للمسيحية.

الشيء الجدير بالذكر فى هذا الأمر أن الخرافات التى ينسبها الخزرجى إلى المسيحيين سينتهى بها المطاف إلى أن يعيبها المسيحيون على المسلمين. فى الحرب - حتى الحرب الكلامية - كل الأسلحة مفيدة، وكان اختراع الشيء ثم مهاجمته بعد ذلك أمراً مألوفاً، استعمله فى العصور الوسطى أبناء الديانات الثلاث. وبهذا فإن كتاباً يهدف إلى المجادلة كان يتحول فى النهاية إلى كتاب دعائى: إذا لم يستطع هزيمة الخصم فإنه على الأقل كان يقوى إيمان أهل الدين ويوجد فيهم شعوراً حياً بالكراهية نحو الدين الآخر.

نعود إلى موضوعنا فنقول إن هذه المعجزة المزيفة التى أساسها حجر مغناطيسى لم تكن حيلة دبرها المسلمون ضد المسيحيين فقط، بل إن العكس قد حدث أيضاً وكان له صدى وصل إلى إسبانيا، على الأقل حتى القرن السابع عشر، ولم يكن ذلك فى كتاب جدلى بل فى مسرحية ربما تقدم إلى الشعب علوماً قد تجد لديه استجابة تتوافق مع الأفكار القومية فى ذلك الوقت.

إن القضية (وهى شعبية مثل قضايا أخرى بين الجدليين المسيحيين فى العصور الوسطى) تشير إلى أسطورة "محمد الهيكل العظمى" ويقصها لوبى دى بيجا فى أشعار مسمومة فى الفصل الثانى من مسرحية "العبيد الأحرار" *Los esclavos libres* فى الحوار بين الغلمان أمام سلامة الذى جرح إحساسه بلا أدنى اعتبار فسخروا من عقيدته فى شخص النبى. يرد عليهم سلامة المسكين قائلاً: "تقولون عن محمد هذه البذاءات". هكذا يرد عليهم سلامة المسكين:

غلام ٢

بأى طريقة يا قزمان
يكون ساق السيد محمد المتعفن

غلام ٣

يقولون إن هذا النبي المتوحش
كان يعيش مفتوناً
بامرأة يهودية
وقد أمسك به زوجها ووالداها ككلب
وأوجعوه ضرباً
ولما مات قطعوه
واحتفظوا بقدم وفخذ
وتوصلوا إلى اليهودية أن تقول
إنه ذات ليلة وقد استمتع بها صعد إلى السماء
وإنها لكي يكون معها قد ربطته من هذا الساق
فتركها كأثر ومضى ومعه بقية الجسد.

صدق المسلمون

وهرب منهم اليهود بتلك الخدعة
أخذوا الساق هناك في مكة
وضعوها بين أحجار المغناطيس
لكي تسندها

وهم يظنون أن ذلك معجزة (٣٧).

إن موضوع موت محمد على يد امرأة يهودية - يمكن الرجوع في ذلك إلى
كتاب نورمال دانييل (٣٨) - هو أمر يحكيه بدرو باسكوال المتوفى عام ١٣٠٠ في
كتاب "ضد طائفة محمد":

بين أولئك اليهود كانت هناك امرأة جميلة، وكان محمد مغرمًا بتلك المرأة فذهب وتعشى معها وقدمت له اليهودية شاة مسمومة فمرض من هذا السم ومات في اليوم الخامس عشر كما يقول بعض المسلمين ويقول البعض الآخر إنه مات في اليوم السابع (٣٩).

إن هذه الأسطورة التي لها أساس تاريخي - ككل الأساطير - تستند إلى رواية موجودة في كتاب Liber Nicholai التي نوردتها هنا:

Habent enim Sarraceni quod duos leprosos mundavit, unum cecum illuminavit et quatour paralitiquos sanavit....Quare fecenrut deauratam et in ea posuerunt pedem ipsum balsemando et aromattibus involvendo, et ita omnibus Sarracenis caput est Baldacta sicut Roma caput est Xipistianis.

وقد نشر ف. ماكلير في بداية القرن الحالي مقالاً مهماً^(٤٠) نشر فيه نصاً أرمينيا لنفس الأسطورة تستند إلى أصل لاتيني ومصحوباً بدراسة موجزة وترجمة لذلك النص^(٤١).

نرى أن أسطورة النص الأرمني تكاد تكون نفس أسطورة Nicholai Liber ولا أدرى ما إذا كانت أسطورة أخرى قد وصلت إلى لوبي دي بيغا تحمل التفاصيل التي توردتها المسرحية، مع أنني أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك من وحي خياله هو.

يبقى لنا أن نشرح ما يتعلق بالمغناطيس ونرى أنه غير موجود في أي من نصوص العصور الوسطى التي أوردناها.

في أسطورة انتشرت على ما يبدو في الحملات الصليبية الرابعة أو الخامسة حول مجيء الدجال يقال: "ندما يعاد بناء برج بابل وعندما يسقط تمثال محمد المقام بين أحجار مغناطيس". هل يوجد هنا ارتباط مع القصة التي يحكيها لوبي؟ تلك الأحجار الماسية، هل هي أحجار مغناطيسية؟ لست متأكداً من هذا الأمر، لكن

فى كتاب "أول تاريخ عام لإسبانيا أمر بتأليفه ألفونسو العالم" عند التعرض للحجر الأسود الموجود فى الكعبة يقال:

ولما كانت أحجار هذا المعبد قد رفعت كما ينبغى كان عليهم أن يضعوا على أعلاها حجر أيمنت، وهذا الحجر يقبله حتى اليوم أهل الجزيرة العربية كشعيرة^(٤٢).

يرد ذلك فى فصل بعنوان " كيف وضع محمد حجر الأيمنت فى المعبد"^(*).

لم أتمكن من الإطلاع للأسف على دراسة أليساندرو دى انكونا وعنوانها "أسطورة محمد فى الغرب" ولا على بعض الدراسات الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع الذى يشغلنا الآن. إن تحليل موضوعات هذه الدراسة والذى قام به فيكتور شاوبين فى كتابه بعنوان *Bibliographie* يشير إلى أسطورة موت محمد على يد اليهودية ويشير إلى أسطورة هيكلة العظمى المعلق ويوحى بالرجوع إلى قائمة مراجع وفيرة عن تلك الأسطورة الأكثر شعبية من الأخرى ولا يبدو أن أحداً قد أشار إلى رواية تجمع بين الأسطورتين كما يظهر ذلك فى مسرحية "العبيد الأحرار". إن بحثاً متعمقاً (لم أقم به أنا لضيق الوقت) يمكن أن يقودنا إلى أصل تلك الأسطورة المهيبة التى ذكرها لوبى دى بيغا إذا لم يكن هو نفسه الذى ربط بين الأسطورتين وكان ذلك من وحي خياله.

(٣)

وكذلك وصف لى عن كنيسة الغراب، بغرب الأندلس، أنه كان فيها ثريا تقف على نحو وقوف الصليب المتقدم ذكره، وينزل منها نور يوقد ذبالها فى يوم

^(*) كتابات ألفونسو العالم دعائية وتحوى كثيراً من الأكاذيب، منها مثلاً أن النبى (ص) ذهب إلى قرطبة ليدعو أهلها إلى الإسلام. من الغريب أن يستند عالم فى وزن لاغرانجا إلى كتاب بهذا المستوى. (المترجم)

من السنة. فذكر ذلك لأحد أمراء بنى أمية بالأندلس، فعجب من ذلك، وسأل عنه. فأخبره رجل من أهل إفريقية أنهم مدوا مع الحائط قصبه حديد ضيق جوفها، وأبرزوا لها أنبوبًا كسم الخياط، موضعه موزون مع طرف ذبال الثريا، ثم إنهم ذلك اليوم يرسلون نار النفط في القصبه متراكماً حتى يخرج في غاية القوة إلى ذبال الثريا الذي هو في زنة واحدة معه. ووصف الإفريقي مع ذلك ودهانا (كذا) (*) ونكر في وقوف الثريا مثل وقوف الصليب. (٤٩ ظهر) فاجتاز الأمير على تلك الكنيسة في إحدى غزواته، وقد دنا يومها فذكر له ذلك. فدعا الإفريقي فعابن معه ما يفعلون. فاستخرج منه قناة من الصفر (**) على نحو ما كان ذكر وعمد إلى سماء الثريا، فاستخرج منه حجراً من المغنطيس كبيراً، فسقطت. فأمر الأمير بمعاينة القسيس (٤٣).

إن مكان حدوث تلك المعجزة - كنيسة الغراب الشهيرة - معروف تماماً، وقد وصفها الجغرافيون الأندلسيون بشيء من التفصيل، وهو وصف استغله الشرقيون في تحرير مؤلفاتهم. لقد نقلت من كنيسة الغراب في المغرب بفالنسيا رفات القديس فيسنتي الذي توجد عنه إشارات كثيرة في المصادر المسيحية، وقد تعرض لذلك الموضوع سيمونيت في كتابه "تاريخ النصارى في الأندلس" (٤٤) وليس هناك ما يدعو إلى ذكر إشارات أخرى إلا إلى مقال ماريو مارتينس (٤٥) بعنوان *Peregrinacoes e livros de milagros na nossa icade Media* لا تتحدث هذه الروايات عن المعجزة التي يتحدث عنها الخرجي ولا تذكر أن أميراً أموياً أمر بهدم الكنيسة (يبدو أنها هدمت في فترة لاحقة) (٤٦). إن الجغرافيين المسلمين هم الذين يتحدثون عن الغربان العشرة الذين يحرسون الكنيسة باستمرار وهي كنيسة كانت تسكنها الراهبات دائماً.

(*) المخطوطة التي حققها د. عبد الغنى شامة لا تساعدنا على فهم هذه الفقرة الغامضة، إذ لا ترد فيها أصلاً. (المترجم).

(**) (من النحاس الأصفر)، كما ورد في مخطوطة د. شامة. (المترجم)

المعجزة التى يرويها الخزرجى هنا معجزة مزدوجة: كون المصباح يظل معلقاً فى الهواء ثم إضاءته فجأة فى يوم معين من أيام السنة. ليس هناك ما يدعو إلى أن نقول إن الجزء الأول رواية مختلفة عن سابقتها والتى يكون فيها الشيء المعلق فى الهواء هو صليب. والجزء الثانى مشتق من أسطورة أخرى، نفس الأسطورة التى يشير إليها قسيس طليطلة فى الجملة التى ترجمناها فيما سبق ضمن رسالته. الأمر يتعلق إذن بنفس أسطورة كنيسة القيامة فى القدس التى يشير إليها الخزرجى فيما بعد فى الفقرة ٥ دون أن يذكر اسمها والتى يرويها الجغرافى ياقوت، المتوفى عام ١٢٢٩، على هذا النحو:

قُمامة: بالضم، أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس، وصفها لا ينضبط حسناً وكثرة مال وتتميق عمارة، وهى فى وسط البلد والسور يحيط بها، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها، والصحيح أن اسمها قمامة لأنها كانت مزبلة أهل البلد وكان فى ظاهر المدينة يقطع بها أيدي المفسدين ويصلب بها اللصوص، فلما صلب المسيح فى هذا الموضع عظموه كما ترى، وهذا مذكور فى الإنجيل، وفيه صخرة يزعمون أنها انشقت وقام آدم من تحتها والصلبوت فوقها سوى، ولهم فيها بستان يوسف الصديق، عليه السلام، يزورونه، ولهم فى موضع منها قنديل يزعمون أن النور ينزل من السماء فى يوم معلوم فيشعله، وحدثنى من لازمه وكان من أصحاب السلطان الذى لا يمكنهم منعه حتى ينظر كيف أمره وطال على القس الذى برسمه أمره قال: فقال لى إن لازمتنا شيئاً آخر ذهب ناموسنا، قلت: كيف؟ قال: لأننا نشبه على أصحابنا بأشياء نعملها لا تخفى على مثلك وأشتهى أن تعفينا وتخرج، قلت: لا بد أن أرى ما تصنع فإذا كتاب من النارنجيات وجدته مكتوباً فيه أنه يقرب منه شمعة فتتعلق به بغتة والناس لا يرونه ولا يشعرون به فيعظم عندهم ويطيعون^(٤٧).

إن الجزء الذى يهمنى فى هذا النص لياقوت - وهو الجزء الأخير - غامض للأسف ولا أفهم منه إلا ما ترجمته، ويبدو أن النص غير مترابط وأن الأصل العربى غير سليم بلا شك.

إن أسطورة تلك المصباح الذى يضىء بمعجزة أمر لا بد أن المسلمين قد عرفوه. يشير إلى ذات الموضوع الجاحظ المتوفى عام ٩٦ م مرتين فى كتاب "الحيوان"، فى المرة الأولى خلال الصفحات الخاصة بالنار حيث يقول:

وما زالت السدنة تحتال للناس جهة النيران بأنواع الحيل، كاحتيال رهبان كنيسة القمامة ببيت المقدس بمصاييحها، وأن زيت قناديلها يستوقد لهم من غير نار، فى بعض ليالى أعيادهم^(٤٨).

بعد ذلك يدرج خبراً آخر عن حديثه عن الجن فيقول:

افتتان بعض النصارى بمصاييح كنيسة قمامة: وقد تغرّف ما فى عجايز النصارى وأغمارهم، من الافتتان بمصاييح كنيسة قمامة، فأما علماؤهم وعقلاؤهم فليسوا بمتحاشين من الكذب الصّرف، والجرأة على البهتان البحت، وقد تعوّدوا المكابرة حتى درّبوا بها الدّرب الذى لا يفطن له إلا ذو الفراسة الثّابتة، والمعرفة الثّاقبة^(٤٩).

ويشير المسعودى المتوفى عام ٩٥٦ إلى نفس الموضوع فى "كتاب التنبيه والإشراف" فيقول:

فى ذلك العصر أمرت هيلانة ببناء كنيسة القيامة التى ينبعث منها نور يوم السبت الكبير الذى فجره عيد الفصح^(٥٠).

لم أعثر على أى خبر عن هذه الأسطورة فى "آثار البلاد" للقزوينى، وهذا يخالف ما نتوقعه، أما فى كتابه "عجائب المخلوقات" (وفيه "كتاب الأنواع")^(٥١) فيقول عن يوم ٥ أكتوبر: هو عيد كنيسة القيامة فى القدس يقولون إنه تهبط من السماء نار وتوقد الشموع التى فيها^(٥٢).

هناك مؤلفون مسلمون كثيرون يتحدثون عن هذه المعجزة المحتملة، لكن الشواهد التي ذكرتها تبدو كافية. وكما نرى فإن أسطورة كنيسة القدس الشهيرة قد نسبت إلى كنيسة الغربان وهي ليست أقل شهرة بين مسلمي الغرب. لا يهمنا ما إذا كان الذي نسب المعجزة إلى كنيسة الغربان هو الخزرجي أو أنه وجدها كذلك، لكن في هذه الحالة الأخيرة يبدو من الغريب أن كتاب الأندلس الكثيرين الذين يتحدثون عن كنيسة الغرب لم يذكروا هذه القضية. ربما توجد إشارة إلى المعجزة في "الرسالة التي يتحدث فيها إلى ابنه عند الذهاب إلى الغرب Algarve عندما علم بأن حياته صارت مضطربة بين الكسل والانحراف" للأديب أبي عبد الله محمد بن مسعود (القرن الحادي عشر) فعندما طلب منه أن يتحدث عن حياته في تلك البلاد ذكر كنيسة الغربان Algarves ضمن الأماكن العجيبة كحديقة إيرام وبركان مؤنس وعش العنقاء.

إن معجزة النار المقدسة في القدس كانت على وجه العموم معروفة لدى المسيحيين في الغرب، ولا بد أن قسيس طليطلة كان يشير إليها، وقد حفظ التراث تلك الأسطورة القديمة التي لا يزال يحتفل بها حتى الآن وقد أذهلت كل من شاهدوها. أضع في الهامش وصف النار الذي كتبه بيديكير Baedeker في كتابه عندما تعرض للاحتفال بالأعياد في كنيسة القيامة (٥٣).

(٤)

وكمثل ما تصفون لنا من نزول مريم من السماء على دون اذفونش المطران بجامع طليطلة، وكست رأسه بجله وحسنته بثياب مزينة^(*) وذلك في ليلة النصف من شهر اغشت، فيعظمون تلك الليلة تعظيمًا شنيعًا إلى اليوم.

(*) (بكنيسة طليطلة وأنها كست رأسه بتحية، وجسمه بثياب مزينة) انظر مخطوطة د. شامة. (المترجم)

أخبرنى أيها المغرور عن نزولها التى (الذى؟) تصف: هل كان بإذن زوجها أو بغير إذنه. فإن قلت بإذنه فكيف يجوز عليه أن ينزل ملائكته وعبيده فيمتهن زوجته وأم ولده كما تقولون بإرسالها؟ وإن كان نزولها باختيار منها، لا بإذن من زوجها، فكيف ينبغى أن يكون الله قد اصطفاها واختارها زوجة له وأم ولده من بين نساء بنى آدم، فتخونه وتنزل بغير إذنه إلى رجل من جنسها تكسوه بمحلة وثياب مزينة؟ ما ذاك إلا أنها... سبحان الله عما تصفون ، سبحانه وتعالى عما تقولون علواً كبيراً^(٥٤).

المعجزة التى تروى فى هذه الفقرة هى الوحيدة التى يمكن تحديدها ضمن كل المعجزات التى يشير إليها الخزرجى. لا شك أنه قد عرفها فى مدينة طليطلة نفسها التى تحتفل إلى اليوم بتراث إهداء مريم العذراء لغطاء رأس للقديس إديفونسو.

إن خايمي فريرو أستاذ الإسبانية فى جامعة فرانكفورت الذى أعد دراسات ممتازة عن راينر ماريا ريلكه وترجمات للشاعر نفسه قد غيّر تخصصه، وفى بحث نشره حديثاً يدرس الروايات اللاتينية لهذه المعجزة بمناسبة ذكر بيرثيو^(*) لها^(٥٥). إن أقدم رواية لهذه المعجزة هى رواية ثكسيلا Cixila المتوفى عام ٧٨٣ فى كتابه Vita S. Hildefonsi ومنذ ذلك الحين تكثر الروايات عنها حتى أنها حققت انتشاراً كبيراً فى أوروبا؛ وقد ظهرت فى فرنسا (وكانت بمثابة موضوع استوحى منه جوتير دى كوينسى) معجزة مماثلة قيل إنها حدثت فى كليمونت حيث يكون القديس ليوننتو أسقف المدينة هو الذى يستقبل غطاء الرأس من مريم العذراء، رغم أن أقدم رواية للمعجزة ليست سابقة على أواخر القرن الحادى عشر.

(*) غونثالو دى بيرثيو من أهم شعراء العصور الوسطى فى إسبانيا. له ديوان بعنوان "معجزات العذراء سيدتنا" (المترجم)

يدرس فريرو المصطلحات المختلفة المستعملة للباس الهدية في التراث المكتوب للمعجزتين - قميص وحله - وهذه الكلمة الأخيرة هي التي استمرت في إسبانيا حيث إن كلمة قميص غير موجودة في المصادر الإسبانية. من المهم تأمل المصطلح الذي يستعمله الخزرجي مرتين.

إن هدية العذراء التي يتحدث عنها الخزرجي هي "ثياب مزينة" وهو تعبير يستخدمه مرتين لكنه يشير قبل كل مرة إلى شيء مكتوب بصورة غامضة، والكلمة في المرتين مكتوبة بطريقة غير صحيحة. المرة الأولى ربما كانت "مجة" أو almucella وربما اعتقد الخزرجي أن المقطع الأول هو أداة التعريف "ال" فحذفه ليستخدم النكرة ومعنى كلمة almucela هي غطاء للرأس. وليس من السهل علينا أن نعرف من النص ما إذا كان الخزرجي يريد الإشارة هنا إلى شيء يلبس في الرأس أو إلى غطاء الرأس، فهو يقول إن الهدية كانت "ثيابًا مزينة". والخزرجي ينقل كلمة سمعها وهي ربما لم تكن مسجلة في الروايات التي تتحدث عن المعجزة وفي النصوص العربية التي جمعها أ. ثيولي تسمى هدية العذراء إلى الـديفونسو "بدلة".

ويستعمل فريرو مقال فياكورت عن مجموعة عربية عن معجزات لمريم ويذكر عنه أن معجزة زيارة مريم للقديس إديفونسو تحتفل بها الكنيسة القبطية ولا يبدو أنه لا يعرف دراسة ثيولي بعنوان *Il libro etiopito dei Miracoli* الذي كان يمكن أن يكون مفيدًا له لكتابة مقاله.

إن معجزة القديس إديفونسو كان لها صدى ليس فقط في المجموعات الأوروبية عن معجزات مريم وإنما أيضًا في المجموعات العربية والإثيوبية المشتقة منها، ويدرس البروفيسور ثيولي في كتابه الرواية العربية للمعجزة التي تصدر في مخطوطة عربية بالفاتيكان والنص الإثيوبي المشتق من العربية، ويقارنهما ببعض الروايات العربية في القرن الثالث عشر.

إن الرواية الإثيوبية - وإحداها كانت معروفة لأنها ترجمت إلى الإنجليزية - تسمى ديكسيوس لكنها تحافظ على اسم المدينة - طليطلة - ومكان المعجزة، ومن المهم الإشارة إلى أن المعابد العربية والإثيوبية تنسب إلى القديس إديفونسو كتاب معجزات مريم وتذكر أن هدية الحلة هي في هذه الروايات التي يأتي على رأسها مجموعة معجزات مريم.

إن نكر الخزرجي لهذه المعجزة هو الأقدم تاريخاً في المصادر العربية، وعلى حد علمي فإنها الرواية الوحيدة لمؤلف مسلم. وهي في الوقت نفسه بمثابة دليل للجزء الأعظم من الروايات الغربية - بما فيها الإسبانية - الخاصة بالاعتقاد في تلك المعجزة التي طالما أوحى للكتاب والرسامين والتي لا يزال صداها موجوداً إلى اليوم. هناك معلومة جديدة يقدمها إلينا الخزرجي في روايته للمعجزة يجب أن نضعها في الاعتبار وهي الخاصة بالاحتفال بالمعجزة الذي كان يجري في طليطلة في ذلك العصر في منتصف شهر أغسطس.

(٥)

وكمثل (ص ٥٠ وجه) ما تدعون في زيتونة وادي آش، وترعمون في توقف أرحى^(*) شنت دمنقة، وكريث^(**) مكناسة ووادي بسطة. والنور الجديد في عبيكم، والنور الذي ينزل ببيت القدس، إلى غير ذلك من الهذيان والمخاريق التي لا تجوز إلا عليكم ولا يتعبد بها من جهال العالم غيركم^(٥٦).

الفقرات السابقة التي تبدو مقسمة في المخطوطة التي استخدمتها تحكي كل واحدة منها المعجزات المختلفة التي نتعرض لها بالدراسة. في هذه الفقرة يشير الخزرجي إلى سلسلة من المعجزات الأخرى دون أن يشرح - إلا في حالتين -

(*) ربما كانت وحي. عموماً فقد ترجمها المؤلف بكلمة طواحين. (المترجم)

(**) لم يستطع لاغرانزا أن يقرأ الكلمة في المخطوطة، أما د. شامة فقد أوردها (كنيسة). (المترجم)

ماهية المعجزة التي يتحدث عنها، ويبدو أن سبب ذلك أنه اعتبر أن المعجزات التي ذكرها بالتفصيل كافية ولم يشأ ذكر تفاصيل المعجزات الأخرى التي يتعرض لها لكي ينهى هذا الفصل من كتابه الجدلي، أو ربما كان الأمر يتعلق بمعجزات معروفة جدا مما لا يوجب التوسع في شرح تفاصيلها. في هذه الحالة الأخيرة لم يشأ أن يتعرض لموضوع القديس إديفونسو، فهو معروف جدا، وعموماً فهذه المعجزة الأخيرة تعد مجالا ملائماً للهجوم على الديانة المسيحية.

سنرى الآن ما هي المعجزات التي توجد عنها أخبار في المصادر الأخرى:

أ- زيتونة وادي آش

إحدى العجائب التي رواها أحمد بن عمر العدري ويحدد مكانها بالقرب من لوركا في ميرابيت والتي تشير إلى شجرة زيتون تقول:

إحدى العجائب شجرة زيتون بجوار كنيسة في حي يحيط به جبل بالقرب من مدينة لورقة، بجوار حصن مرابط. عندما تحين صلاة العصر في اليوم الذي يسبق أول ليلة من ليالي شهر مايو تزدهر الشجرة، وقبل الفجر تكون قد نبتت لها براعم. وعند فجر اليوم التالي تصبح كل ثمار الزيتون سوداء ناضجة. كان الناس يعرفون هذه العجيبة ويأتون للتفرج على الشجرة، وكان الأمراء يرسلون مندوبين، وقد قطع الناس تلك الشجرة من كثرة عدد الذين كانوا يأتون لرؤيتها. ظلت مقطوعة فترة من الوقت، لكن بعد ذلك نبت الجذر ولا تزال حتى اليوم على الوصف الذي تقدم.

أحد الأخبار القديمة التي قرأتها عن هذا الموضوع هي أن إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي حكى أنه في عام ٣٥٠ هـ قال له ملك النصارى في روما "أنوى أن أرسل إلى أمير المسلمين في الأندلس موفداً ذكياً ومعه هدية. أحد أهم الأهداف التي أسعى إليها ، وأحد أهم الطلبات التي سأطلبها منه هو أن عندي أخباراً مؤكدة عن وجود كنيسة ينمو بجوارها شجرة زيتون تزهر وتثمر في ليلة

عيد الميلاد وتنتضج ثمارها فى اليوم التالى. الشهيد المدفون فيها له مقام عال أمام الله سبحانه وتعالى. سأطلب من هذا الأمير أن يكسب ود قساوسة الكنيسة وأن يوعز إليهم أن يسلموا إلى رفات هذا القديس. إذا حققت ذلك سيكون أفضل متاع هذه الدنيا (٥٧).

وفى الطبعة الحديثة لكتاب الجغرافية للزهري^(٥٨)، والذي كان يظن أنه مجهول المؤلف، هناك إشارة إلى عجيبة مماثلة يحكيها على النحو التالى:

بجوار هذا الجبل توجد شجرة يقول الناس عنها إنها تزهر وتثمر فى يوم واحد هو يوم العنصرة. والحقيقة ليست هذا الذى يقولون. صاحب الرواية، رحمه الله تعالى، يقول: رأيت هذه الشجرة وهى بجوار حصن شكر ولها فرعان يصل أحدهما إلى الأرض، ويظل الثانى عالياً. الفرعان موجودان داخل أطلال بناية من عهد عاد. رأيت الشجرة فى يوم العنصرة وكان الناس مجموعين حولها. رأيت فيها زيتوناً مثل الزيتون الموجود عادة فى يوم العنصرة، لكن مع تقدم النهار اخضرّ الزيتون، وفى الظهيرة كان لون الزيتون أبيض، وفى العصر كان لونه يميل إلى الحمرة. عندئذ هجم الناس وانتزعوه، وربما لو تركوه لصار إلى اللون الأسود لآخر النهار. يقول أهل البلد إنه فى أزمان سابقة، فى عهد بنى أمية والثورة فى الأندلس، منع الناس من قطف تلك الثمار، وقبل أن يحل الليل كان الزيتون أسود. لكن هذا ما رأيته بعينى^(٥٩).

ربما كان النص الأهم مع أنه الأكثر إيجازاً هو نص أبى حامد الغرناطى الذى يتحدث عن الموضوع بهذه الطريقة:

نبع غرناطة: بالقرب من غرناطة، فى بلاد الأندلس، توجد كنيسة بها نبع وشجرة زيتون. يأتى الناس إليها ويمكثون بجوار الشجرة فى يوم من أيام السنة. فى ذلك اليوم، عند الشروق يفيض النبع وتزهر الشجرة، وتنبت الثمار وتنمو ثم

تصير إلى اللون الأسود خلال اليوم. من يريد زيتونا يأخذ ما يشاء، ومن يريد ماء يحمل منه ما يشاء (٦٠) .

هذه الرواية نفسها مع تغييرات طفيفة نجدها عند القزويني في كتاب "عجائب المخلوقات" ويضيف المؤلف: "لقد قرأت هذه الرواية في كتب كثيرة".

وكما نرى، فإن الأمر يتعلق بأسطورة منتشرة جدا ويصعب التوصل إلى معرفة أصلها. وقد أشار إليها مؤلفون كثيرون، وعموماً فقد نسب الأسطورة إلى وادي آش وهو قريب من غرناطة التي وجدت بها أسطورة أهل الكهف، ويلي فقرة أبي حامد الغرناطي التي ترجمناها منذ قليل تعليق لا للرحالة الغرناطي وإنما لشخص تعرض للموضوع وأوجزه بهذا الشكل:

ما يتعلق بشجرة الزيتون فهذا يعلمه الجميع، وأما موضعها ففيه خلاف. ذكر لي الفقيه سعيد بن عبد الرحمن الأندلسي أنه في سيغورا، ويقول أحمد بن عمر العدري صاحب كتاب المسالك والممالك الأندلسية أنه في لوركا، ويقول عبد الحميد أنه في غرناطة. وكلهم من أهل الأندلس والمواضع التي نكروها كلها من بلاد الأندلس والجمع بين أقاويلهم ممكن (٦١) .

هذه الفقرة التي تبدأ بكلمة "قلت" يبدو أنها وردت في هامش مخطوطة قديمة كملحوظة لناسخ أو لمالك المخطوطة، لكن الفقرة أدمجت في النهاية في نص تحفة الألباب.

ب - توقف طواحين سانتو دومينغو، وهي معجزة تمت بتدخل قديس إسباني بهذا الاسم وربما أوقفها لإنقاذ حياة طفل أو لسبب مشابه، وعموماً فإن مكان المعجزة هو إسبانيا .

ج - بعد ذلك يتحدث عن معجزة أخرى يبدو أنها تكررت في مكانين: ميكيتشا ووادي باثا، وللأسف فهناك كلمة جذرها "و.ك.د" لا أعرف لها تفسيراً وعندى تفسير أريد أن يؤخذ مأخذ الجد لهذا أتركه للنهائية

لا أجد معجزة تشير إلى ميكنيشا، أما فيما يتعلق بباثا فهناك معجزة بالقرب منها أو بين باثا وباييثا. يشير المؤلفون العرب في إسبانيا إلى كهف يسقط من سقفه الماء دون توقف نقطة نقطة وهو منظر يجذب كثيرًا من الناس ٥٢ - ٥٤ فالماء يستقر في الحفير^(*) دون أن يتسرب ودون أن يقل مستواه مهما شرب منه الناس. إن خبر هذا الكهف الذي يسوقه مؤلفون عديدون ينتهى فى آثار البلاد للقزوينى بكلمات للعدري:

فى هذا الكهف هناك ميت غير متعفن رغم الزمن الطويل، ولا يعرف عنه شىء.

هل يفهم من كلمات الخرجى معجزة تنسب إلى هذه الجثة (جثة قديس ما)؟
د - الضوء الجديد فى عيد المسيحيين الذى تحدثنا عنه كمعجزة يقبلها قسيس طليطلة، أى عيد مسيحى كبير يقصد؟ بالتأكيد يقصد أعياد الميلاد، أى ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر وهى التى كان يحتفل بها المسلمون أنفسهم، وهو أمر سأحدث عنه فى العدد القادم من هذه المجلة.
هـ - النور الذى يهبط فى القدس والذى أشرنا إليه آنفاً.

(*) أى الحفرة، وهكذا وردت. (المترجم)

الهوامش

- ١- يعترض الأستاذ ب. دوفيلار على نسبة بروكلمان هذه، ويرى أن مؤلف الكتاب قرطبي آخر.
- ٢- حول هذا المؤلف وأعماله انظر Brockelman. GAL, II, 85, y Suppl., II, 100 في صفحة ٢١٥ (ظهر) من الكتاب وهي الغلاف يرد أن اسم المؤلف هو "الناجي" وهو خطأ
- ٣- توجد نسخ كتاب الإعلام في العلبة رقم ٩١ داخل مظروف كبير مكتوب عليه اسم السيد ميغيل أسين بالاثيوس، ويبدو على المظروف خاتم بريد سرقسطة بتاريخ ٢٠ أكتوبر عام ١٩٤٣. هذا ما يجعلني أظن أن ميغيل أسين-الذي كان يقضى عطلة الصيفية في سان سباستيان- حمل معه هذه النسخ لدراستها ووضعها في المظروف المذكور الذي ربما كان يخص رسالة أخرى.
- ٤- من الغريب أن الخطأ في ذكر العنوان على أنه الإسلام (بدلاً من الإعلام) يتكرر في صفحة ٦
- ٥- انظر ب. دوفيلار ، المقدمة، ص. ٣١ - ٣٥. هذه النظرية يؤيدها أيضاً ميغيل دي إيبالثا في دراسته المذكورة
- ٦- أشير إلى دراسته التي أفدت منها كثيراً في هذا البحث وغيره، وهي: Islam and the West, The Making of an Image, Edinburgh, 1960.
- ٧- Arabica, VVIII, fasc. I, febrero 1971, pp. 99-106
- ٨- Introducción, pp. 44-56
- ٩- أرى الآن أن ب. دوفيلار قد استعمل الصفحات التي كتبها إيبالثا عن الموضوع في مقدمة دراسته عن تورميذا
- ١٠- مجلة البحث العلمي المغربية، السنة الخامسة، رقم ١٣ يناير-ديسمبر ١٩٦٨ ص. ٢٣-٣٢
- ١١- Al Andalus, XXXI (1966), pp. 47-72
- ١٢- La Leerte du "Moine de France" a al Muqtadir Billah, roi et la reponse d;al Bayi, le faquir andalou, en Al Andalus, XXXI (1966), pp. 73-153.
- ١٣- Ibn al Abbar, Kitab al Taqmila li kitab al Sila, ed. A Bel y M. Ben Cheneb, Argel, 1920, I, 104-105 (num. 223)

- ١٤- Ahmad Baba al Tinbukti, Nayl al ibtihad, al margen del Dibay de Ibn Farhun, Cairo, 1351, p. 59
- ١٥- Ibn Farhun, Al Dibay al mudhab, Cairo, 1351, pp. 50-51.
- ١٦- لم أتمكن من الاطلاع على كتب أخرى تتناول هذه الشخصية: "جذوة الاقتباس" لابن القاضي (الذي ينقل البيانات الواردة في "كتاب التكملة" لابن الأبار) وكتاب "السلوى" للكتاني. ولم تتح لي فرصة الاطلاع على مخطوطة "الوافي" للصفدي ولا مخطوطة "التعريف" للحفناوي هما يشيران إلى الخرجي. لكنني لا أعتقد أن أيًا من هذه الكتب يتضمن معلومات مهمة غير تلك التي يذكرها عبد الملك.
- ١٧- ربما كان معجم الفضة الشهير في تمادولت أو تمادالت ، على بعد عشرة أميال من منبع نهر سوس.
- ١٨- ابن عبد الملك المراكشي "كتاب الذيل والتكملة" الجزء الأول، ١، بيروت (بدون تاريخ ولا مقدمة) ص. ٢٣٩ - ٢٤١
- ١٩- لصياغة هذه الفقرة رجعت إلى "كتاب أعمال الأعلام" لابن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٢٥٣-٢٥٤.
- ٢٠- فيما يتعلق بالتاريخ تتفق المصادر التي تتحدث عنه، وهذا مهم بالنسبة لما سوف أذكره لاحقاً.
- ٢١- انظر فقرة سأنقلها فيما بعد
- ٢٢- خصص كتاباً لهذه الشخصية المهمة، وقد ظهر الكتاب منذ أعوام انظر: J. Kritzeck, Meter the Venerable and Islam, Princeton, 1964
- ٢٣- في الرواية التي أسوقها حذفت الإشارة إلى المصادر، فقد ذكرت أنفاً.
- ٢٤- برنامج شيوخ الرعي، تحقيق إبراهيم شيوخ، دمشق ١٣٨١، ١٩٦٢.
- ٢٥- فهمت ذلك من مقاله في مجلة الأندلس الذي أشرت إليه حيث يشير إلى ثلاثة مخطوطات لكتاب "مقامات (كذا) الصليبان" لكنني عندما قرأت دراسته بعنوان La culture arabo-musulmane et la Peninsule Iberique (Revue Tunisienne de Siences Sociales, II, diciembre 1965) التي تشير فيها إلى الخرجي وجدت أنه يسمى كتابه "مقامع الصليبان في الرد على عبادة (عابدي؟) الأوثان"
- ٢٦- انظر مقاله المذكور، المنشور في Revue Tunisienne de Siences
- ٢٧- أحد هذه المخطوطات يحمل رقم ١٨٦٣ بمكتبة أحمد الثالث ويشير إليه محمد المنوني في مقاله المذكور ويشير "فهرس المخطوطات المصورة" لجامعة الدول العربية الذي أعده فؤاد سيد (القاهرة، ١٩٥٤) إلى هذه المخطوطة التي تحمل عنوان "مقامع هامات

- الصلبان ومراتع روضات الإيمان". أشكر صديقي صلاح فضل على إهدائي نسخة من هذا الفهرس.
- ٢٨- ميكيل دي إيبالنا، مقال مذكور في الملاحظة الهامشية رقم ٧، ص ١٠٤.
- ٢٩- Devillard, tesis citada, Introducción, p. 53.
- ٣٠- Enc. Islam, III, 945-46 y el artículo de E. Lator en Al Andalus, IX, 1944, p. 371-417.
- ٣١- "مقامع الصلبان" مخطوطة آيا صوفيا رقم ٢٣٦٧، ص ٤ وجه.
- ٣٢- المصدر السابق، ص. ٤٨ ظهر، ٤٩ وجه.
- ٣٣- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت، ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠)
- ٣٤- ابن الأثير، كتاب مذكور، طبعة القاهرة، ١٣٠٣ هـ، "تكر فتح سومنة"
- ٣٥- يقدم أبو الفداء رواية موجزة للحدث.
- ٣٦- أقول لغير المستعربين إن العذرى إسباني وأن كتابه الذي يعتبر مفقودا قد نشرت منه فقرات منذ سنوات، وقد نشرت أنا شخصيا بعض الفقرات في كتابي: Estudios de Edad Media de la Corona de Aragón, Zaragoza, VIII, 1967, pp. 447'545.
- ٣٧- Obras de Lope de Vega, Real Academia Española (Nueva edición), V (1918), pp. 431-432
- ٣٨- N. Daniel, Islam and the West, ed. Cita., pp. 103-106
- ٣٩- Manuel Serrano Sanz, Vida de Mahoma, según un códice latino de mediados del siglo XIII, publicado en Erudición Ultramarina, II, 1931, pp. 365 ss, III, pp. 115 ss.
- ٤٠- Un document armenien sur l'assassinat de Mahomet par une juive, en Melanges Hartwig Derenburg, Paris, 1909, pp. 287-295
- ٤١- F. Macler, art. Cit. Pp. 288
- ٤٢- Ed de don Ramón Menéndez Pidal, Madrid, 1955, I, 267-8
- ٤٣- ٢٣٦٧، ،، ص. ٤٩ صوفيايا أ مخطوطة، "الصلبان مقامع"
- ٤٤- F. de Somonet, Historia de los Mozarabes de España, Madrid, 1897'1903, pp. 253-257
- ٤٥- En Revista portuguesa de Historia, V (1951), p 87-236.
- ٤٦- يعتقد سيمونيت أنها نهاية القرن الحادي عشر أو بداية القرن الثاني عشر على يد المـ ابطين بقيادة أبي القاسم
- ٤٧- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، القاهرة، ١٣٢٤ هـ، الجزء السابع، ص. ١٠٨-١٠٩

- ٤٨- انظر كتاب الحيوان، طبعة عبد السلام هارون ، القاهرة ٥٦ - ١٣٦٤ هـ ، الجزء الرابع ص ٤٨٣.
- ٤٩- المصدر السابق، الجزء السادس ص ٢٠١ - ٢٠١
- ٥٠- انظر كتاب التنبيه والإشراف القاهرة (١٣٧٥، ص ١٢٣) وقد ذكره الجاحظ في المصدر السابق الجزء الرابع ص ٤٨٣
- ٥١- حول هذا النوع من الكتب انظر: Ch. Pellat, Dictons rimes, anwa et mansions lunaires chez les Arabes, II, 1955, pp. 17-41, y el artículo en la Enc. De l'Islam, I, 538- 40
- ٥٢- القزويني، كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، القاهرة، مطبعة التقدم، بدون تاريخ، ص. ٧١.
- ٥٣- Karl Baedeker, Palestine et Syrie, Manuel du voyageur, Leipzig, 1912, p. 42
- ٥٤- "مقام الصليان" آية صوفيا، ص ٤٩
- ٥٥- J. Ferreiro Alemparte, Las versiones latinas de la leyenda de san Ildefonso y su reflejo en berceo, en BRAE, tomo L, mayo-agosto 1970, pp. 233-276
- ٥٦- "مقام الصليان" آية صوفيا، ص ٤٩، ٥٠
- ٥٧- نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار والبستان في غرائب البلدان، تأليف أحمد بن عمر بن أنس العذري، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، مدريد، ١٩٦٥، ص ٧-٨
- ٥٨- Texte arabe etabli avec introduction...par Mahammed Hadj Sadok, Bulletin d; Etudes Orientales de damasco, XXI, 1968, pp. 1-312.
- ٥٩- 59- Ibid.,. 210
- ٦٠- تحفة الألباب لعبد الحميد الغرناطي، تحقيق غ. فيراند، في - Journal Asiatique, julio - diciembre, 1925, pp. 1-148 y 193- 304.
- ٦١- تحفة الألباب ، ص. ٢٣٥. النص يقول: وكلهم من أهل الأندلس والمواضع التي نكروها كلها من بلاد الأندلس، والجمع بين أقاويلهم ممكن.

القسم الثانى
دراسات موريسكية
الجانب الدينى

ثقافة موريسكى:

قراءة في المخطوطة ٩٦٥٤ بمكتبة إسبانيا الوطنية

جمال عبد الرحمن

تمثل المخطوطات التي خلفها الموريسكيون في مجملها أحد أهم المصادر التي تسهم في فهم أبعاد المشكلة الموريسكية. وتكتسب هذه المخطوطات أهمية كبيرة لأسباب شتى: العامل اللغوي، والتاريخ المحلي لإقليم ما، ووضع أقلية معينة... إلخ. وفي بعض الأحيان تكتسب المخطوطة الموريسكية أهمية خاصة لأسباب تتعلق بالمجتمع الإسلامي كله. ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن الإسلام الأندلسي - سواء في عصر الازدهار أو خلال فترة التدهور - كان يطرح باستمرار مشاكل فقهية جديدة^(١). وعندما نرح الموريسكيون إلى تونس اعتباراً من عام ١٦٠٩ تعين على الفقهاء التونسيين بذل الكثير من الجهد حتى يتمكنوا من الرد على تساؤلات القادمين الجدد، وكان هؤلاء يجهلون جوانب كثيرة في أمور الدين الإسلامي، وكانت بعض الأسئلة التي يطرحونها جديدة تماماً. إن مشكلة اللغة التي يمكن أن يكتب بها موضوع إسلامي مجرد نموذج لتلك المسائل الفقهية الجديدة.

١- محتوى المخطوطة:

تبدأ المخطوطة ببيان معنى المصطلحات المستخدمة: الواجب والجائز والمستحيل. ثم تبين أن معرفة الخالق سبحانه وتعالى واجب على كل مسلم بالغ، يتساوى في ذلك الرجال والنساء، والعبيد والأحرار. ولما كانت معرفة الله واجبة فإن المؤلف الموريسكي يخصص الصفحات الأولى لشرح معنى كل صفة من صفاته تعالى كالوجود والقدم والقدرة والسمع والبصر والوحدانية والإرادة. يتحدث بعد ذلك عن صفات الأنبياء فيذكر أن الواجب في حقهم يشمل الصدق والأمانة والتبليغ ويستحيل في حقهم الكذب والخيانة، ويجوز في حقهم كل عوارض البشر

كالأكل والشرب والنوم والعمل والمرض (غير المعدي)... إلخ. بعد ذلك ينتقل إلى شرح معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. يلي ذلك عرض لسيرة الخلفاء الراشدين. هنا ينتهي الفصل الأول. أما بقية الفصول فهي مخصصة لشرح العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وفقًا للمذهب الحنفي.

٢- المؤلف وتاريخ التأليف:

كتبت معظم المخطوطات الموريسكية في ظروف بالغة الصعوبة، حين كانت محاكم التفتيش الإسبانية تحظر ممارسة شعائر الدين الإسلامي. لهذا كان من قبيل المخاطرة أن يكتب المؤلف - أو الناسخ - اسمه في صدر المخطوطة. نعلم هنا بالتحديد الفترة التي سبقت قرار طرد الموريسكيين من إسبانيا، أما بعد وصول مسلمي الأندلس إلى بلاد المهجر فقد زال الخطر وأصبح بالإمكان أن نعرف بعض أسماء أولئك المؤلفين، وقد عرفنا بالفعل أسماء بعضهم مثل عبد الكريم بن علي بيريث، وخوان بيريث، وإبراهيم الطيبيلي، والحاج محمد روبيو، وأحمد بن قاسم بيخارانو، ومحمد ربضان، وإبراهيم دي بولفاد، وابن عبد الرافع، وأحمد بن قاسم بن الشيخ الحجري، وأحمد الحنفي، وإبراهيم غانم - صاحب مخطوطة عن الأسلحة ترجمت إلى العربية وكانت لها فائدة عظيمة - وغيرهم.

ومع ذلك فإننا لا نعرف اسم مؤلف المخطوطة التي بين أيدينا الآن (السوء الحظ ضاعت الأوراق الأولى للمخطوطة، وربما كان الاسم مكتوباً فيها)، لكننا نعلم شيئاً ما عن حياة المؤلف، فقد ذكر غير مرة أنه قد عاش في إسبانيا ثم هاجر إلى تونس. وقد اصطلح المتخصصون على تسمية ذلك المؤلف المجهول باسم "لاجئ تونس". وعلى ضوء معلومات سنعرضها بعد قليل نستطيع أن نؤكد أن لاجئ تونس قد كتب - على الأقل - كتابين^(٢):

أ- المخطوطة S-2 التي درسها كل من خايمي أوليفر أسين^(٣) ولوثي لوبيث بارالت^(٤) بتوسع.

ب- المخطوطة التي ندرسها الآن.

ومن خلال هذه المخطوطة التي بين أيدينا نعرف أن المؤلف قد وضع كتابًا آخر وإن كان لم يحدد لنا موضوعه، ففي ص ١٨ كتب ما يلي:

و(محمد) رسول الله سيدنا الأمين، وهذا ما شرحناه بإيجاز لأننا توسعنا في هذه النقطة في مواضع أخرى.....

ويذكر إدواردو سابيدرا^(٥) أن المخطوطة رقم ٩٦٥٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد (وهي عبارة عن شرح لكتاب في التفسير وضعه إبراهيم دي بولفاد) كتبها مؤلف مخطوطتين. ويستبعد أوليفر أسين^(٦) - دون أن يستند إلى دليل - أن تكون المخطوطتان ٩٦٥٤ و ٩٦٥٣ لنفس المؤلف، لكنه يعترف أن ناسخهما واحد. أما الباحث الفرنسي لوى كاردايك فقد قام بدراسة تحليلية للمخطوطات ٩٦٥٤ و ٩٦٥٣ و S-2 وخلص إلى أن مؤلفهم شخص واحد^(٧).

لم نتمكن من الإطلاع على المخطوطة ٩٦٥٣، وعليه فليس بوسعنا أن نعلق على ما ذكر بشأنها. أما من حيث المخطوطتين ٩٦٥٤ و S-2 فإننا نرى أن مؤلفهما واحد للأسباب التالية:

- ناسخهما واحد (لا أدري ما الذى يمنع أن يكون الناسخ هو المؤلف نفسه).
- تشابه موضوعات المخطوطتين.
- الإشارة إلى أعمال الكاتب المسرحى لوبى دى بيغا فى الكتابين دون ذكر اسمه والاكتفاء بكلمة "الشاعر" فى النصين.
- عندما يتحدث المؤلف عن محاكم التفتيش فإنه يستخدم التعبيرات نفسها فى المخطوطتين.
- عندما يتعرض لمجادلة المسيحيين فإنه يستشهد بأشعار متشابهة فى المخطوطتين.
- يشير المؤلف فى كل مخطوطة إلى أنه وضع مؤلفات أخرى.

لا نعرف كذلك تاريخاً محدداً لكتابة المخطوطة. الشيء الوحيد المؤكد هو أنها كتبت بعد عام ١٦٠٩ بعد وصول المؤلف إلى تونس. يقول أوليفر أسين – في معرض الحديث عن المخطوطة S-2 المشار إليها – إنها كتبت بعد الطرد بسنوات طويلة، ويذكر عام ١٦٣٠ على وجه التحديد كتاريخ محتمل لتأليفها ^(٨) ويستند في ذلك إلى عبارة ذكرها المؤلف تحدث فيها عن رغبته في أن يقرأ الجيل المولود في تونس هذه المخطوطة. إذا وضعنا في الاعتبار أن المخطوطة التي بين أيدينا تتناول أول ما يجب أن يدرسه المسلم من أركان الإيمان والعبادات فلنا أن نقول بأنها كتبت قبل المخطوطة S-2.

٢ - ثقافة موريسكى:

تعد المخطوطة التي بين أيدينا نموذجاً للثقافة الموريسكية بكل أبعادها. عاش الموريسكيون في إسبانيا وكانوا يشكلون عنصراً أصيلاً من عناصر وطنهم. كانوا يعتبرون كل ما هو إسباني – باستثناء ما يخالف الإسلام - جزءاً من مكونات ثقافتهم (ومن هنا يجيء تألفهم مع الأعمال الأدبية الإسبانية). من ناحية أخرى أجمعت كل الدراسات الحديثة على أن الموريسكيين ظلوا يؤدون شعائر الإسلام حتى خلال الظروف بالغة الصعوبة والمتمثلة في ملاحقة محاكم التفتيش لكل من يشتبه في تعلقه بالإسلام. كان من نصيب الموريسكيين أن يعيشوا الفترة الأخيرة للإسلام الأندلسي، وقت أن كان هذا الإسلام – لأسباب مختلفة – في عصر تدهور (لذلك سنلاحظ أن التراث الموريسكى به كثير من الأحاديث الموضوعية والمعلومات غير الصحيحة والنبوءات). في تلك الفترة كان من الشائع عقد مناظرات بين المسلمين والمسيحيين (بعيداً عن أعين محاكم التفتيش بالطبع، وقد درس لوى كاردايك هذا الموضوع بتوسع). سنرى الآن أن كل هذه العناصر سيكون لها مكان في المخطوطة، وسنتعرض فيما يلي لكل هذه العناصر بالدراسة.

١- الجدل الدينى:

- طبيعة سيدنا عيسى.

شكلت طبيعة سيدنا عيسى عليه السلام مادة للجدل بين المسلمين والمسيحيين الإسبان. يتحدث لاجئ تونس عن الأنبياء بشكل عام، ويشير إلى أن كل نبي قد أیده الله بمعجزة أو بمعجزات، ويقول إن عيسى عليه السلام كان نبيا مثل بقية الأنبياء ولهذا أجرى الله على يديه بعض المعجزات. يقول الموريسكى إن هذه المعجزات ليس من شأنها أن ترفع سيدنا عيسى إلى درجة تتجاوز طبيعته كبشر وكرسول. إن الأمر واضح بالنسبة للموريسكى مؤلف المخطوطة: ليس بمقدور أى إنسان - حتى لو كان نبيا- أن يقوم بمعجزة من تلقاء نفسه، فالمعجزة لا يستطيع أن يقوم بها إلا الله سبحانه وتعالى، وهو يجرى المعجزة على يد النبی لكى يصدق الناس أنه نبي مرسل. بالنسبة لمعجزة ميلاد المسيح عليه السلام يشير المؤلف إلى أن خلق سيدنا آدم كان أكثر إعجازًا، فقد خلقه الله دون أن يكون له أب أو أم:

ولا يمكن للأنبياء أن يكونوا آلهة، وقد نسب بعض ضعاف الفهم إلى الأنبياء صفة الألوهية، وهذا ما فعله المسيحيون التعساء، فقد رأوا أن سيدنا عيسى قد وضعت السيدة مريم.... وأن الله قد أجرى على يديه معجزات كثيرة فعميت أبصارهم وقالوا إنه إله، وفاتهم أن خلق آدم من حفنة من التراب وخلق حواء من ضلع آدم أشد إعجازًا من خلق طفل فى رحم امرأة، (فهذا شئ عادى). هكذا يكون أكثر منطقية أن يكون آدم وحواء آلهة. ولو كانت المعجزات تجعل من أجريت على أيديهم آلهة فليس هناك فرق بين نبي وآخر. إن كل ذلك عمى وتعاسة، فعيسى ومريم بشر خلقاهما الله كالآخرين. (ص ١٣)

- الأناجيل:

يعرض لاجئ تونس محتوى الأناجيل ويوجه لها النقد بعد ذلك. يفرق الموريسكى بين الكتاب الذى أنزله الله على سيدنا عيسى وبين الكتب التى وضعها

تلاميذه: الكتاب الأول هو الإنجيل (ص ١٣ ظهر)، أما الكتب الأخرى فيوجه إليها انتقادات شديدة استنادًا إلى ما عرفه عنها وهو يقيم في أسبانيا:

والمؤمنون يقولون إنه خلق في رحم السيدة مريم العذراء وأنه نبي أرسله الله ومعه الإنجيل وهو شرع الله الذي جاء به. وليكن معلومًا أن الإنجيل ليس ما كتبه لوقا ومرقس وحننا ومتى، فكل ذلك زيف وتأليف، بل الإنجيل كتاب أرسله الله (إلى عيسى) مع جبريل فبلغه للناس... ثم رفعه الله إليه. (ص ١٣ ظهر).

ويذكر المؤلف أنه - خلافاً للمسيحيين الذين ينتقدون الإسلام دون أن يدرسوه - يوجه النقد إلى العقيدة الكاثوليكية على أساس دراسة وتجربة شخصية (ص ١٤).

- موقفه من محاكم التفتيش:

يبلغ إيمان الموريسكي بالإسلام إلى حد التصريح بأنه لولا الخوف من محاكم التفتيش لدخل كثير من المسيحيين في الإسلام. يقول المؤلف "إن كل شريعة المسيحيين وضعها البابوات على غير أساس" ويواصل حديثه قائلاً:

ولا أظن إلا أن الكثيرين يعلمون ذلك، ولما كان ليس بوسعهم أن يتكلموا خوفاً من محكمة التفتيش اللعينة، فهم يخفون ذلك في صدورهم. (ص ١٠ ظهر).

وتشير الوثائق التي تعرضها غارثيا أرينال في كتابها "الموريسكيون الأندلسيون" إلى أن القساوسة الإسبان كانوا يخشون أن يتحول بعض المسيحيين إلى الإسلام. إن هذه الجملة التي ذكرها الموريسكي بالتحديد ترد في بعض وثائق الكتاب^(٩).

لم يتعرض الموريسكيون القادمون إلى تونس لحملة أسلمة إجبارية في تونس. لقد قرأنا الكثير من الشهادات التي أطلقها الكتاب المعاصرون للموريسكيين وذكروا فيها أنهم كانوا "مسلمين كأهل الجزائر"، ومن ثم فليس من باب الإنصاف

أن يتحدث أحد عن عملية تثقيف إجبارية في تونس. إن الموريسكى يعرض بنود العقيدة الكاثوليكية ثم يصدر حكمه الخاص عليها:

هذه هي شريعة المسيحيين التي رأينا بأعيننا أنهم يمارسونها والتي تظاهروا حيناً باتباعها، لكن الله يعلم أن ذلك كان على سبيل التظاهر وأنا كنا على يقين من خطأ تلك الشعائر (ص ١٤).

- تجربة شخصية:

هناك عنصر آخر من عناصر الثقافة الموريسكية وهو الخاص بالجدل حول الدين. يجب ألا ننسى أن الصراع كان في أساسه صراعاً دينياً. كان الموريسكيون يدافعون عن هويتهم الإسلامية في مواجهة عمليات التنصير التي كان الكاثوليك يمارسونها ضد إرادتهم، وكانت السلطات ترسل إلى السجون أصحاب المذهب البروتستانتي بالإضافة إلى الموريسكيين. لذلك نجد في المخطوطة رواية لواقعة جدل بين أحد الموريسكيين وقسيس بروتستانتي. يستجيب الموريسكى لتعاليم القرآن فيجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن ويبتعد عن السباب:

أتذكر واقعة حدثت في زماننا... كان أحد الموريسكيين مودعاً في أحد سجون محكمة التفتيش الظالمة في طليطلة. كان مودعاً في حجرة مظلمة وأدخلوا عليه مبشراً مسيحياً معتقلاً. شعر المبشر المسيحي بالإهانة لأنهم تجرعوا عليه وأدخلوه السجن فأخذ يركل الأرض بقدميه ويطلق الشتائم على أعضاء محكمة التفتيش. بعد لحظة هدأ غضبه وأدار وجهه فوجد الموريسكى جالساً فوجدها فرصة للحوار فقال له "لقد قرأت منذ فترة كتاباً نسميه "ضد القرآن" ووجدت فيه معجزة انشقاق القمر ودخوله في كم الإزار وهي المعجزة التي يتحدث بها المسلمون. أنت تعرف أن القمر كبير جداً فكيف يدخل في كم الإزار وهو صغير. ألا تظن أن هذا ضلال؟" تحرك الإيمان في قلب الموريسكى الذي كان يدرك قدرة الله فقال للمبشر "سيدى، من الأكبر هل هو الله أم القمر؟" "أجاب المبشر" وهل هناك شك في أن الله

أكبر من القمر؟" قال الموريسكى "كيف - والحال كذلك - يدخل الله فى مجرى التنفس وهو أصغر من الكم؟ ألا يمكن للقمر إذن أن يدخل فى كم الرداء؟" نهض ذلك الشيطان المبشر واشتد غضبه وبدأ يضرب باب الحجرة حتى جاء قائد السجن فطلب مقابلته. حضر أعضاء محكمة التفتيش وحكى لهم المبشر ما حدث مع الموريسكى وأضاف "لو أن هذا الرجل ترك حياً لتحول الإسبان جميعاً إلى مسلمين" ولهذا حُكم على الموريسكى بالموت حرقاً رضى الله عنه" (ص ٨ - ٩).

يستخدم الموريسكى فى محاورته للمسيحيين كل الوسائل المناسبة، وطبيعى أن تكون الأدلة المنطقية من بين تلك الوسائل. يقول الموريسكى إن الكاثوليك لا يعرفون شيئاً عن الإسلام وبالتالي فهم يرتكبون كثيراً من الأخطاء عند إصدار أحكام على موضوعات إسلامية:

من يحكم على أمر دون فهمه

لابد أن يكون حكمه خاطئاً (ص ١١)

يشير الموريسكى فى الفقرة السابقة إلى الكتاب الذى وضعه الكاثوليك بعنوان "ضد القرآن" فيذكر أنهم فى هذا الكتاب يكتبون الآية ثم يترجمونها لكى ينتقدوا مضمونها بعد ذلك. يذكر الموريسكى أن ترجمة الآيات ليست دقيقة، وهو بذلك يدحض حجج الكاثوليك الإسبان:

وقع هذا الكتاب فى يدى. إنهم يكتبون الآية ويترجمونها إلى اللاتينية ثم يردون عليها. إنهم لا يفعلون ذلك مع كل الآيات، وإنما مع الآيات التى يحددونها. وقد وجدت أن ترجمتهم مختلفة تماماً عن معناها فى القرآن، وهكذا يخطئون فى كل شيء. (ص ١١).

– قصائد جدلية:

أنتجت المجابهة الجدلية بين المسلمين الإسبان والكاثوليك مجموعة كبيرة من القصائد. يستخدم الموريسكى هذه القصائد التي كتبها محمد ربضان (وهو شاعر موريسكى هاجر إلى تونس) أو تلك التي ظلت مجهولة المؤلف:

يا من تجعلون لله ابناً

وتخصصون له

مئات التماثيل

من الذهب والرخام والبرونز والخشب

وتقدمون له القرابين الزائفة (ص ١٤)

من المناسب أن نذكر هنا أن لاجئ تونس لا يخصص فصلاً للجدل الديني. إنه لا يتعرض للموضوع إلا إذا كانت هناك مناسبة للحديث عنه.

ب- النقية والتمسك بالدين الإسلامي:

بعد أن يعرض الموريسكى بنود العقيدة الكاثوليكية يوجه إليها نقدًا شديدًا ويقول إنه إذا كان قد مارس الشعائر المسيحية وهو في إسبانيا فلم يكن ذلك إلا من باب النقية خوفاً من ملاحقة محكمة التفتيش له:

هذه هي شريعة المسيحيين التي رأينا بأعيننا أنهم يمارسونها والتي تظاهروا حيناً باتباعها، لكن الله يعلم أن ذلك كان على سبيل التظاهر وأنا كنا على يقين من خطأ تلك الشعائر (ص ١٤).

كان من شأن الفتوى التي أصدرها أحمد بو جمعة وأرسلها من وهران إلى الأندلس عام ١٥٠٤ أن يتمكن المسلمون هناك من ممارسة شعائر الإسلام سرا وأن يتظاهروا باتباع المسيحية تجنباً لملاحقة محاكم التفتيش.

من الثابت أيضًا أن الموريسكيين كانوا متمسكين بالإسلام، ونجد هذا الأمر واضحًا في هذه المخطوطة التي يشرح فيها لاجئ تونس شعائر الدين الإسلامي. يتعرض المؤلف لعدة جوانب في العقيدة الكاثوليكية وينهى حديثه بهذا التعليق:

ولما كنا قد تربينا معهم فإننا نعلم جيدًا ما يعتقدون وما يقولون وكل ذلك زيف ولهذا تركناه وأتينا إلى هنا بحثًا عن اليقين (ص ١١).

ج- على بن أبي طالب في التراث الموريسكى:

تتحدث كتب السيرة عن شجاعة على بن أبي طالب رضى الله عنه، وقد برزت تلك الشجاعة في مواطن كثيرة، خاصة في موقعة بدر الكبرى. ورغم أن كتب السيرة تنسب إلى على بن أبي طالب شمائل كثيرة كالتواضع والعلم والتقوى، إلا أن الموريسكيين كانوا يبرزون شجاعته بشكل خاص، بل وقد وصل غلوهم في هذا الأمر إلى أن نسبوا إليه بطولات خارقة. إن المخطوطات التي تعرض هذا الأمر كثيرة ونذكر منها على سبيل المثال المخطوطة رقم ٥١٢٠ بالمكتبة الوطنية بمدريد (ص. ٥٠-٥٩). ويقدم الدكتور غالميس دي فوينتيس هذه الصورة لعلي بن أبي طالب استنادًا إلى المخطوطات الموريسكية:

كانت شجاعته منقطعة النظير، حتى أنه "وهو يمتطي جواده كان يساوى ألفين من الفرسان"، وكانت قوته خارقة، فكان يقسم فارسًا وحصانه إلى نصفين بضربة واحدة.... وفي بعض الأحيان كان على يكرُّ بمفرده على جيش كامل ويفعل به ما تفعل النار في الهشيم (١٠).

أما في المخطوطة التي بين أيدينا فقد وردت هذه السطور:

وأعقبه (في الخلافة) سيدنا على بن أبي طالب رضى الله عنه، زوج السيدة فاطمة رضى الله عنها، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان أشجع من عرف من المحاربين، فقد كان يظهر في أية موقعة فحتى لو كان غائبًا في مكان بعيد كان

الله يرسله وكان يظهر بين الناس وحقق النصر في كل المعارك، وهو الذى يظن المسيحيون أنه سانتياغو وهم مخطئون. (٢٥ ظهر)

نستطيع أن نفسر تركيز الموريسكيين على الجانب الأسطوري فى بطولات على بن أبى طالب بالظروف الخاصة التى كانوا يعيشونها. لقد بذل الموريسكيون كل ما فى وسعهم للتخلص من اضطهاد السلطات المسيحية الإسبانية، ولم يعد أمامهم سوى انتظار معجزة إلهية. هذا ما يفسر وجود نبوءات موريسكية تتحدث عن قرب انتصار الإسلام (المخطوطة ٤٩٣٥ بالمكتبة الوطنية بمدريد تتبأ بأن سلطان تركيا سيسترد الأندلس من الكفار) ويفسر أيضاً الحديث عن معجزات يجريها الله على يد على بن أبى طالب.

د- الفقه على المذهب الحنفى:

رأينا أن الموريسكى متمسك بالدين الإسلامى، ونرى هنا شيئاً جديداً: إن الموريسكى الذى كان يتبع المذهب المالكى وكان يتعصب له، نراه الآن يعرض الفقه على المذهب الحنفى. كان الموريسكى دون شك يريد أن يتجنب المشاكل فى بلده الجديد تونس التى كان المذهب الحنفى سائداً فيها.

من المعلوم أن المسلم المعاصر يتفهم جيداً قضية اختلاف الفقهاء الأربعة حول بعض الأمور، فكلهم استند إلى القرآن الكريم وإلى الأحاديث الصحيحة. ليس هناك خلاف بين الفقهاء الأربعة فى أمور تتعلق بجوهر العقيدة، بل حتى فى الأمور التى اختلفوا بشأنها لم يتعصب أحد منهم لرأيه، ولم نعرف عن أحد الفقهاء أنه أراد تعميم مذهبه وترك ما عداه. لكن الوضع فى الأندلس كان مختلفاً بعض الشيء، فقد أعجب الأندلسيون بمذهب الإمام مالك، وتعصبوا له بل ونسجوا الأساطير حول شخص مالك نفسه (راجع المخطوطة J 3/3)، وكان أهل الأندلس يقولون: "لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك". اتباع المذهب المالكى فى حد ذاته

لا يمكن اعتباره أمراً سيئاً، إنما الأمر السيء هو إنكار ما عداه من المذاهب. ونذكر هنا ما يقوله الإمام أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي في كتاب "الاعتصام":

ولقد لقي الإمام بقيُّ بن مخلد حين دخل الأندلس آتياً من المشرق من هذا الصنف الأمرين، حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب، لأنه جاءهم من العلم بما لا يدى(?) لهم به إذ لقي بالمشرق الإمام أحمد بن حنبل وأخذ عنه مصنفه وتفقّه عليه، ولقي أيضاً غيره، حتى صنّف المسند المصنف الذي لم يصنف في الإسلام مثله، وكان هؤلاء المقلّدة قد صمموا على مذهب مالك، بحيث أنكروا ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الحق والغلو في محبة المذهب، وعين الإنصاف ترى أن الجميع أئمة فضلاء....^(١١)

لعلنا ندرك الآن أن لاجئ تونس حين أراد عرض الفقه الإسلامي وفقاً للمذهب الحنفي كان يعلم أنه يحدث البعض منهم بما لا يعرفون، ولهذا رأى أن يمهّد للموضوع ببعض الكلمات:

وهكذا نتعرض الآن للركن الثاني وهو الصلاة، وسنعرضها على مذهب سيدنا أبي حنيفة رضي الله عنه. ولا يجب أن يفهم أحد أن وجود أربعة مذاهب معناه الاختلاف، بل الشريعة شيء واحد فأتباع المذاهب جميعاً يؤدون الوضوء والصلاة والركوع والسجود بنفس الطريقة، والاختلاف لا يعدو كون هذه الجزئية فرضاً عند أحدهم وسنة عند الآخر، فقد كتب كل فقيه طبقاً لما فهمه بعلم... وبما أنهم اجتهدوا ونشروا ما عرفوه فكلهم له عذره، والمصيب منهم له أجران والمخطئ له أجر واحد. (ص ٢٦ ظهر-٢٧).

وعموماً فإن بين أيدينا الآن أول كتاب في الفقه على المذهب الحنفي باللغة الإسبانية، وهذا أمر غير معهود في المخطوطات الموريسكية.

هـ - تأليف كتاب فى الفقه الإسلامى باللغة الإسبانية:

تعرض المخطوطة موضوعًا جديدًا: هل يمكن وضع كتاب فى الفقه الإسلامى بلغة غير العربية؟ من المناسب أن نذكر هنا أن الفقه الإسلامى قد خطا خطوات جادة فى السنوات الأخيرة فيما يتعلق بالإجابة على التساؤلات التى يطرحها المسلمون المعاصرون، خاصة ممن يعيشون كأقليات فى بلاد غير إسلامية. (تعد مؤلفات د. يوسف القرضاوى رائدة فى هذا المجال. لم يبدأ القرضاوى من فراغ بالتأكيد، فقد سبقه بعض الفقهاء فى التصدى للرد على سؤال ما).

كان بعض الفقهاء المسلمين يبدى التحفظ حول اللغة التى ينبغى أن يكتب بها النصوص الفقهية. وكان عيسى بن جابر مفتى سيغوبيا من أوائل من كتبوا مؤلفات دينية بالإسبانية^(١٢). وقد وجد الرجل حرجًا شديدًا فى ذلك وبرر ما فعل بأنه لا يريد أن يكتّم علمًا وأن المسلمين المعاصرين له قد نسوا اللغة العربية فوضع لهم الكتاب بالإسبانية حتى يفهموه. يقول مفتى سيغوبيا فى "مختصر السنة": "لقد فقد الناس النور والمدارس واللغة العربية، وقد طلب منى بعض الأصدقاء أن أستخرج لهم من القرآن والنصوص الدينية كتابًا بالإسبانية حتى يمكن اتباع شريعتنا المقدسة والسنة".

بدأ موضوع اللغة المستخدمة بمناسبة إمكانية تأدية الصلاة بلغة غير العربية، ومن المعلوم أن ثلاثة من الأئمة اشترطوا أن تؤدى الصلاة باللغة العربية وأن الإمام أبا حنيفة قد أجاز الصلاة بغير العربية لمن لا يعرف العربية. أما العلوم الدينية بصفة عامة فلا يعترض الفقهاء على كتابتها بغير العربية. هناك بعض الاستثناءات. يرى الجاحظ أن كتب الدين لا تجوز ترجمتها^(١٣)، بل ولا يجوز ترجمة الشعر العربى حيث يرى أن الشعر لا يستطيع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل. على أن الجاحظ - وهو مرجع لغوى دون شك - كان يتحدث عن الترجمة وكيف أن المضمون قد يضيع معها، وليس من المعتاد أن يعود الناس إليه فى أمور

الفقه. أما في أوساط الفقهاء فقد كان أكثر المتشددین في هذا الأمر هو ابن تیمیة، وقد رأى أن "نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" (١٤). لكن ابن تیمیة يقول في موضع آخر إن ترجمة القرآن عمل جائز للحاجة "وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه... ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة" (١٥). ويقول الإمام ابن تیمیة إن الناس يعتمدون على الترجمة في أمور دنياهم "وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا، فكيف لا يتوسلون إلى فهم مراد بعضهم من بعض؟" (١٦).

وقد اتبع الفقيه التونسي أبو الغيث القشاش رأى جمهور الفقهاء وقال بجواز وضع كتاب في العلوم الدينية باللغة الإسبانية وذكر أن هذا الأمر "مقبول، بل وأجره عظيم" (المخطوطة S-2 ص ٨) (١٧).

و- الأثر العربي في المخطوطة:

من المعلوم أن لاجئ تونس وهو في إسبانيا كان يجهل كثيرًا من أمور الدين الإسلامي الخاصة ببعض تفاصيل الشعائر (يرد ذلك في المخطوطة S/2). إذا وضعنا هذه البيانات في الاعتبار فلنا أن نبدي كثيرًا من الشك في أن يكون الموريسكى مؤلفًا للمخطوطة ٩٦٥٤ (أو للمخطوطة S/2 لنفس الأسباب) ونحسبه قد ترجم الكتاب عن أصل عربي. وإذا أردنا الإنصاف فعلينا أن نعترف بأنه لم يكن مجرد مترجم أمين للنص العربي، فمن الثابت أنه يضيف تعليقات على النص الأصلي من واقع الحياة في إسبانيا ويوجز بعض الفقرات إن رأى فيها إسهابًا. وبالإضافة إلى ما تقدم يمكننا أن نسوق بعض البيانات التي تعضد وجهة نظرنا:

- الاستخدام المتكرر لحرف العطف على غير المعمول به في اللغة الإسبانية. (انظر ص ٧ ظهر و ١٣ مكرر ظهر على سبيل المثال)

- تكرار استخدام الصفة ومرادفاتها على غير الشائع في اللغة الإسبانية. (انظر ص ٤ و ٦ و ٢٤)

- تأنيث المذكر أو تذكير المؤنث في الإسبانية بما يتفق مع المعمول به في اللغة العربية.

- مراعاة الخصائص الأسلوبية العربية ومخالفة الإسبانية. (انظر ص ١٥ ظهر و ١٨ و ٢٤ و ٢٦ ظهر)، ولنا تعليق خاص على ما جاء في ص ١٥ ظهر، فقد استخدم الموريسكى صيغة الفعل الموافقة للغائب المفرد للإشارة إلى الغائب الجمع.

إذا وضعنا في الاعتبار أن لاجئ تونس كان يجيد الإسبانية منذ طفولته وأنه قارئ جيد لأعمال أدبية إسبانية رفيعة المستوى وأنه - لذلك - لا يمكن أن يرتكب الأخطاء اللغوية المشار إليها، فإن كل ما سبق يدعونا إلى القول بأن الموريسكى كان مترجماً لا مؤلفاً وإن كنا - إحقاقاً للحق - نعتزف بأنه لم يقتصر على مجرد الترجمة، وإنما أضاف أحياناً وأوجز في أحيان أخرى (في ص ٢٦ ظهر) يقول: "إن علم التوحيد علم واسع، وحتى لو أنفق الواحد منا سنوات يقرأ عنه فستظل هناك أمور يريد أن يتعلمها، ولما لم يكن العلم بكل جزئياتها واجباً، فسأكتفى بوضع ما يجب أن يكون معلوماً بالضرورة ومما لا يعذر الجهل به....". ذلك الحذف وتلك الإضافة أضفيا على النص حيوية تفتقدها بعض النصوص الجامدة المكتوبة باللغة العربية.

ز- لوبي دي بيغا والموريسكيون:

كان الأدب الإسباني يمثل أحد العناصر التي يعجب بها صاحب المخطوطة، وقد أشار الموريسكى في مرات عديدة إلى أعمال الكاتب المسرحي لوبي دي بيغا، سواء في هذه المخطوطة أو في المخطوطة S-2، والملاحظ أن الموريسكى حين

يشير إلى مسرحيات لوبى لا يصرح باسمه وإنما يكتفى بكلمة "الشاعر". بقى أن نذكر أنه يفعل نفس الشيء مع الكتاب الآخرين: غارثيلاسو وكيبيدو وغونغرا.

تحدث الباحثون كثيرًا عن العلاقة بين لوبى دى بيغا والموريسكيين، وقد خصص الكاتب الإسباني كثيرًا من مسرحياته للحديث عن الموريسكيين، فكتب مسرحيات بعنوان الشريف ابن سراج *El hidalgo Bencerraje* وابن رضوان *El hijo de Raduan* وبدر و كاربونير و *Pedro Carbonero* وعلاج البؤس *El remedio en la desdicha* وحصار سانتا فى *El cerco de Santa Fe* والعالم الجديد الذى اكتشفه كولون *El nuevo mundo descubierto por Cristóbal Colon* وغيرها ^(١٨).

تبدو صورة الموريسكى سيئة فى الجزء الأعظم من هذه المسرحيات، أما الموريسكيون الطيبون الذين يظهرون فى مسرح لوبى فهم "مسيحيون فى داخلهم وينتهى بهم الأمر إلى اعتناق المسيحية". ^(١٩) والجدير بالذكر أن لوبى لا يساوى بين الموريسكيين والمسيحيين إطلاقًا، فهو دائمًا يبرز تفوق المسيحي و"يخونه الذكاء فى غالب الأحوال" ^(٢٠).

وتبدو العلاقة بين لوبى والموريسكيين أكثر تشابكًا، فمسرحية "قروية من خيتافى *La villana de Getafe* مستمدة إلى حد ما من حياة الكاتب نفسه كما يذكر ماركيت بيانوييا ^(٢١): كان شغله الشاغل هو محض الأقاويل التى تحط من شأن نسبه. أراد لوبى أن يوضح أن اتهامه بأنه ينحدر من أصول موريسكية لا يعدو كونه دعاية... " ^(٢٢).

يتحدث خايمي أوليفر أسين فى دراسته للمخطوطة S-2 عن إعجاب لاجئ تونس بالكاتب المسرحى الإسباني، ونلاحظ فى المخطوطة التى ندرسها الآن أن الموريسكى يشير إلى "الشاعر" دون أن يحدد اسمه. وقد رأينا عند فحصنا للمخطوطة أن شخصًا ما قد كتب بالقلم الرصاص كلمة "لوبى" بجوار كلمة

"الشاعر". الجدير بالذكر أن إدواردو سابيدرا - في وصفه للمخطوطة- يذكر أنها تتضمن مقطوعتين شعريتين للوبي دي بيغا. وإذا كان أوليفر أسين نفسه يعترف بصعوبة العثور على أصل أبيات لوبي التي يذكرها الموريسكى^(٢٣) - نظراً لضخامة الإنتاج الأدبي الذي خلفه الشاعر الإسباني- فليس بوسعنا إلا أن نقول إن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لنا.

ح- أثر مسيحي:

الشيء المؤكد هو أن الموريسكى تمسك بالإسلام وهو في إسبانيا. لكننا نرى جانباً آخر من جوانب ثقافة الموريسكى، فبعد أن وصل إلى تونس ظلت به بعض آثار الثقافة الكاثوليكية. نحسب أن الحديث عن ظهور على بن أبي طالب، واشتراكه في المعارك حتى بعد وفاته، مجرد محاكاة لما كان يزعمه الكاثوليك الإسبان عن ظهور سانتياغو. ونحسب أننا نجد أثراً مسيحياً آخر في المخطوطة. إن الكتب الدينية الإسلامية لا تتعرض لمسألة عذرية السيدة مريم بعد أن ولدت السيد المسيح. يعلم المسلم أن السيدة مريم لم ترتكب إثماً حين حملت، ويعلم كذلك أن مولد سيدنا عيسى على هذا النحو إنما هو معجزة إلهية. يتوقف الأمر عند هذا الحد في الثقافة الإسلامية بالنسبة لهذا الموضوع. لذلك فإننا نرى أن إصرار الموريسكى على أن السيدة مريم ظلت عذراء " أثناء الوضع وبعد أن وضعت" (ص ١٣) إنما هو أثر مسيحي. نرى كذلك أن الموريسكى يقبل من التعاليم الكاثوليكية ما لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية.

خاتمة:

يتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن لاجئ تونس، مؤلف المخطوطة ٩٦٥٤ بالمكتبة الوطنية بمدريد، كان شخصاً واسع الحظ من الثقافة. (على عكس ما كان يعتقد لوبي دي بيغا، كما يوضح أوليفر أسين) عاش في إسبانيا وتعين عليه أن يدرس العقيدة الكاثوليكية. لكنه كان على دراية بتعاليم الإسلام. قارن بين الديانتين

وكان اختياره واضحًا لا يقبل الشك. قال إن الكاثوليكية خطأ وحمد الله على أن مكّنه أخيرًا من العيش بين إخوته في الدين.

نتفق تمامًا مع ما يقوله خايمي أوليفر أسين: إن الكتابات الموريسكية تثبت أن الموريسكيين كانوا مسلمين مقتنعين بإسلامهم، ومن ثم فلم يكن بالإمكان أن يستوعبوا الثقافة المسيحية.^(٢٤) لهذا السبب نفسه نرى أن الموريسكيين لم يتعرضوا لعملية أسلمة في البلاد التي هاجروا إليها، فقد كافحوا طويلاً من أجل الحفاظ على هويتهم الإسلامية. لذلك فإن تونس - أو أى بلد إسلامي آخر - كان هو وطنهم الروحي. هذا لا يتعارض مع كون الموريسكي إسبانياً تماماً.

المخطوطة التي بين يدينا تقدم لنا شيئاً جديداً تماماً: الفقه على المذهب الحنفي بالإسبانية، ومن المعلوم أن أهل الأندلس بصفة عامة كانوا يتبعون المذهب المالكي ولا يقبلون غيره.

لم تذهب فترة حياة الموريسكي في إسبانيا سدى، فعندما يضع كتاباً في فقه العبادات بالإسبانية لا يقتصر على مجرد ترجمة النص العربي، بل يثرى الكتاب برواية حادثة ما أو يقدم أمثلة على ما يقول أو يستشهد بأبيات من الشعر. (علينا أن نعترف بأن الكتاب في صورته النهائية يخلو من الجمود الذي تتصف به بعض الكتب الدينية المحررة بالعربية).

تحفل المخطوطة بالإشارات إلى أعمال أدبية لمواطنيه الإسبان. إن إعجاب كاتبنا بالشعراء وكتاب المسرح الإسبان يتضح من خلال صفحات المخطوطة.

وهناك عنصر "إسباني" آخر في ثقافة الموريسكي، يتمثل في الاستعانة بقصائد مؤيدة للإسلام ومعارضة للكاثوليكية عندما يتعلق الأمر بالجدل الديني. العنصر التالي خاص بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، فرغم أن الثقافة المسيحية لا تشير إلى رابع الخلفاء الراشدين إلا أن حديث الموريسكيين عن ظهوره واشتراكه في الحروب لنصرة الإسلام ليس إلا أثراً إسبانياً مسيحياً، إذ يحاكي

مسلمو الأندلس ما يقوله المسيحيون الإسبان عن سانتياغو. وهناك أثر مسيحي أخير في المخطوطة يتمثل في إصرار الموريسكى على القول بعذرية السيدة مريم بعد أن وضعت سيدنا عيسى.

إذا أردنا أن نلخص مضمون ثقافة الموريسكى كاتب المخطوطة ٩٦٥٤ في جملة واحدة فلا أظن أننا نخالف الحقيقة إذا استعرنا ما كتبه لوثي لوبيث بارالت عن نفس الموريسكى، في معرض الحديث عن المخطوطة S-2: "كان إنساناً أراد أن يعيش كمسلم في إسبانيا إبان محاكم التفتيش، ولم يكن بوسعهِ أن يتخلى عن هويته الإسبانية وهو في تونس... الشيء الوحيد الذى كان واضحاً بالنسبة له هو إيمانه الخالص بالإسلام، ذلك الإيمان الذى أصبح بإمكانه أن يعبر عنه بحرية في وطنه الجديد" (٢٥) .

الهوامش:

- ١- انظر الفتوى التي أصدرها أحمد بو جمعة وأرسلها من وهران إلى الأندلس عام ١٥٠٤، وقد ورد نص الفتوى في كتاب محمد عبد الله عنان "دولة الإسلام في الأندلس"، الجزء السابع، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠٠١، ص ٣٤٢. لاحظ أن عيسى بن جابر مفتي سيغوبيا يطرح قضايا جديدة تمامًا خاصة بصلاة الجمعة وبالزكاة في بلد لم يعد المسلمون يتمتعون بالحرية الدينية فيها. أما ميكيل دي إيبالثا فهو يتعرض للتكييف الفقهي لما كان يدفعه ملوك الأندلس المسلمون لملوك النصارى : Mikel de Epalza: "El Cid y los musulmanes: el sistema de las parias-pagas, la colaboración de Aben Galbón, el título de Cid-león, la pasadita fortificada de Alcocer", *Simposio Internacional El Cid en el Valle de Jalón*, Centro de Estudios Bilbaltanos, Instituto Fernando el Católico, Calatayud, 1991, pp. 107-125,: Véase también la Fatwa enviada desde Oran a los moriscos en 1504, traducida en *Vida religiosa de los moriscos*, de Pedro Longas (Madrid, 1919). Puede verse también el *Breviario sunni* de Iça ben Yaber comentado por G. Weiggers, *Actas del III Congreso de Estudios Moriscos*, Zagan, Túnez, 1989 pp. 181-188.
- ٢- انظر كتاب لوثي لوبيث بارالت وتشرح فيه هذا الموضوع بالتفصيل. *Un kama sutra español*, ed. Siruela, Madrid, 1992 p.91-95
- ٣- Jaime Oliver Asin: "Un morisco de Túnez, admirador de Lope", *Al Andalus*, 1933, pp.409- 456.
- ٤- Luce López Baralt: *Un kama sutra español*, ed. Siruela, Madrid, 1992.
- ٥- Eduardo Saavedra: *Discurso de ingreso en la Real Academia Española*, *Memorias de la Real Academia Española*, VI (1889), pp. 165-70 y 290-91
- ٦- Oliver Asin: op. cit., p. 416.
- ٧- Véase Baralt: *Un kama Sutra....*, cit., p. 91
- ٨- Oliver Asin: op. cit., p.421
- ٩- Mercedes García Arenal: *Los moriscos*, ed. Siglo XXI, Madrid, 1996
الكلمات في ملف قضية فرانثيسكو دي اسبينوسا: p.100
- ١٠- Galmes de Fuentes: *El libro de las Batallas*, tomo I, ed. Gredos, Madrid, 1975, p. 51

- ١١- أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي: الاعتصام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الجزء الثاني، ص. ٣٠٣، وقد توفي عم ٢٧٦ هجرية، الموافق ٨٨٩م.
- ١٢- G. Weiggers: op. cit, pp. 183- 184
- ١٣- الجاحظ: الحيوان، ج ١، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، الحلبي، ١٩٣٨، ص ٩٠.
- ١٤- ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ص ٢٠٧.
- ١٥- ابن تيمية: درء تعارض العقل مع النقل ٤٣/١ تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١/١٣٩٩.
- ١٦- ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطابع المجد، ١/ ٢١٤.
- ١٧- Oliver Asin: op. cit, p. 414
- ١٨- Soledad Carrasco de Urgoiti: *El moro de Granada en la literatura*, Universidad de Granada, Granada, 1989, pp. 87-88.
- Ibid, p. 87 -١٩
- Ibid. -٢٠
- ٢١- Lope de Vega: *La villana de Getafe*, estudio, edición y notas de José Mª Diez Borque, ed. Orígenes, Madrid, 1990. p.12
- Ibid. -٢٢
- ٢٣- Oliver Asin: op. cit.,p. 419
- Ibid., pp. 413-414 -٢٤
- Luce López Baralt: *Un kama Sutra español*, Libertarias/Prodhufoi, -٢٥

رسالة موريسكية إلى العالم: قراءة في مخطوطتين بمكتبة إسبانيا الوطنية

جمال عبد الرحمن

يتلقى البعض منا بين الحين والآخر رسالة مجهولة المصدر يدّعي صاحبها أن اسمه أحمد وأنه خاتم الروضة الشريفة وأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه في المنام وكلفة بإبلاغ رسالة إلى الناس.

نقول الرسالة إن من يكتب منها عدة نسخ ويوزعها على الناس سيصيبه خير عميم في الدنيا والآخرة، أما من يتجاهلها فستحل عليه المصائب في المال والولد، بل لن يكون في عداد المسلمين.

وقد بلغت الرسالة شأنًا عظيمًا لدرجة أن الرئاسة العامة لإدارات الدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية خصصت فصلاً كاملاً من كتاب الرد عليها ودحض الافتراءات الواردة فيها. وقد لفت نظري أن الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله يقول - في معرض رده على الرسالة:

"وقد سألت بعض أقارب الشيخ أحمد المنسوبة إليه هذه الفرية عن هذه الوصية فأجابوني بأنها مكنوبة على الشيخ أحمد وأنه لم يقلها أصلاً، والشيخ أحمد المذكور قد مات من مدة (١).

سنرى فيما بعد أن الشيخ أحمد الذي يتحدث عنه ابن باز لا علاقة له بالشيخ أحمد الذي يتحدث عنه الرسالة، فقد عاش هذا الأخير منذ ما يربو على أربعة قرون.

في إحدى زياراتي إلى مدريد كنت أعكف على فحص المخطوطات التي خلفها مسلمو الأندلس، وكانت دهشتي كبيرة حين وجدت أمامي نسخة مماثلة لرسالة الشيخ أحمد التي يجري تداولها بين الناس.

والشيء المؤكد هو أن الرسائل التي يدّعي أصحابها أنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وأنه كلفهم بإبلاغ وصية إلى الناس، هذه الرسائل ليست قليلة، فهناك رؤيا أحد الصالحين في تونس (المخطوطة رقم ٦٠٦١ بمكتبة إسبانيا الوطنية)، ورؤية ابن كثير (المخطوطة رقم ٥٣٨٣ بمكتبة إسبانيا الوطنية)، ورؤية ابن كثير (المخطوطة رقم ٣٩٨٣)، ثم رؤيا الشيخ أحمد في المخطوطة نفسها.

من بين كل هذه الرسائل تبرز وصية الشيخ أحمد، فهي أكثرها شيوعًا، بل إننا في مصر لا نكاد نعرف سواها. إن مقارنة سريعة بين هذه الرسالة الوصية وبقية الرسائل تفسر لنا السبب: الرسائل الأخرى طويلة مسهبة ولا نكاد نعرف ماذا يريد أصحابها منا على وجه التحديد سوى نقلها من بلد إلى بلد ومن بيت إلى بيت، أما رسالة الشيخ أحمد فهي موجزة وتطلب منا شيئًا محددًا: أن نصوم ثلاثة أيام وأن نصلي في المسجد.

نعرض في السطور التالية وصفًا للمخطوطة التي تتضمن الرسالة. تنقسم المخطوطة رقم ٤٩٨٣ المودعة في مكتبة إسبانيا الوطنية إلى ثمانية أجزاء، كل جزء منها محفوظ في مظروف مستقل.

١- المظروف الأول به بعض الآيات القرآنية يعقبها دعاء القنوت وصيغ التشهد والأذان والإقامة.

٢- المظروف الثاني به آيات قرآنية. الخط يشبه الخط الذي كتبت به أوراق المظروف الأول. الورقة الأخيرة (من وجهين) بها دعاء لناسخ المخطوطة. (رغم أنه ارتكب عددًا هائلًا من الأخطاء الإملائية).

٣- المظروف الثالث به صيغة لعمل حجاب. يلاحظ هنا أن الخط سيئ للغاية، وأن الناسخ (وهو دون شك مختلف عن ناسخ الأجزاء السابقة) لا يجيد قواعد الإملاء.

٤- المظروف الرابع يحتوى على نص رؤيا ابن كثير. يقول شخص يُدعى ابن كثير إنه رأى النبی صلی الله علیه وسلم فی المنام وأنه كلفه بإبلاغ وصية ما إلى الأمة. تقول الرسالة إن المسلمين يجب أن ينقلوا نص الوصية من بلد إلى بلد ولا يجب أن يتجاهلوها. عندما استيقظ ابن كثير وجد الرسالة بين يديه. والحقيقة أن الرسالة شديدة الغموض، إذ لا نتبين ماذا يريد صاحبها سوى أن ننقلها من بلد إلى بلد، وهي تحذرننا أن من لا يفعل ذلك ستحل عليه النكبات. هناك جزء ثان من المظروف الرابع يتضمن آيات قرآنية وفقرات عن فضائل سورة الرحمن.

٥- المظروف الخامس به آيات قرآنية وفصل عن تارك الصلاة وعقوبة شارب الخمر ثم بعض آيات ثم أدعية النبی صلی الله علیه وسلم فی المناسبات المختلفة ثم حديث عن كرامات بعض الصالحين.

٦- المظروف السادس به آيات قرآنية، والخط شبيه بتلك الخطوط التي تكتب بها المخطوطات الموريسكية عادة. هناك جملة بالأخميادية في إحدى الصفحات.

٧- المظروف السابع يتحدث عن فضائل بعض سور القرآن الكريم، وفي الجزء الأخير منه نجد وصفاً لكيفية عمل حجاب لكل غرض.

٨- المظروف الثامن يتضمن رسالة الشيخ أحمد.

من هذا العرض يتبين أن المخطوطة تجمع بين خصائص المخطوطات الموريسكية في أواخر سنوات وجود المسلمين في إسبانيا من حيث ضعف مستوى اللغة العربية وكثرة الأخطاء الإملائية عند الناسخ، ومعالجة المخطوطة الواحدة لموضوعات شتى، ويُعد مضمون المخطوطة في كثير من الأحيان عن الإسلام الصحيح^(٢)، لكننا سنقصر حديثنا الآن على الجزء الثامن من المخطوطة.

لغة المخطوطة:

من حيث اللغة يمكن اعتبار المخطوطة ٤٩٨٣ نموذجًا للمخطوطات الموريسكية، فبالإضافة إلى ما ذكرناه في الفقرة السابقة نجد فيها خاصيتين معتادتين في كتابات مسلمي الأندلس في العصر المتأخر، هما أثر اللغة العامية، والأثر الواضح للغة الإسبانية في النسخ وفي المؤلف على السواء. ونعرض فيما يلي بعض الأمثلة:

التعبير	الملاحظة
كنت ليلة الجمعة نتلو	تغيير ضمير المتكلم
يا الشيخ أحمد عى	أثر إسباني واضح، فالمنادى المضاف في اللغة العربية لا تدخل عليه أداة التعريف "ال"
عندك شيء من أخبار أمتي؟	أثر إسباني، فالمعتاد هنا استعمال أداة الاستفهام "هل"
مولانا عز وجل قال	أثر إسباني ففي اللغة العربية تبدأ الجملة عادة بالفعل
باب التوبة تغلق عن قريب	أثر إسباني واضح، لأن كلمة "باب" لفظ مذكر في العربية ومؤنت في الإسبانية
إذا أغلق باب التوبة لا تقبل	أثر إسباني، فالأسلوب العربي السليم يقضى بتكرار كلمة التوبة هنا
يحملون أهلهم وأولادهم	"يحملون" هنا ترجمة لكلمة Llevar، أما في العربية فتستخدم كلمة "يصطحب" عادة

وبالإضافة إلى هذه الملاحظات نجد أن هناك تعبيرات كثيرة تستخدم فيها حروف الجر في غير مكانها الصحيح، وهو ما يمكن أن نعتبره أثرًا إسبانيًا آخر في لغة المخطوطة. ونجد كذلك خلطًا بين السين والصاد، وبين الياء

والكسرة... إلخ. أى أن المخطوطة يجمع بين خصائص الكتابات الموريسكية المتأخرة.

تاريخ المخطوطة:

لدينا عدة بيانات نستند إليها لتحديد تاريخ المخطوطة:

- من حيث الخط يقول غيبن روبليس^(٣) عن خط المظروف السادس إنه يعود إلى القرن الرابع عشر، أى أن تاريخ تحرير المخطوطة يقترب من هذا التاريخ.

- من حيث اللغة رأينا أن النص - بما يتضمنه من أخطاء لغوية، أخطاء إملائية ونحوية، وبما فيه من أثر إسباني وعامي - يعود إلى الفترة الموريسكية المتأخرة.

- من حيث مضمون الرسالة لدينا معلومتان توضحان - على وجه التحديد - تاريخ تحرير المخطوطة:

أ- جاء فى كتاب "حياة الموريسكيين الدينية" لبدرو لونغاس^(٤) أن محكمة التفتيش قد عاقبت موريسكيين لأنهم صاموا ثلاثة أيام (وهو الأمر الذى تنص عليه الوصية)، وجاء فى أقوال أحد الشهود أن "الحادثة" وقعت بعد طرد موريسكى فالنسيا وقبل طرد موريسكى أراغون، أى فى عام ١٦٠٩ بالتحديد.

ب- تحدد المخطوطة رقم ٥٣٩٠ بمكتبة إسبانيا الوطنية - وهى محررة عام ١٦٠٣ - بكل دقة تاريخ وصول رسالة الشيخ أحمد لأول مرة. يقول مؤلف المخطوطة رقم ٥٣٩٠ - وكان فقيهاً على الأرجح - إنه تلقى رسالتين إحداهما منذ عشرين عامًا (أى عام ١٥٨٣) والثانية بعد ذلك بأربعة عشر عامًا (أى عام ١٥٩٧) إذا قرأنا وصف الرسالتين كما

عرضهما الفقيه سنجد أن رسالة الشيخ أحمد هي التي وصلت إليه عام ١٥٩٧.

مكان وصول الرسالة:

تذكر المخطوطة ٥٣٩٠ أن نسخة من وصية الشيخ أحمد قد أرسلت إلى موضع يسمى "مليانة"، وقد ورد اسم مليانة في القضية التي نظرتها محكمة التفتيش ضد السيد سانشو دي كاردونا المتهم بحماية رعاياه المسلمين وتمكينهم من إقامة شعائر الدين الإسلامي^(٥).

هنا يجب أن نضيف ملاحظة أخرى تتعلق بتاريخ رسالة الشيخ أحمد. إن محاكمة السيد سانشو دي كاردونا تمت عام ١٥٦٩، وهو تاريخ قريب من تاريخ تحرير الرسالة، وهذا أمر يعضد فكرة أنه في ذلك التاريخ كان هناك جو من الحرية والتسامح النسبيين في مليانة.

إذا صدقنا ما جاء في ملف قضية السيد سانشو دي كاردونا فلنا أن نتخيل أن قرية مليانة التي كان يسكنها موريسكيون وكانت تتمتع بحماية السيد سانشو عاشت فترة من التسامح الديني. هذا - وهذا وحده كما نظن - يفسر الدعوة إلى صلاة الجماعة التي ترد في وصية الشيخ أحمد.

مؤلف المخطوطة:

لا يرد في هاتين المخطوطتين من أسماء الأعلام إلا اسم محمد بن علي المؤذن (في المخطوطة رقم ٥٣٩٠)، ويذكر المؤلف الفقيه أن الشخص المذكور من بين الذين نسخوا رسالة الشيخ أحمد. مؤلف الرسالة إذن شخص مجهول.

كنت على وشك إنهاء الحديث عن هذه الرسالة التي بلغت حظا كبيرا من الانتشار في عالمنا الإسلامي، لكنني بعد أن انتهيت من إلقاء محاضرتي حول هذا الموضوع خلال المؤتمر العاشر للدراسات الموريسكية في تونس، ذكر لي الدكتور

رونالد شورتر الأستاذ بجامعة برنستون بالولايات المتحدة أن هذه الوصية قريبة من وصية أخرى كان يجرى تداولها بين المسيحيين الأوربيين خلال العصور الوسطى، وبعد انتهاء أعمال المؤتمر أرسل إلى الدكتور شورتر بالفعل نص الوصية المسيحية. كان من الطبيعي أن أدرس الوصية المسيحية بعناية شديدة، وأن أقوم بعقد مقارنة بين الوصيتين، وقد وجدت ما يلي:

- يدعى من أرسل الوصية أنها رسالة من الله، وأنها وجدت في قرية قريبة من مدينة أبيلا بإسبانيا.

- لغة المخطوطة المسيحية تعود إلى فترة تسبق بالتأكيد القرن السادس عشر (تاريخ ظهور رسالة الشيخ أحمد).

- مضمون الوصية المسيحية يقترب إلى حد كبير من مضمون رسالة الشيخ أحمد: لا بد من نقل الوصية من بلد إلى بلد، الخير العميم ينتظر من ينقلها إلى آخرين، والعقاب الشديد سيكون من نصيب من يتجاهلها^(٦).

إذا وضعنا في الاعتبار هذه المعلومات فقد نصل إلى استنتاج حدوث تأثير مسيحي في إسلام الموريسكيين. وتجدر الإشارة إلى أننا تحدثنا في مناسبة سابقة^(٧) عن تأثير مسلمي الأندلس في عصرهم المتأخر بالمسيحية. على أن الموريسكي الذي تأثر لم يكن مجرد ناقل، فقد اقتبس الوسيلة لكنه وظفها لخدمة الهدف الذي يسعى إليه وهو دعوة الناس إلى المحافظة على الدين الإسلامي.

خاتمة:

رسالة الشيخ أحمد التي يتلقاها البعض منا بين الحين والآخر ليست وليدة هذا العصر، وإنما ترجع أصولها إلى القرن السادس عشر، وقد ظهرت لأول مرة في إحدى قرى مملكة فالنسيا كان يعيش فيها موريسكيون. تأكد لنا ذلك بعد أن عثرنا في مكتبة إسبانيا الوطنية على مخطوطتين إحداهما تتضمن نص الرسالة المتداولة، والأخرى تحدد تاريخ وصولها والمكان الذي وصلت إليه لأول مرة.

من المهم أن نشير إلى أن فكرة نسبة وصية ما إلى مصدر إلهي أو نبوي ليست من بنات أفكار الموريسكيين، فقد سبقهم إلى ذلك مسيحيو إسبانيا حين كان الإسلام ينتشر ورأوا أن المسيحية في طريقها إلى الزوال. أخذ الموريسكيون النهج ذاته عندما كانوا يمرون بظروف مشابهة وكانوا يخشون زوال الإسلام في إسبانيا، فنسبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصية مزعومة.

رسالة الشيخ أحمد إذن من عمل الموريسكيين وتدرج في إطار الكتابات الدينية التي تبعد عن الإسلام الصحيح، وإن كان الموريسكي الذي وضعها قد كتبها بدافع من الرغبة في إنقاذ ما تبقى من آثار باهتة للإسلام في إسبانيا الكاثوليكية.

أما كيف انتقلت هذه الرسالة الوصية إلى عالمنا الإسلامي فنظن أن الرسالة - وقد بلغت شأنًا عظيمًا في حينها - قد حملها أحد الموريسكيين معه إلى منفاه في شمال إفريقيا حرصًا منه على تنفيذ ما جاء فيها وأرسلها إلى آخرين. وهكذا ظلت منذ ذلك الحين تنتقل "من بلد إلى بلد، ومن دار إلى دار"، تمامًا كما أراد مؤلفها. إنها بالفعل رسالة موريسكية إلى العالم.

الهوامش

- ١- سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز: "التحذير من البدع" الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٢ هـ.
- ٢- انظر جمال عبد الرحمن "الإسلام في الأندلس بعد سقوط غرناطة من خلال وثائق لم تنشر بعد" كتاب تكريم الدكتور لوى دى كاردايك، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٥، ص ١٣٣-١٤٦.
- ٣- Guillén Robles: Catalogo de los manuscritos árabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid, Madrid, 1889.
- ٤- بدرو لونغاس: "الحياة الدينية للموريسكيين الأندلسيين" ترجمة جمال عبد الرحمن، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، ١٩٣، ص ٤٩.
- ٥- مرثيديس غارثيا أرينال: "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١.
- ٦- Clovis Brunel " Versions espagnole, provencale et francaise de la lettre du Christ" en Analecta Bollandiana, 68 (1950) pp. 383-396.
- ٧- انظر مقدمة ترجمتنا العربية لكتاب بدرو لونغاس المذكور، ص ٧-١٢.

ملحق ١

نص رسالة الشيخ أحمد كما وردت في المخطوطة ٤٩٨٣ بمكتبة إسبانيا الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً. هذه وصية النبي صلى الله عليه وسلم. قال العالم وكيل الروضة الشريفة الشيخ أحمد قال: كنت ليلة الجمعة نتلو كتاب الله عز وجل عند الروضة الشريفة إلى العشاء الآخر، ثم صليت العشاء ونمت، فسبحان من لا ينام، فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم ووقف عليّ وقال: يا الشيخ أحمد، عندك شيء من أخبار أمتي؟ فقلت لا يا رسول الله، فقال لي: يا الشيخ أحمد مات من أمتي بين الجمعتين سبع مائة، وماتوا كلهم كافرين إلا سبعة منهم ماتوا على الإسلام، نعوذ بالله، واستحييت من ربي عز وجل ولا بقيت ننظر في وجوههم. وأنا أرسلت إليهم بهذه الوصية ثلاثاً وصية. ولا وصية عملوا بها من وصاياي، فخالفوا الروايات واتبعوا أهواءهم وزادوا في الفسوق والفجور والكذب والزنا واللواط، وبقي الغنى لا ينظر في الفقير وقلوبهم وزادوا في قبح أفعالهم وأولادهم، وتركوا الحق واتبعوا أهواءهم، واستقر الزنا، وإذا قرئ القرآن يخوضون في حديث غيره ولا يسمعون القرآن، وإذا دخلوا المسجد يتكلمون بالغيبة والنميمة ويرقدون في أوقات الصلاة ويعملون كبائر الإثم والفواحش. ومولانا عز وجل قال: يا حبيبي يا رسول الله، أنا أريد أن تبدل صفة أمتك وردهم على (كذا) أقبح الصفات، فقلت يا ربي، بعزتك وجلالك لا تقهر أمتي حتى أبعث لهم وصية، فإذا لم يقيموا أمر دينهم ولم يؤتوا بشيء فحينئذ افعل ما شئت. ويا الشيخ أحمد وبقوا لا يشكرون الله على إنعامه وإحسانه عليهم ولا يصلون ولا يركعون ولا يصومون رمضان، وبقوا يتبعون أهواءهم ويشغلوا بالزنا وشرب الخمر. يا الشيخ أحمد، قل لأمتي القيامة قد قربت وباب التوبة تغلق عن قريب، وإذا غلق باب التوبة لا تقبل. هذه آخر الوصية وآخر الشفاعة. قل لأمتي يتوبوا قبل إغلاق باب التوبة ويصوموا ثلاث أيام، واليوم الرابع يعيدوا،

ويتوبوا من جميع ذنوبهم ويستغفرون الله عز وجل ويكثرون بالصلاة على قبل أن تغلق باب التوبة. وهذه الوصية وجدتها بخط أخطر أخصاء (كذا) لى النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه الوصية ترسلها من بلد إلى بلد ومن وطن إلى وطن ومن دار إلى دار. والذي تكون عنده ولا يرسلها فنكون أنا برئ منه وهو مخلص في النار. ومن أرسلها من بلد إلى بلد ومن وطن إلى وطن فأنا شفيعه ويدخل الجنة معي بغير حساب. وقل لأمتي يصلون في المساجد ويزكون من أموالهم. وتارك الصلاة إن مرض لا تقف عليه وإن مات لا تصلوا عليه وإن سلم على أحد لا يرد عليه السلام. وأنا بقيت نستحي من ربي عز وجل ~~هنا~~ قبح أعمال أمتي، ولا بقيت أقدر أن أقابل الملائكة من أفعال أمتي. قل لأمتي يحملون أهلهم وأولادهم وعيالهم ويصلون في المساجد. يا الشيخ أحمد كل من دخلت هذه في يده ولا يقرأها على الناس فأنا برئ منه، والذي يقرأها ولم يؤمن بها كأنه لم يؤمن بي. قال الشيخ أحمد كل من لا يؤمن بهذه يموت على غير دين الإسلام. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. فرحم الله من آمن بها وصدق بهذه الرؤية المباركة النادرة الإسلام. فرحم الله الكاتب والقارئ والمستمع ولمن دعا للكاتب بالرحمة ولوالديه ولجميع المسلمين. كملت بحمد الله تعالى وحسن عونه والسلام. الله الله الله الله الله الله الله انصرنا على الكافرين.

ملحق ٢

إشارة إلى رسالة الشيخ أحمد في المخطوطة رقم ٥٣٩٠ بمكتبة إسبانيا الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ورضى الله عن.... والصحابة أجمعين وبعد، طلب منى بعض الإخوان أبان الله لى ولهم..... البيان أن أكتب لهم ما فهمته من رسالتين بعثتهما لنا سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه المدة المتأخرة وليس (فى) قدرتى أن أنقل لفظه وعبارته لأنها لم تكن عندى محفوظة وإنما أنقل (ما) فهمته منها فى المعنى ليس باللفظ - لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جوزوا (كذا) العلماء أن ينقل بالمعنى ولكن.....إذا نقله بالمعنى أن ينسبه لرسول الله عليه السلام وإنما ينسبه لقائله كرسالة ابن أبى زيد^(*) وغيرها ويحذر الوعيد المذكور عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أو كما قال من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار وذلك أنه روى أو كما روى من قبل تاريخ هذا الكتاب بنحو العشرين سنة أن خادم روضة رسول الله عليه السلام أنه كان بين النائم واليقظان فإذا هو بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما قال يا فلان وسمّاه بلغ لأمتى السلام أعطهم (الرسالة) فقال الراوى أو كما قال استيقظت فإذا الكتاب بيدى فإذا فيه مكتوباً أو كما كان فيه مكتوباً "بعد السلام على أمتى، عليكم يا أمتى فى إقامة الصلاة فى أوقاتها فى الجماعات وإيتاء الزكاة، وإياكم والغيبة والنميمة والكذب، واسمعوا وصية فقهاءكم ولا تقولوا من ورائهم كلمة ولا من أمامهم كلمة، ويحفظوا أنفسهم القضاة من أكل الرشوة، وأنه من أكل الرشوة لا يخرج من الدنيا إلا غير (بغير) الإيمان، وقد توفى فى يوم واحد أربع وعشرون ألف قلت ولا أدري كم زاد من مائة فوق هذا الكتاب، ولم يمت منهم على الإيمان

(*) يشير إلى رسالة ابن أبى زيد القيروانى. (المترجم)

إلا رجل واحد. واعلموا أن الساعة قد قربت وقد هبط جبريل إلى الأرض رفع تسع خصال وعدّ من جملتها البركة والحياة والعلم، والست الأخرى ذهلت عن بالي، ولم يبق له يرفع إلا القرآن، فإذا هبط ورفع القرآن انقرضت الدنيا . ومن كتب هذا الكتاب أو نقله من موضع إلى موضع فأنا شفيعه يوم القيامة ويكون معي في الجنة والسلام" وبعد ما خطر من تاريخ هذا الكتاب نحو الأربعة عشر سنة بعث كتابًا آخر أيضًا وفيه مكتوبًا أو كما كان مكتوبًا " عليكم يا أمتي بالمحافظة على الصلوة (كذا) في أوقاتها والزهد في الدنيا، ولا يفضل أحد منكم زوجته على أمه، واعلموا (أن) الساعة قد قربت، وهذه آخر شفاعتي لأمتي، وعليكم بكثرة الصلوة على، وقل لهم يصوموا ثلاثة أيام واليوم الرابع يرجعوا (كذا)، ومن كتبه أو نقله من موضع إلى موضع أو من بلد إلى بلد فأنا شفيعه يوم القيامة ويكون معي في الجنة والسلام" انتهى. قلت ونعلمكم أن الفائدة المذكورة في الكتاب.....، والثاني قد حصلتها ولم ننقل منه إلا ما فهمته، وأما الذي لم نفهم فلم نتعرض له. هذا الكتاب وصل إلى بلادنا بشهود ووثائق واتعظوا الناس كلهم حين سمعوا كل واحد منهما (الكتابان) وأما حين سمعوا الكتاب الثاني صاموا جميع الناس ثلاثة أيام، وصاحب الخط هو محمد بن علي المؤذن كان واحد من الذين صاموا معهم ومن الذي نسخها في ذلك (كذا) الأرض ونسخ الكتاب الثاني أيضًا مرة ثانية وبعثه إلى مليانة. والله الذي لا إله إلا هو (إن) الذي قلت لكم هو حق. السلام على كل من يقف على مكتوبنا ورحمة الله وبركاته..... في أول ذي الحجة عام خمسة عشر وألف من هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم، عرفنا الله خير منه بتوفيقه وفضله (و) السلام.

ملحق ٣

ترجمة مختصرة لرسالة المسيح

الواردة في المخطوطة رقم ٦١٤٩ بمكتبة إسبانيا الوطنية

- هذه نسخة من رسالة هبطت من السماء إلى الأرض يجب علينا جميعًا أن نؤمن بها. وقد عثر على الرسالة في بلدة سانتا ماريا لا نوبيا على بعد ستة أميال من أبيلا.
- نهى عن شهادة الزور والبخل وعدم توقير يوم الأحد وعدم الذهاب لسماع الوعظ واصطحاب الأولاد إلى الكنيسة وارتكاب المعاصي وعدم التوبة وعدم تقديم العون للأرامل واليتامى.
- الجحيم عاقبة من لا يفعل ذلك.
- من لا يؤمن بهذه الوصية فهو كافر، وكذلك من لا ينشرها بين الناس.
- من يرسلها من بلد إلى بلد فسيغفر الله له ذنوبه ولو كانت بعدد نجوم السماء.
- هذه آخر وصية، فإذا لم يعمل بها فسيرسل الله حجارة تقتل الناس جميعًا وسيحول نور الشمس إلى ظلام دامس.
- على كل مسيحي أن يصوم ثلاثة أيام اثنين وثلاثة أيام ثلاثاء وثلاثة أيام أربعاء وثلاثة أيام جمعة.

معراج النبي محمد

في المخطوطات الأخميدية وفي مخطوطة عربية

رينولد كونزى

انتشرت أسطورة معراج النبي محمد إلى السماء في جميع أنحاء العالم الإسلامي ووصلت أيضاً إلى إسبانيا الإسلامية ومنها إلى العالم الغربي المسيحي. وقد وضع لنا ميغيل أسين بلاثيوس في كتابه عن " الأثر الإسلامي في الكوميديا الإلهية" أن دانتى قد عرف هذا الموضوع، وأن الأثر الإسلامي يُلاحظ في مواضع متفرقة من كتابه. وهذه النظرية عندما أُعلنت عام ١٩١٩ سببت كثيراً من الدهشة والامتناع خاصة في إيطاليا. كان من الممكن قبول نظرية أسين بسهولة لو أن منتقديه علموا بوجود ترجمات عربية مسيحية لقصة المعراج. ولدينا ثلاث ترجمات إحداها باللغة الفرنسية القديمة، والثانية باللاتينية والثالثة بالإسبانية القديمة [ترجمات لكل من شيروالى، ومونييث سنديو وبيريث ألونسو^(١)] هذه الترجمات تدل بالتأكيد على أن الأسطورة كانت معروفة في القرن الثالث عشر في أوساط الغرب المسيحي.

وقد وصلت قصة معراج محمد إلى آخر مسلمي إسبانيا، أي الموريسكيين. نعلم ذلك من خلال الروايات العديدة للمعراج في المخطوطات الأخميدية. وتروى لنا المخطوطة ٥٠٥٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد "القصة التي حكاها النبي محمد ﷺ عن صعوده إلى السماء"^(٢)، وتستخدم المخطوطة ١١٦٣ بالمكتبة الوطنية بباريس نفس الكلمات تقريباً^(٣)، وهو ما يحدث أيضاً مع المخطوطة رقم ٩ المودعة في مدرسة الدراسات العربية بمدريد وهي مكتبة المجموعة سابقاً. من الآن فصاعداً سأطلق على المخطوطة رقم J9 والمخطوطة T17 وفي مجموعة غايانغوس والمخطوطة J60 تحدثنا عن "صعود النبي" والمخطوطة J57 كذلك تحدثنا عن "صعود النبي" وبالإضافة إلى كل ذلك هناك مخطوطات باللغة العربية مصدرها الأندلس

تعالج نفس الموضوع أعتقد أن من بينها المخطوطة Marsh S18 في بودليانا، وهناك أخبار عن مخطوطات أخرى باللغة العربية في كتاب أسين بلاثيوس بعنوان "الآخرة عند المسلمين".

وقد اعتمد أسين بلاثيوس على الموضوعات العربية التي كان يعرفها في عصره، وذكر لنا في كتابه تصنيفاً لأسطورة المعراج. والآن نتساءل:

١ – ما هو موقف الروايات الأخميدية في تصنيفات أسين بلاثيوس؟

٢ – ما هو موقف الروايات الأخميدية في الترجمات الغربية؟

٣ – كيف يجب أن نصنف الروايات الأخميدية؟

٤ – ما مشاكل الروايات الأخميدية؟

٥ – هل يمكن للنصوص المكتوبة باللغة العربية أن تساعدنا على حل مشاكل الروايات الأخميدية؟

من الطبيعي ألا أستطيع الإجابة على كل هذه الأسئلة في الحيز الصغير المتاح لي؛ بل ولا أستطيع أن أطرح كل المشاكل؛ لهذا سأركز الحديث عن علاقة الروايات الأخميدية بالمخطوطات العربية وسأقتصر الحديث على مخطوطة عربية واحدة.

الروايات الأخميدية موجودة في المخطوطة 1163، J60، J57، T17، J9 (مكتبة باريس الوطنية)، 5053 (مكتبة مدريد الوطنية) أما المخطوطة العربية فهي Marsh 518^(٤) هذه المخطوطات جميعها تتناول الحدث: يوقظ محمد في مكة ويدعوه جبريل إلى أن يمتطي البراق ويصعبه. بعد تردد الدابة العجيبة يمتطيها محمد ويتوجهون جميعاً إلى بيت المقدس. يقطعون المسافة في لحظة قصيرة. في الطريق ينادى بعض الأشخاص محمداً لكي يتوقف ويتحدث معهم لكن جبريل يصر على ألا يعيرهم محمد انتباهاً. يصلون إلى بيت المقدس ويشرح جبريل لمحمد

معنى "المنادين أو الصائحين". فى قبة الصخرة يتحدث محمد مع الأنبياء ويؤمهم للصلاة. من هناك يصعد إلى السماء بصحبة جبريل على "المعراج" وهو سلم مصنوع من مواد قيمة. يمر محمد عبر سبع طبقات فى السماء، ويصل فى النهاية إلى العرش. فى كل سماء يلتقى محمد بنى. فى كل المخطوطات يحكى أن محمدًا يرى من مكان ما فى السماء النار والعذاب الذى يقاسيه الخالدون فيها، وفى كل المخطوطات يوصف أيضًا كيف يمر محمد بالجنة. إن قمة الرحلة تأتى عندما يمثل محمد أمام الله ويحادثه. فى اللحظة التى كان يستعد فيها محمد لانتهاى المحادثة يفرض الله على محمد وأمتة بعض الواجبات الدينية. تحدث مفاوضات حول هذا الأمر يحصل بمقتضاها محمد على تخفيف هذه الواجبات. بعد ذلك يهبط محمد من السماء ويصل إلى مكة. هناك يخبر أصحابه بما حدث ولا يصدقونه إلا قليلون.

ما ذكرته الآن تتفق بشأنه كل الروايات الأخميدية والمخطوطة العربية Marsh S18 لتعرض الآن للتصنيفات. تشكل المخطوطات الأخميدية مجموعتين: مجموعة من أربع مخطوطات ومجموعة من اثنتين: المجموعة الأولى تشكلها المخطوطات BNP 1163، J60، J57، T17 وهى مجموعة متجانسة ولا توجد بها إلا اختلافات طفيفة. والمجموعة الثانية تشمل المخطوطتين BNM 5053 عندما يقترب محمد من بيت المقدس:

ووجدت جبريل واقفاً على قدميه، وفى يديه ثلاثة أقداح : قدح فيه لبن، وقدح فيه خمر وقدح فيه ماء، وقال لى: يا محمد خذُ القدح الذى تريده واشرب ما فيه. مددت يدي إلى القدح الذى فيه لبن وشربت ما فيه إلا قليلا ورأيت من يقول لو أنك شربت اللبن كله يا محمد ما دخل أحدٌ من أمتك النار، وقال : يا جبريل، أعد إلى ما بقى من اللبن، وقال...

كل هذه الفقرة غير موجودة فى المخطوطة J9. هناك مثال آخر للاختلاف: النبى الموجود فى السماء الثانية هو إدريس فى المخطوطة J9 أما فى المخطوطة BNM 5053 فى السماء الثانية يتواجد عيسى ويحيى. فى المخطوطة J9 يعيش

ملك الموت في السماء الأولى، أما في المخطوطة BNM 5053 فنجد في السماء السادسة. من الواضح أن الأمر يتعلق بخطأ الناسخ كما يتبين ذلك من الفقرة التالية. الوضع هكذا: محمد وجبريل يصلان إلى السماء السادسة. يقول النص:

حتى وصلنا إلى السماء السادسة وهي كلها من الزمرد الأخضر وسيرها andadura كالسماوات الأخرى... أن توضع في طوبى وحولها طيور خضراء، وأن تمشي إلى الجنة.

بكلمة "الأخرى" يقطع الناسخ فجأة الجملة التي تصف وصول النبي وجبريل إلى السماء السادسة. وكلمات "أن يوضع" هي منتصف جملة أخرى تتحدث عن موضوع مختلف تمامًا. بداية الجملة نجدها في J9. المخطوطة تتحدث عن روح الميت يحملها ملك إلى الله..... " ويأمر الله تعالى أن توضع في طوبى وحولها طيور خضراء، وأن تسير إلى الجنة". إن النصوص الواردة في المخطوطتين BNM 5053، J9 ليست متماثلة . يبدو أن المخطوطتين منقولتان عن نص واحد. الموضوع العام هو وظيفة ملك الموت. تحدثنا المخطوطة BNM 5053 بعد ذلك عن الملك في صورة ديك، وعن ملك آخر نصفه تلج ونصفه نار، وعن مالك خازن النار. يقول مالك (BNM 5053) " أبشرك يا محمد أن أمتك ستكون أقل أمة في العذاب" بعد ذلك نقرأ "..... ونادى جبريل على الباب وخرج ملك..."، وهي كلمات يبدأ بها دخول السماء السادسة. بعد ذلك يتواصل الفصل بشكل عادي. كل هذا الجزء المكون من ثلاث صفحات عبارة عن إضافة خاطئة من الناسخ. إن ما يميز هاتين المخطوطتين هو أنها لا تضع ملك الموت في السماء الرابعة؛ كما يحدث في المجموعة المكونة من أربع مخطوطات.

وتتفق المخطوطتان BNM 5053، J9 في أن موسى مكانه السماء الرابعة بينما تقول المخطوطات الأخرى إن مكانه عند سدة المنتهى حيث يلتقى به محمد بعد حديثه مع الله. في المخطوطتين BNM 5053، J9 يسير محمد مع رضوان في

الجنة. أما في المخطوطات الأخرى فليس هناك حديث عن رضوان ولا عن سيره في الجنة.

يمكننا أن نذكر أمثلة أخرى للاختلافات لكننا نتحدث الآن عن المخطوطة Marsh 518 هذه المخطوطة لها خواص تتميز بها المخطوطات الأخمياوية فمثلا يظهر فيها "المنادون" في الطريق إلى بيت المقدس ويذكر فيها النبيان عيسى ويحيى، والمخطوطة العربية أكثر قرباً من المجموعة الأخمياوية المكونة من مخطوطتين (BNM 5053،J9) فمَكَك الموت مثلاً موجود في السماء الرابعة.

والنص العربي - من ناحية أخرى - يختلف عن النصوص الأخمياوية في عدة نقاط. إن النص العربي في بدايته ونهايته يقدم روايات أكثر مما تقدم المخطوطات الأخمياوية. محمد يؤدي ركعتين في طور سيناء ثم ركعتين في القدس. أما النصوص الأخمياوية فلا تتحدث عن ذلك. والنص العربي يتحدث بإسهاب عما حدث في مكة بعد عودة النبي من رحلته. المخطوطة J9 تحدثنا عن ذلك في ست صفحات أما المخطوطة العربية فتحدثنا في اثنتي عشرة صفحة.

الغموض الموجود في المخطوطات الأخمياوية يمكن توضيحه بالرجوع إلى النص العربي. هذا ما تؤكد الأمثلة التي سأعرضها فيما بعد. الموضوع الرئيسي هو فرض الواجبات الدينية على محمد في الوقت الذي كان يتهيأ فيه للانصراف من أمام الله.

لنبدأ بالمخطوطتين BNM 5053،J9 يقول النص إن محمداً قد تحدث مع الله عندما كان واقفاً أمام العرش:

"وعليك بصلاة الليل والناس نيام"

وكلمة "الصلاة" هي الموضوع الذي يستمر إذ يقول الله:

"يا محمد، لقد فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة في الليل والنهار".

فى تلك اللحظة يتذكر محمد أن موسى قد حذره من ثقل الواجبات الدينية لأن أمته لن تتحملها. لهذا يقول محمد لله:

"يا ربى، إن أمتى لن تتحمل ذلك".

وهذا يعنى أنه يقول ذلك بعد تلقى الأمر مباشرة وهو أمام الله لم يبتعد عنه. والله يخفف فى الحال بينما محمد لا يزال موجودًا معه. وهكذا تختصر الصلوات الواجبة إلى أربعين.

بعد ذلك مباشرة يحاول محمد التخفيف. ليست لدينا تفاصيل عن سير المفاوضات . المخطوطة تخبرنا بذلك باختصار (BNM 5053):

ولم أتوقف عن سؤال ربى أن يخفف عن أمتى حتى قال لى: لقد فرضت عليك وعلى أمتك خمس صلوات.

النص يخبرنا عن نتيجة إلحاح محمد. خفف الله الصلوات اليومية فجعلها خمسًا . لدينا إذن:

١ - كان التخفيف حسب النص كما يلى: ٥٠ - ٤٠ - ٥٠.

٢ - كانت المفاوضات مباشرة بين الله ومحمد فى نفس المكان الذى كلم فيه محمد ربه دون أن ينصرف.

فى الجزء الثانى من هذه النصوص تُفرض على محمد واجبات دينية أخرى: الصوم. كان محمد بالقرب من الله، وقد فرض الله صيام ستين يومًا.

"وقد فرض الله علىّ وعلى أمتى الصيام ستين يومًا".

مرة أخرى يتذكر محمد نصيحة موسى. يقول النص (BNM 5053):

"بعد ذلك عدتُ إلى ربى وسألته أن يخفف عن أمتى".

ويخفف الله عدد أيام الصيام فتصبح خمسين يومًا. بعد ذلك يقول النص:

"وعدتُ إلى أخى موسى".

لماذا يقول إنه عاد إلى أخيه موسى؟ إنه لم يكن معه مطلقاً. لقد تذكر فقط نصيحته. على أية حال فإن النص يخبرنا بأن محمداً ذكر لموسى عدد أيام الصيام. وكان رد فعل موسى كما يلي:

"لن تستطيع أمتك تحمل ذلك. عُد إلى ربك واسأله التخفيف كما خفف الصلاة"

أى أن موسى يطلب من محمد التوجه من جديد إلى حيث مكان الله، وبالفعل يعود محمد إلى الله عدة مرات، ويقول النص:

"ولم أتوقف عن سؤاله حتى فرض على وعلى أمتى صيام شهر رمضان".

أى أن الله قد اختصر وقت الصيام إلى ٢٨ يوماً هي شهر رمضان.

لدينا إذن:

- واجب ديني يُخفف عن طريق المفاوضات بالشكل الآتي ٦٠ - ٥٠ - ٢٨ هي عدد أيام الصيام.

- على النقيض مما حدث في الجزء الأول؛ فإن محمداً يتحرك باستمرار بين الله وموسى، وموضع موسى ليس محدداً في مكان معين. إنه فجأة موجود، وليس من المؤكد تواجده في السماء الرابعة كما تذكر المخطوطات.

هناك تناقض إذن بين الجزأين. في الجزء الأول تتم مفاوضات تخفيف الصلاة في حضرة الله دون أن ينتقل محمد، أما في الجزء الثاني فإن اختصار عدد أيام الصيام يتم عبر تنقلات لمحمد بين الله وموسى.

كيف تتعرض مجموعة المخطوطات الأربع لنفس الموضوع؟ سأتناول الآن المخطوطة T 17، إذ إن المخطوطات الثلاث الباقية تقول نفس الشيء.

محمد يتهياً للنزول كما تذكر المخطوطة: "بعد ذلك فكرت في النزول من ملكوته". في نفس اللحظة يقول له الله إنه يريد أن يفرض عليه واجبات دينية: "أريد أن أفرض عليك فروضاً". يعلن محمد أنه مستعد لقبولها: "السمع والطاعة لك يا ربى".

بعد ذلك يفرض الله ٥٠ صلاةً يومية. يهبط في الحال حيث سدره المنتهى حيث يوجد جبريل ومعه شاب. يتعرف محمد على الشاب؛ فهو موسى، ولم يكن قد رآه من قبل في رحلته السماوية. في الحال يجرى بينهما حوار. محمد يخبر موسى بأن الله قد فرض خمسين صلاةً في اليوم. يقول له موسى إن أمته لن تستطيع تحمل ذلك: "يا محمد، ستكون أمتك ضعيفة، ولن تستطيع"، وكان رد محمد عجيباً: "يا صديقي يا موسى، ومن يجتاز العجائب التي رأيتها إلا الله؟"

وأرى أن تفسير الجملة السابقة على احتمالين:

١ - الله قادر على كل شيء.

٢ - رأيت كثيراً من الأشياء العجيبة - ربما كانت أشياء مرعبة أيضاً - لدرجة أنني لا أريد معاودة الرحلة.

وبينما كان محمد في هذا الموقف يفكر ويتردد سمع صوتاً من قبل الله ينادى: يا محمد، ادعني فأنا قريب أجيب دعوة الداعي".

ومن وجهة نظري، فإن هذه الكلمات يحث فيها الله محمداً على طلب التخفيف. وفي نفس الوقت يقول النص أن فروع سدره المنتهى قد أضاعت. وأنا أفهم ذلك على أنه علامة على وجود الله في ذلك المكان. وعموماً، فإن محمداً قد حصل على تخفيف عشر صلوات دون أن يطلب. لم نسمع ما يدل على أن محمداً انتقل من مكانه، ومع ذلك؛ نقرأ بعد ذلك مباشرة: "وعدت إلى أخي موسى" كما لو كان محمد قد عاد إليه بعد غياب. وموسى يقول له:

"عُدْ إِلَى رَبِّكَ وَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ".

بعد ذلك يذهب محمد ويعود حتى يحصل على تخفيف عدد صلوات اليوم إلى خمس صلوات. ويدعو موسى محمداً أن يعود إلى الله مرةً أخرى ليسأله التخفيف لكن محمداً يجيبه: "يا أخى موسى إني أستحي".

نلاحظ أن تخفيف عدد الصلوات قد سار على النحو التالي: ٥٠ - ٤٠ - ٥. وهناك ملاحظة أخرى أنه خلال المفاوضات لم يتحرك من مكانه؛ بل إن الله هو الذى هبط إلى مكانه، وبدون سبب يحدثنا النص عن ذهاب وإياب. فى منتصف النص هناك انقطاع، كما أن هذا النص لا يحدثنا عن مفاوضات بشأن الصيام.

فى المخطوطتين المذكورتين يحدث شيان : محمد بلا حركة يفاوض ربه حول عدد الصلوات اليومية، أما فى موضوع الصيام فإنه يذهب ويعود. هذا الاختلاف لا داعى له ويمكن اعتباره كتناقض.

فى المجموعة الأخرى التى تتكون من أربع مخطوطات ليس هناك حديث عن الصوم؛ وإنما يقتصر الحديث عن عدد الصلوات اليومية وهنا أيضاً نلاحظ بعض التناقض لأن محمداً يحصل على تخفيف دون أن يتحرك بينما هو بعد ذلك يروح ويجىء بين الله وموسى لكى يحصل على تخفيف.

إن حل هذه المشكلات نجده فى المخطوطة العربية Marsh S 18. يبدأ النص عندما يتهاى محمد للنزول "ثم هممتُ بالنزول من عند ربى".

يخبره الله بالفروض، ويُعلن محمد استعداده لقبولها. يفرض عليه الله خمسين صلاةً يومية. بعد ذلك يقول النص بوضوح فنزلتُ بذلك... حتى مررتُ بموسى".

فى هذا النص ليس هناك حديث عن سدة المنتهى. يخبر محمد موسى بأمر الصلوات التى فرضها الله عليه وعلى أمته فيقول موسى فى الحال: "ارجع إلى

ربك (كذا) أن يخفف عنك وعن أمتك". إن النص واضح منذ البداية. يعود محمد بجسده إلى موسى الذي كان قد تعرف عليه منذ قليل في السماء السادسة .

سمعنا أن موسى أعاد محمدًا إلى الله. يعود محمد: "فرجعت إلى ربي فحطّ عني عشرًا، وفرض عليّ وعلى أمتي أربعين؛ ثم رجعت إلى موسى فأخبرته".

في هذه الرواية نجد أن كل شيء محكم البناء. عندما يصعد محمد إلى السماوات يجد موسى في السماء السادسة بعد ذلك يواصل محمد صعوده. يصل إلى أمام العرش ويحدث ربه. بعد الحديث، وعندما يتهيأ محمد للانصراف يفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاةً يومية. يعود محمد إلى حيث كان موسى الذي يسأله عما حدث، ويقول له إن أمته ضعيفة بحيث لا تستطيع تأدية ٥٠ صلاة يومية. لهذا يطلب من محمد أن يعود إلى ربه. يعود محمد إلى الله ثم إلى موسى ثم إلى الله وفي كل مرة يخفف الله عدد الصلوات. في هذا النص يسير التخفيف على النحو التالي: ٥٠ - ٤٠ - ٣٠ - ٥.

هذا التخفيف الذي يأتي بعد مفاوضات يذكرنا بمفاوضات أخرى نجدها في العهد القديم عندما يجادل إبراهيم الله لإنقاذ مدينة سيدون. تُنقذ المدينة إذا وجد الله فيها ٥٠ رجلًا صالحًا ثم يخفف العدد كالتالي: ٤٥ - ٤٠ - ٣٠ - ٢٠ - ١٠.

في النص العربي لا يذكر موضوع الصيام ورواية النص العربي منسجمة ولا يوجد فيها تناقض. تبقى قضية وجود الصوم في المخطوطات الأخمينية. من الممكن أن يتعلق الأمر بإضافات لاحقة. أعتقد أنني قد وضحت بذلك كيف أن غموض المخطوطات الأخمينية يمكن علاجه بالرجوع إلى النصوص العربية.

الهوامش

١ انظر :

Ediciones de traducciones cristiano-occidentales:

Cerulli, Enrico: Il "Libro della Scala" e la questione delle fonti arabo spagnole della Divina Commedia. Citta Vaticana 1949 (Studi e testi 150)

Muñoz Sendino, Jose: La Escala de Mahoma. Trad del arabe al castellano, latín y francés

Mahomet. Die französische Fassung einer alfonsinischeu ubersetzung. Bern. 1968.

Jesús : "El Miagi". Estudio introductorio y edición crítica del ,Pérez Alonso texto castellano del siglo XIII. Tesis Doctoral de la Universidad de Tübingen. Duisburg 1983. ٢

٣ انظر :

Suárez Piñera, Rosario : *Publicación y estudios de los pasajes aljamiados del ms. 1163 de la Biblioteca Nacional de Paris*. Tesis Doctoral. Oviedo 1973.

٤ درست المخطوطات الآتية:

J 9, J 57, T 17 , BNP 1163, BNM 5053, M 518.

شرح المختصرات :

J = Biblioteca de la Junta

T = de la Colección Gayangos (en la Real Academia de la Historia)

BNP = Biblioteca Nacional de Paris

BNM = Biblioteca Nacional de Madrid

M = Marsh. Manuscrito arabe de la Bodleian Library, Oxford.

الكلمة الآن للموريسكيين : أدب الأقلية في عصر النهضة الإسباني

لوثي لوبيث بارالت

إن وجود أدب متعاطف مع المسلمين إبان القرن السادس عشر ومحاكم التفتيش يُعد لغزاً في الأدب الإسباني. كان أمراً متناقضاً أن يظهر المسلم في الأدب بأزياء ثمينة وأسلحة براقعة في الوقت الذي يحظر فيه على المسلم في الحياة الفعلية أن يحافظ على هويته الثقافية. لقد كُتب الكثير حول هذا الموضوع. يقدم مينينديث بلايو^(١) تفسيراً ساذجاً له فيقول إن الشعب المنتصر كان "كريماً" مع المهزومين فجاءت صورتهم في الأدب مثالية. أما جورج سيروت^(٢) فيقتصر على التعبير عن دهشته إزاء البون الشاسع بين "التعاطف مع المسلم" في الأدب وبين ما يحدث في الحقيقة. ويعدل كلاوديو غيين في مقال له المصطلح المذكور، ويقول إن الأدب كان يعرض المآسى التاريخية الموجودة^(٣).

ويبدو أن الدراسات الحديثة حول الموضوع ترجح النظرية التي ترى أن قسطاً كبيراً من الأدب المتعاطف مع المسلمين في عصر النهضة الإسباني هو أدب كتبه منشقون، وتقول ماريا سوليداد كاراسكو^(٤) (*) إن صورة المسلم المثالي في الأدب هدفها تعظيم الشعب المضطهد، وتشجع روح التسامح والانسجام بين المسيحية الرسمية والموريسكيين. لنتذكر أن كلاً من "الحروب الأهلية في غرناطة" و"ابن سراج" مهداتان إلى سادة للموريسكيين معروفين بدفاعهم عن قضايا رعاياهم: بارون باربوليس، ودوق الإمارة. ويسير جيمس ت. مونرو^(٥) في نفس الاتجاه - مستنداً إلى دراسات داريو كابانيلاس^(٦) - ويقدم تفسيراً لكتاب "التاريخ الحقيقي للملك رودريغو" الذي ينتقص فيه ميغيل دي لونا من شأن الملك القوطي

(*) انظر كتابها المترجم إلى العربية "مسلم غرناطة في الآداب الأوروبية"، ترجمة شيرين الرفاعي، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٥.

وينسب إلى عرب الأندلس ماضيًا عريقًا. ويقول مونرو إن الهدف من ذلك كله هو إثبات أن التعايش بين المسلمين والمسيحيين ممكن في إطار الفضيلة وتسامح الطرفين. ويذهب جورج شبلي^(٧) إلى أبعد مدى حين يقول إن إيجاد ابن الرئيس كشخصية تنتسب إلى بنى سراج يعتبر شكوى ضد إهانة الأسر العربية واليهودية ذات النسب في إسبانيا؛ هذه الإهانة قد جعلت دورهم هامشيًا في الحياة الإسبانية.

هذا الاتجاه الذي يرى في الأدب المتعاطف مع المسلمين أدب مقاومة تتوجّه دراسات لفرانثيسكو ماركيث بيانويبا^(٨) وبعضها لم يُنشر بعد. وعلى إثر هذه الدراسات لم يعد الأدب الموريسكي أدبًا "بريئًا". إن التعارض الظاهر بين الجمال اللغوي والواقع نرى له تفسيرًا في دراسات بيانويبا: إن تشدد السلطات المسيحية هو الذي أدى إلى وجود ذلك الأدب المتعاطف مع المسلمين الذي ينم عن احتجاج مستمر. ومن الطبيعي أن يحدثنا ذلك الأدب بين السطور - إنها نصوص كُتبت تحت رقابة محاكم التفتيش - ويجب أن نقرأها بنفس الوعي الذي نقرأ به أدب المنشقين في العصر الذهبي ابتداءً من "القوادة" إلى "قزمان الفراتشي". إن ميغيل دي لونا ليس معنوها كما يظن مينينديث بيدال؛ بل هو ثائر مسلم يواجه أسطورة القوطي بصورة المسلم ويقدم خيار إسبانيا التي كانت تحكمها الإنسانية في ظل التسامح الديني عند المسلمين "إن أعمالاً أدبية أخرى كتبت "للتسلية" مثل رواية "ابن سراج" تعتبر دعوة إلى التسامح الديني.

لكن هذا الأدب المتعاطف مع المسلمين الذي اشتهر في أوروبا وأمريكا كان له ما يقابله: إنه الأدب الألكميايدو الموريسكي الذي كتبه المسلمون في الخفاء خلال القرن السادس عشر. لقد نشر كتاب الأدب الألكميايدو الدعوة الإسلامية بين أقرانهم من الجماعة المضطهدة، وكتبوا أدبًا بلغة قشتالية تتخللها ألفاظ أراغونية وبأحرف عربية. إن النصوص الألكميايدية هي النقيض لذلك المسلم المثالي الذي يظهر في

(٧) انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى"، ترجمة: عائشة سويلم، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المترجم)

الأدب، فهي تعكس بوضوح الوضع التاريخي الذي أدى إلى نشأتها. إن الكلمة - في النهاية - مع هذا الشعب المقاتل. إنه لشيء رائع أن نستمع إلى أولئك المسلمين وهم يعرضون وجهة نظرهم حول إسبانيا خلال العصر الذهبي. إننا نهدف في مثل هذه الدراسة بالتحديد إلى مقابلة الأدب "شبه الرسمي" بأدب التمرد. إن هذين النوعين يتعارضان أحياناً، ويتكاملان أحياناً أخرى. يتعارضان لأن مؤلفي الأدب المتعاطف مع المسلمين هم متعاطفون مع الموريسكيين، وقد كتبوا أدبهم تحت رقابة محاكم التفتيش؛ أما الأدب الألخميادو فهو أدب وثائقي كتبه ثوار متعصبون تحدثوا عن وضعهم بحرية كاملة. كان مؤلفو الأدب المتعاطف مع المسلمين من الأدباء المثقفين؛ أما مؤلفو الأدب الألخميادو فهم من عامة الشعب. ومن ناحية أخرى، فإن هذين النوعين الأدبيين هما وجهان لعملة واحدة. إننا نعتقد أن الأدب المتعاطف مع المسلمين لم يكن عديم الفائدة لأنه كان تتويجاً للمقاومة الجماعية التي عبر عنها الأدب الألخميادو.

لنتأمل كيفية تفسير الأدب المتعاطف مع المسلمين والأدب الألخميادو: إن الرقعة التي تعرضها النصوص الأولى تعارضها مؤلفات تتحدث عن أوضاع بائسة؛ هذه المؤلفات لا تحدثنا عن فرسان مسلمين يبارزون برشاقة في غوطة غرناطة؛ بل تحدثنا عن ثوار لهم خطرهم: زعماء التمرد السريين، ويصف لنا فتى أريبالو - وهو من أبرز مؤلفي الأدب الألخميادو - أحد اجتماعات المسلمين في سرقسطة. إننا نشهد غضب وإحباط أولئك الموريسكيين الذين يناقشون كيفية مواجهة الأوضاع الناتجة عن حظر ممارسة الإسلام رسمياً. إننا لم نكن قد رأينا من قبل مسلمين بائسين في الأدب المتعاطف مع المسلمين؛ أما في "التفسير"^(*) فهناك من ينادي بأن ينقذ كل إنسان نفسه كما تشير ماريا تيريسا نارباييث^(٨):

(*) تشير المؤلفة إلى كتاب "التفسير" الذي وضعه فتى أريبالو. (المترجم)

وبدأ المسلمون المجتمعون في مناقشة همومنا... وكان هناك من يقول إن خسارتنا كبيرة، وإن مجهودنا فائدته قليلة. وقال عالم آخر إن الجهود التي بذلناها سيكون لها أجر عظيم، وقد رفضوا كلامه قائلين إنه إذا فقد العمود الرئيسي وهو النداء للصلاة فالعمل لا خير فيه...^(٩).

إن موريسكيي الأدب الألخميادو لا يشتركون في الملاحم المجيدة وليست لهم أسماء رنانة كما يحدث في الأدب المتعاطف مع المسلمين. إن أسماءهم سرية، وغالبًا لا يحملون سوى مجرد ألقاب [فتى أريبالو، مسلمة أوبيدا، محمد الكاتب] كما لو أن أبطال ذلك الأدب السري لا يريدون أن يعلموننا بآخر إشارة عن هويتهم المتنازع عليها، وأحيانًا تكون أسماؤهم مزدوجة الدلالة أو مزدوجة الهوية كأصحابها (على سارمينتو، نوثيتا كالديرون، يوسف بنيغاس).

ربما كان من أهم ملامح الأدب المتعاطف مع المسلمين هو زى الشخصيات المسلمة. إن هذا الوصف يسبقه الأدب الشعبي، وقد رأينا ذلك في رواية "ابن سراج" و"أوثمين ودراجة" وفي الجزء الأول من رواية "الحروب الأهلية في غرناطة"، وكانت الأزياء الموريسكية هي ذروة التمسك بالهوية، ولما منعها القانون قدمت الاحتجاجات في الحال. إن عرض الفارس المسلم نونيث مولاي على سبيل المثال يدافع عن ذلك اللباس كزى تقليدي لا يدل في حد ذاته على ممارسة دين بعينه. ولنتذكر أيضًا أن زعماء ثورة البشرات قاموا بمحاولة للرجوع إلى الزى الإسلامي.

وقد أدرك خينيس بيريث دي إيتا التذمر الذي سببه حظر ذلك الزى المميز للشخصية الموريسكية. إن كل الملابس التي يرتديها المسلمون القريبون من البلاط في روايته، كل تلك الملابس قد "قصّها خياط ماهر". إن المؤلف يبدو لنا هنا على دراية بخياطة الملابس:

كان جسده مغطى بشكل جيد. كان يضع رداءً رقيقاً فوق صديرية الأسلحة وفوق الرداء درع رقيق مبطن بقطيفة خضراء، وعليه رداء من نفس القطيفة مشغول بالذهب^(١٠).

وفي مقابلة "عرض الأزياء" الذي يقدمه لنا بيريث دي إيتا سنجد أن الموريسكيين في النصوص الأخمياوية قد جردوا من أزيائهم. ويتوقف فتى أريبالو عند استعمال الزى في أحد فصول كتابه عن "التفسير". الفصل بعنوان "العقيدة والعادات الحميدة" وقد درست ماريا تريسا نارباييث هذا الفصل^(١١). ويؤكد لنا هذا الفصل أن الموريسكيين لم يكن لديهم ملابس تكفى إلا لستر أجسادهم إذ أن فتى أريبالو كان مهتماً بأن يغطي المسلمون أجسادهم بحياء "ألا يكشف أحد عورته أو جسده فهذا منكر وإثم" وعلى المرأة أن تخرج وقد غطت جسدها [في الأدب المتعاطف مع المسلمين لا تبدو المرأة المسلمة على هذه الصورة مطلقاً] وألا يكون زيها ملتصقاً بجسدها أو يكشف ما تحته. إن رفقاء المؤلف في المأساة كانوا على غير دراية بتطور الأزياء لدرجة أنه ينصحهم بعدم جر الملابس على الأرض، وأن تكون ملابس الرجل حتى منتصف الساق. في مقابلة عرض الأزياء الذي يقدمه إيتا يعترض فتى أريبالو على الألوان الملفتة للنظر لكن الأمر الملفت للنظر حقاً هو أن المؤلف - رغبة منه في إنقاذ الكرامة الضائعة لبنى وطنه - ينصح ألا يضع الرجل نعلًا في قدم، وأن تكون القدم الأخرى بلا نعل، وألا يكون النعل في القدم اليمنى من لون وتكون في القدم اليسرى من لون آخر.

ونفس الشيء يحدث بالنسبة للمجوهرات؛ فهي في الأدب المتعاطف مع المسلمين رقيقة ويكثر وصفها، أما في الأدب الأخمياوي فالمجوهرات غير موجودة. إن المجوهرات القليلة التي يأتي وصفها في المخطوطات الأخمياوية قد اكتسبت أهمية في الوقت الحالي. يقول لنا فتى أريبالو في تفسيره إنه تلقى خاتماً وحلية صغيرة من يوسف بنيغاس وابنته بعد أن زارهما في غرناطة. من الواضح أن يوسف بنيغاس قدم الهدية لكي يساعد المؤلف في مهمته كمسلم خفي متجول

يخطط للذهاب إلى مكة. ومع ذلك فإن الولع بالمجوهرات كان كبيراً بين الموريسكيين لدرجة أن مجموعة منهم وصلت إلى تونس عام ١٦٠٩، وكان لباسهم يثير حسد أهل البلاد. إن المؤلف المجهول الذي كتب المخطوطة S.2 المودعة في أرشيف مكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد يقدم لنا شهادة واضحة عن المجوهرات تتضاءل بجانبها تلك المجوهرات التي يرد ذكرها في الأدب المتعاطف مع المسلمين: "كل امرأة تتزين بما تزيد قيمته عما يوجد في المحلات الكبيرة. إن أقل امرأة تتزين بأكثر مما تتزين به ملكات هذه الأرض قبل قدومنا". هذا العرض للثروة قد دفع القادمون الجدد ثمناً باهظاً له كما يؤكد المؤلف.

وكان الذوق في المعاملة مثاليًا في الأدب الموريسكى الإسباني، وفي رواية "عثمان ودراجة" يشك رودريغو أن البستاني عثمان كان من طبقة النبلاء لأن نوقه في المعاملة وطريقة حديثه يدلان على ذلك، وفي رواية "ابن سراج" يحكى ابن سراج هذا للقائد المسيحي عن مأساته إذ أسر في الوقت الذي كان متوجهاً للقاء محبوبته، ويفرج عنه القائد المسيحي لمدة ثلاثة أيام لكي يتمكن من الوفاء بالعهد ويعود ابن سراج في المدة المحددة ومعه شريفة.

وهناك أثر لذلك في النصوص الألفيائية ويهتم فتى أريبالو بأن يحافظ الموريسكيون على حد أدنى من الذوق واللفظ. إن ذلك المسلم المتخفى يهتم حتى بالعطس "من يعطس عليه أن يقول: الحمد لله، ومن سمعه فليقل: يرحمك الله"، ويذكر أيضاً أن المصافحة صدقة، وأن المسلم عندما يستيقظ يجب أن يلقي التحية على رفاقه فيسلم أولاً على أبويه ثم على الكبار ثم على إخوته. وإذا التقى شخصان في الشارع يجب أن يلقي الموريسكى التحية على العالم أو على كبير السن، وأن يُسلم الماشى على الراكب^(٩).

(٩) هكذا وردت في النص الإسباني، والأصل : أن يسلم الراكب على الماشى. (المترجم)

ويهتم كتاب "التفسير" بالضيافة. "من يذهب إلى بيتك فأكرمه. يجب أن تبسط وجهك لمن يزورك في بيتك" وتقول يتريسا نارباييث إن بذور الشك بدأت تغير الحياة الاجتماعية للموريسكيين. وينادي فتى أريبالو بأن يطرق المسلم الباب ثلاثاً لطلب إذن صاحب البيت قبل الدخول، وبعد الدخول لا يجب أن يتباعد الضيوف عن بعضهم حتى لا يثيروا الشكوك.

ربما كان الأمر الغريب حقاً هو أن المؤلف ينصح القراء "بعدم النظر إلى ألعاب الرماح، ولا الجرى وراء الثيران والجياد". إن ألعاب الفروسية التي كانت مثار إعجاب مؤلفي "الحروب الأهلية في غرناطة" و"ابن سراج" و"أوثمين" يحل محلها هنا تكشف فتى أريبالو.

وموضوع اللغة موجود هنا. من الطبيعي أن يكتب مؤلفو الأدب المتعاطف مع المسلمين رواياتهم بالإسبانية لتعزיד فكرة الاستيعاب الثقافي بشكل سلمي. إن أوثمين يتحدث الإسبانية "كما لو أنه ولد في قشتالة"^(١٢) ولا يتحدث العربية إلا سراً مع دراجة في الحديقة. ولا تكاد توجد كلمة مدح واحدة للغة العربية في هذا الأدب شبه الرسمي. إن ميغيل دي لونا يمجّد لغة القرآن ويترجم في هامش الصفحات الكلمات العربية الموجودة في النص "الأصلي" لطريف ابن طريف. وكان ذلك - كما يشير ماركيث بيانوييا - مدحاً قاصراً على الألفاظ اليونانية واللاتينية، ومع ذلك فإن لونا يتحدث إلينا من بين السطور، وعلينا أن ننتظر الأدب الأخمياو لكي نستمع إلى الشكوى باللغة العربية، ولكي نشهد تفجر الكراهية:

ليس هناك مسلم واحد يعرف اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم أو يفهم حقائق الدين ... إلا إذا شُرحت له بلغة غريبة كلغة هؤلاء الكلاب المسيحيين الذين يضطهدوننا أضلهم الله^(١٣).

إن صورة مسلم غرناطة الذي يتهد بحزن على مملكته الضائعة هي الصورة المشهورة في ذلك الأدب المتعاطف مع المسلمين. لكن ذلك الحلم ينتهي

تمامًا في الأدب الأخمياذو الذي يقدم لنا صورة مأساوية للذل والحزن الشديد للذين شعر بهما المسلمون عند تسليم غرناطة.

لنتذكر أن رواية "أوثمين ودراجة" تقدم لنا صورة رائعة للاحترام المتبادل بين النبلاء المسيحيين والنبلاء المسلمين في أواخر سنوات غرناطة الإسلامية. إن إيسابيل الكاثوليكية تقدم الحماية لأسيرتها دراجة وتحتفل بزواجها. وشريفة الجميلة أيضًا تعيش في سجن مريح للغاية في منزل رودريغو دي نارباييث. أما كتاب "التفسير" فهو يقلب كل تلك الأوضاع ويقدم لنا رؤية مختلفة عن المعاملة التي تعرض لها نبلاء غرناطة على يد المسيحيين. إن يوسى بنيغاس وعلى سارمينتو ومسلمة أوبيدا يكررون الشكوى في كتاب فتى أريبالو. لقد بيعت نبيلات غرناطة كإماء عند سقوط المدينة. ويوسى يحيط المؤلف علمًا فيقول له: "لا تشك في كلامي... لقد رأيت بعيني كل النبيلات وهن يُعرضن للبيع... وقد كانت غرناطة زهرة النبلاء" (١٤).

في الجزء الأول من رواية "الحروب الأهلية في غرناطة" هناك مكان مناسب يمدح فيه موسى فيرناندو الكاثوليكي لحظة الاستيلاء على غرناطة "انظر إلى الرأفة والرحمة اللتين عامل بهما الملك فيرناندو كل أبناء المملكة حيث تركهم يعيشون بحرية في بيوتهم ويلبسون أزياءهم ويتحدثون لغتهم ويطبقون شريعة محمد". من الواضح أن المؤلف قد كتب هذه الكلمات حين كان فيرناندو قد خان تعهداته الواردة في اتفاقية التسليم؛ وعليه فإننا يجب أن نقرأ النص كخيال في الماضي أو كإدانة للخيانة. أما النصوص الأخمياذية فهي تصيب هدفها بشكل مباشر. إن يوسى بنيغاس يتحدث إلى فيرناندو بكلمات تنبأ بالمستقبل "إذا كان الملك لا يفي بتعهداته فماذا نتوقع ممن يأتي بعده" (١٥).

إن مسلم غرناطة في الأدب الرسمي لا يأمل في عودة الإسلام إلى وطنه الضائع، أما في الأدب الأخمياذو فهناك شخصيات كثيرة مثل على سارمينتو تشارك القارئ آماله "لا قدر الله أن ينتهي الغرناطيون على يد أعدائهم؛ بل أن يعيد

بناء مساجدهم لكي ينتشر دين الحق وهو الإسلام^(١٦). ومن ناحية أخرى فإن زفرات مسلمة أوبيدا على ضياع نسخ القرآن والكتب الإسلامية نجدها في كتاب "التفسير": "لقد رأيت الكتاب الكريم في يد شخص يمزقه، كان ذلك وأنا طفل، وأتذكر ذلك وأنا كبير بحزن".

ومن ناحية أخرى؛ فإن التصير لا يتحدث عنه الأدب المتعاطف مع المسلمين. إن تصير عثمان ودراجة يتم برقة غير متوقعة. لا شك في أن ذلك يعزى إلى الرقابة الخاضعة لمحاكم التفتيش. أما المسلمون في النصوص الأخمياوية فهم متمسكون بدينهم، وهذا ما يؤكد لنا لاجئ تونس المجهول. إننا إزاء نص له أهمية قصوى في إطار العصر الذهبي للأدب الإسباني. أخيراً يقوم ضحية من ضحايا محاكم التفتيش بإبداء رأيه حول هذه المؤسسة التي لا وجود لها في الأدب المتعاطف مع المسلمين. إن موقف لاجئ تونس يناقض تماماً موقف عثمان:

الحمد لله الذي أخرجنا من بين أولئك الملحدين؛ فقد كان من الضروري أن نتظاهر بما يريدون لأن من لا يفعل ذلك يقدمونه إلى محاكم التفتيش التي كنا نفقد فيها حياتنا بسبب التمسك بالحقيقة... لقد كنا في سجن مظلم أسود مثل طوبيتهم حيث كانوا يتركوننا لعدة سنوات نفقد فيها أموالنا وبالإضافة إلى ذلك كان هناك من يرى قتلنا جميعاً. وكان هناك من يرى إشعال النار في جزء من جسدنا حتى لا نستطيع الإنجاب.

ومع ذلك فإن الأدب الأخمياوي في بعض الأحيان لا يتعارض بشكل واضح مع الأدب المتعاطف مع المسلمين. لقد رأينا أن أحد الأهداف "السرية" لهذا الأدب كان تدعيم التسامح ودمج الموريسكي في المجتمع. ونرى أن أحد ملامح الأدب الأخمياوي هي الإشارة إلى هذه الفكرة. إن باراي دي رمينو يحدثنا في "المختصر" عن صداقته لراهب يدعى استييان مارتيل تعاطف مع موريسكي أراغون عندما صدر بشأنهم قرار التعميد الإجباري. لقد جلس باراي والراهب إلى مائدة واحدة

وبكيا معاً، ويؤكد المؤلف أن صديقه لم يتوقف أبداً عن الدفاع عن الموريسكيين أمام السلطات المسيحية. ويقول فتى أريبالو إن التعايش مع غير المسلم شعيرة لا يجب أن تُلغى إلا في حالات الضرورة القصوى "يجب ألا تُلحق الأذى بمتع المسيحيين...".

ولم يكن فتى أريبالو بمنأى عن الشعور بالمساواة الاجتماعية الذي كان يشغل تفكير مؤلفي الأدب المتعاطف مع المسلمين. يقول لنا في كتاب "التفسير" إن اليهود كانوا يتزوجون من عبيد حصلوا على حريتهم... وإن المسلمين يتزوجون من العبيد أيضاً نظراً لوجود مبدأ المساواة لديهم "إذا كان المسلمون قد فعلوا ذلك فقد فعلوه بطريق العدل لأن المسلمين لا يتفاضلون بينهم أمام القانون وفي الضرائب كلهم متساوون"^(١٧). وفتى أريبالو يحلم أيضاً كما يحلم مؤلفو الأدب المتعاطف مع المسلمين: يحلم بأن يكون البشر متساوين أمام الله.

بهذا ننهي مقابلة نصوص الأدب المتعاطف مع المسلمين ونصوص الأدب الألخميادو، وتبين لنا أن مثالية النصوص الرسمية تعارضها النصوص التي كتبها المسلمون، وكان لهذا التعارض أسبابه؛ فقد كان الأدب المتعاطف مع المسلمين يعبر عن أمانى، بينما عبر الموريسكيون عن مأساتهم بحرية. لهذا فإننى أرى أن هذه النصوص جميعها تتكامل فيما بينها: إن كلاً منها يهاجم اضطهاد المسلمين، وهذا يتضح من خلال الدعوة إلى التعايش والمساواة الاجتماعية.

الهوامش

- ١- انظر كتابه *Origen de la novela*, CSIC, Santander, 1943.
- ٢- انظر مقاله "La maurophilie literaire en Espagne au XVI, siecle", Bulletin Hispanique XL (1938), XLI (1939), XLII (1940), XLIII (1941), XLIV (1942), XLVI (1944).
- ٣- انظر مقاله "Literature as Historical Cotradiction: El Abencerraje, the Moorish Novel and the Eclogue "en Literature as System, Princeton University Press, 1971, p.178.
- ٤- انظر كتابها *El moro de Granada en la literatura (del siglo XV)*, Revista de Occidente, Madrid, 1956
The Moorish Novel: el Abencerraje and Pérez de Hita, Twayne Publishers, Boson, 1976
- ٥- انظر كتابه *Islam and the Arabs in Spanish Scholarship*, E.J.Brill, Leiden, 1970.
- ٦- انظر كتابه *El morisco granadino Alonso del Castillo*, Patronato de la Alhambra, Granada, 1965
- ٧- انظر مقاله "La obra literaria como monumento histórico: el caso de El Abencerraje", Vournal of Hispanic Philology II (978).
- ٨- انظر رسالة الماجستير التي قدمتها في جامعة بويرتو ريكو في أبريل ١٩٨٣ بعنوان:
En defensa del Mancebo de Arévalo.
- ٩- انظر كتاب خوليان ريبييرا واسين بلاثيوس:
Manuscritos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta, Centro de Estudios Históricos, Madrid, 1912.
- ١٠- انظر كتاب *Guerras civiles de Granada*, Madrid, 1913
- ١١- انظر رسالة الماجستير المشار إليها، وكذا مقالها:
"Preceptos para la vida cotidiana: ética , moral y buenas costumbres en un capítulo de la Tafcira del Mancebo de Arévalo",
في كتاب تكريم غالميس دي فوينتيس، مدريد.
- ١٢- انظر رواية *Guzmán de Alfarache*, de Mateo, Cátedra, Madrid, 1979

- ١٣- انظر - Jorge Tickner. *Historia de la literatura española*, Madrid, 1881 - 1885
- ١٤- انظر مقال لوبيث بارالت وماريا تريسا ناربايث :
"Estudio sobre la espiritualidad popular en la literatura aljamiado morisca",
Revista de Dialectología y Tradiciones Populares XXXVI (1981).
- ١٥- انظر مقال L.P.Harvey "Yuse Benegas. Un moro noble en Granada bajo los
Reyes Católicos", Al Andalus XXI (1956).
- ١٦- انظر مقال L.P.Harvey "Un manuscrito aljamiado en la Biblioteca de la
Universidad de Cambridge", Al Andalus XXIII (1958).
- ١٧- هذه الفقرة والفقرة السابقة مستخرجتان من دراسات ماريا تريسا ناربايث المشار إليها.

القسم الثالث
دراسات موريسكية
(الجانب التاريخي)

حرب غرناطة كما رآها القشتاليون من خلال مخطوطة لم تنشر بعد

ميغيل أنخيل بونيس إيبارا

كانت حرب غرناطة أحد الأحداث التي شغلت اهتمام الإسبان في القرن السادس عشر، ورغم أن أهل قشتالة خلال عهدي كارلوس الخامس وفيليب الثاني كانوا قد تعودوا سماع أخبار المعارك والجيش الإسبانية في أوروبا فإنهم لم يفكروا في احتمال نشوب حرب داخل حدودهم. لقد قطعت ثورة موريسكي البشرات الهدوء الداخلي وأمن المواطن الإسباني خلال القرن السادس عشر.

وتدل الدراسات التي كتبت عن هذه الثورة – ونذكر منها دراسات ديبغو أورتادو دي مندوثا، ولويس مارمول كاربخال، وخينيس بيريث دي إيتا تدل على قلق رجال القرن السادس عشر^(١). إن العثور على مخطوطة بعنوان " الأحداث المهمة التي وقعت في أراضٍ مسيحية وخاصة إسبانيا"^(٢)، لماتياس إسكوديرو كوبينيا في مكتبة طليطلة العامة يُتيح لي أن أحدد التفكير والشعور اللذين أحدثتهما تلك الحرب التي اندلعت في مملكة غرناطة.

وُلِدَ ماتياس إسكوديرو في فبراير عام ١٥٢٧ في قرية الموناثيد دي ثوريتا الصغيرة (إقليم غوادالاخارا). كان الابن الأكبر لأسرة تتمتع بمكانة اقتصادية بارزة ورثها هو بعد سنوات. ونظرًا لوضعه الاقتصادي والثقافي فقد تولى في حياته مناصب عامة واستشارية^(٣) في بلده الأصلي، ورغم أنه لم يدرس في الجامعة فإنه أمضى قدرًا كبيرًا من وقت فراغه في الكتابة عن أهم الأحداث التي جرت في عصره. إنه يبدأ كتابه بتقديم فكرة عن أن " الإمبراطور كونستانطينو باليولوغو قد فقد مدينته بالشرق عام ١٤٥٣، ويُنهي الكتاب عام ١٥٩٣ قبل سنتين من وفاته. ولقد حدد أنطونيو إيريرو كاسانو شخصية ماتياس إسكوديرو " كرحالة مثقف وعاشق لبلده الأصلي. ترك لنا كتابًا جميلًا لم يُنشر، عنوانه "الأحداث

المهمة"، يظهر فيه بمظهر رجل عهد النهضة. لا يهتمه إبداء السخرية من بعض رجال السلطة والطبقة الأرستقراطية في ذلك العصر. إنه رجل تأثر بلا شك بإيراسمو وآخرين من نوعه، لا يؤمن إلا بما يراه^(٤). نجد أنفسنا إذن أمام واحد من المؤرخين العديدين للأحداث التي جرت في ذلك العصر وهم كثيرون في الأدب الإسباني خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. ترك لنا عملاً ذا هدفين: أن يذكرنا بأن "الأحداث تجري في الدنيا وتتابع، وأن ذاكرتنا ضعيفة فننساها". وأن هدفه كان "استغلال وقت فراغه في كتابة الأحداث المهمة إرضاء لنفسه لمحاولة شغل وقت الفراغ"^(٥).

يتضمن الكتاب ٩٢٤ فصلاً كُتبت بالخط الذي كان سائداً في نهاية القرن السادس عشر وتهدف فصول الكتاب إلى إخبارنا بما حدث خلال تلك الفترة الواقعة بين عامي ١٤٥٣ - ١٥٩٣، ويدور القدر الأكبر من هذه الفصول حول أنباء محلية وأخبار الحروب الإسبانية في أوروبا. وتتضمن حرب غرناطة ٤٢ فصلاً^(٦)، وفي الفصل رقم ٨٠٣ يتحدث عن محاولة موريسكي إشبيلية التمرد عام ١٥٨٠. إن فصول حرب غرناطة ومقدمات التمرد يحكيها بشيء من الإيجاز والوضوح والتكرار. ويشغل كل فصل من صفحة إلى ثلاث صفحات. يحاول المؤلف ربط الفصول ببعضها فيوجز ما حكاها في الفصل السابق مما يترك انطباعاً بالركود. لا يحكى إلا بعض فصول الحرب ولا يذكر إلا بعض أسماء القادة والمعارك التي دارت في البشرات.

ويبدو أن الكتاب كُتب يوماً بيوم إذ نلاحظ تغييرات في رأى المؤلف حول الشخصيات وحول الأحداث التي يرويها. والمصادر التي استعملها لكى يضع كتابه - إذ أنه لم يتواجد في غرناطة مطلقاً - تنقسم إلى صنفين: أ - أخبار رواها له رجال أو جمعها من أحاديث المجالس. ب - بيانات جمعها من قراءة يوميات مؤلفين آخرين أو جمعها من "عرض الأحداث".

ونتيجة لوضعه السياسى، ولمركزه الاجتماعى فقد قام برحلات عديدة إلى مدريد. وكانت هناك فى العاصمة أماكن يتجمع فيها من لا عمل لهم ويعلقون فيها على حياة القصر وعلى الأخبار التى تأتى من مختلف أنحاء الإمبراطورية. وعبر هذه الأماكن كان يتوافد الجنود والنبلاء والرحالة، وكانت تُقرأ الرسائل والأخبار، وكان المجتمعون يحلون تلك الأخبار. وكما يقول المؤلف نفسه فإنه كان يزور تلك الأماكن التى كان الشعب فيها يحل وينقد ويخترع ويبالغ فى الأخبار التى تصل، وفى الفصل المخصص لرواية أسباب ثورة الموريسكيين يقول: "حسب ما وصل إليه علمى، وكما أكد لى كثيرون أنه حدث هكذا".

فى ذلك الوقت بالذات كانت تجوب قشتالة "روايات الأحداث"^(٧)، وكان من الشائع أن تجد فيها أخبارًا عن الموريسكيين^(٨). كانت تلك المطبوعات تغذيها روايات الرحالة والخطابات الشخصية والوثائق الرسمية وحكايات الجنود. وبعض الفصول الخاصة بحروب غرناطة عبارة عن صور من "روايات الأحداث" فى تلك الفترة.

ونتيجة للمصادر التى يستعملها، ولمكان إقامته فإننا نعلم تصور قشتالة لثورة موريسكى غرناطة وأثر تلك الثورة. إنها رواية بسيطة موجزة وهى نتيجة منطقية لكتاب وضعه رجل بعيد تمامًا عن موقع الأحداث. إن "رواية الأحداث الهامة" تقدم لنا صورة لفهم الحرب من وجهة نظر مسيحي قديم، وهى صورة تنطبق على مجمل أهل قشتالة فى تلك الفترة.

وأول إشارة إلى المشكلة الموريسكية والتى يبدأ بها ماتياس إسكوديرو سلسلة طويلة متصلة من الفصول الخاصة بحرب غرناطة هى أوامر الملك فيليبي الثانى عام ١٥٦٦. إن الكاتب يعتقد أن الملك قد أصدر تلك الأوامر نظرًا لانقضاء الفترة التى تحددها اتفاقية تسليم غرناطة للوفاء بتلك المطالب^(٩). هذا الوضع يتأزم "لأن موريسكى هذه المملكة رغم أنهم مسيحيون فإنهم يعيشون كمسلمين حقيقيين كما لو كانوا يعيشون فى إفريقيا ولا يحافظون على شعائر واحتفالات الكنيسة

المقدسة" (١٠). والمؤلف - مثل أورتادو دي مندوثا ومارمول دي كارباخال - يشير إلى وجود الفقهاء رغم أن النص لا يذكر هذه التسمية " بعض الموريسكيين يجوبون البشرات في جماعات، يسرقون ويقتلون المسيحيين بل ويأسرون الكثيرين ويرسلونهم إلى الجزائر لبيعهم". ويشير كذلك إلى الاتصالات المستمرة بين موريسكيي غرناطة ومسلمي الجزائر، وكانوا يستضيفونهم في بيوتهم (١١).

ورغم أن كلاً من الملك وماركيز موندوخار ورئيس المحكمة أمروا بنشر الأشخاص المسلحين لحراسة السواحل فإن هذا الإجراء لم يكن مجدياً بسبب الخدمات التي كان السادة يؤدونها إلى الموريسكيين بوصفهم رعاياهم، ولأنهم كانوا يدفعون لهم ضرائب كثيرة (١٢). ولأن الموريسكيين كانوا مسلمين فإنهم كانوا يواجهون عقوبات كبيرة، ورغم شدة العقوبات فإنهم جميعاً كانوا مصرين وعنيدين (١٣).

وقد حدث التمرد بسبب الغضب الناتج عن نشر القرار، ولأن رجال الكنيسة والقانون كانوا يتعجلون أن يكون الموريسكيون مسيحيين حقيقة، وأن يعيشوا كمسيحيين. ولما رفض هؤلاء القرار " فإنهم كانوا ثائرين ومصممين على عدم تنفيذ أوامر الملك، وهكذا تشكلت منهم فرق، وسببوا الأذى للمسيحيين" (١٤) وحسب رأى ماتياس إسكوديرو فإن حرب غرناطة هي مواجهة بين مسيحيين ومسلمين، إذ إن تعمد الموريسكيين كان أمراً شكلياً حيث لم يحدث فيهم أي تغيير.

فيرناندو دي بالور هو الشخص الذي حرك الموريسكيين (١٥)، وبالنسبة لعقوبة الشعب فإن وجود متسبب هو أمر يفوق أي شيء " إيرناندو بنيغاس كان موريسكياً وينحدر من نسل ملوك غرناطة، وقد تفضل عليه الملك فجعله نائباً عن غرناطة، وهكذا كان يحضر السلاح كأي فارس، وقد صدر الحاجب سلاحه لسبب منطقي،

وطلب إيرناندو^(*) سلاحه فلم يستجب لطلبه فاعتبرها إهانة في حقه، وحاول أن يثار لذلك من الملك ومن وزرائه^(١٦).

بهذه الفقرة يبدأ ذكر فيرناندو دي بالور في الرواية، ويرى ماتياس إسكوديرو أن ذلك هو الشخص الرئيسي؛ بل والبطل الوحيد من الجانب الموريسكى إذ تُنسب إليه الأوامر، وهو الذي جمع الموريسكيين على الثورة ضد فيليبي الثاني، وخلال زيارته إلى البشرات جمع الناس حول قضية كان يهتم بها أهل غرناطة. ويبدو أن هذه الفكرة كانت منتشرة بين الناس "وفقاً لمعلوماتي، وكما أكد لي الكثيرون".

وقد اجتمع ابن أمية بأصدقائه وأقاربه في البيازين "حيث يعيش الموريسكيون في المدينة بعيداً عن المسيحيين، وكان في البيازين ثمانية عشر أو عشرون ألف بيت للموريسكيين من بينهم أغنياء"^(١٧)، وكان فيرناندو دي بالور - يحركه الغضب الناتج عن حادثة مصادرة سلاحه - يقنع الناس بضرورة الثورة لإثبات أهميتهم "وحتى لا يكونوا خاضعين للملك فيليبي ولا لوزرائه". وقد أعدّ خطة للسيطرة على المدينة والمملكة، فقد أغضبهم أن يحرمهم الملك من لغتهم وزيهم. لم يكن الموريسكيون الأثرياء على استعداد لخطة الثورة^(١٨)؛ فقد كان من المحتمل أن تفشل وأن يفقدوا لذلك ثرواتهم. إنهم ينضمون فقط إذا انضم كل أهل المملكة إلى فيرناندو، وكان هو يريد الذهاب إلى البشرات للتحدث مع الموريسكيين ومعرفة رغبتهم، وهكذا ذهب بنيغاس إلى البشرات وتحدث مع الموريسكيين وشرح لهم كيف أن الملك فيليبي يريد أن يجعلهم مسيحيين، وأن يحرمهم من اللغة العربية ومن زى المسلمين ومن أسلحتهم. ولما كانت لهم رغبة في الحرية، ونتيجة لإغراءات إيرناندو لهم فقد اجتمعوا هناك وعقدوا اتفاقهم^(١٩).

(*) يرد اسم الزعيم الموريسكى بالصيغتين المذكورتين، وقد التزمنا بالنص الإسباني. (المترجم)

وقام فيرناندو نفسه بإرسال سفارة إلى كل من الجزائر وفاس لطلب المساعدة للقيام بالثورة، وبدأ في إعداد السلاح وكل ما هو ضروري للحرب^(٢٠). إن نشاط ابن أمية الفعال ومساعدة مسلمي الجزائر قد أديا إلى انضمام المسيحيين الجدد إلى الثورة، وقد رأى مسلمو الجزائر أن مواجهة الإسبان وفيليبى الثانى عملية صعبة لكنهم أرسلوا ما طلبه الثوار.

يرى ماتياس إسكوديرو أن اختيار فيرناندو دى بالور كرئيس للموريسكيين كان اختياراً آلياً، فهو الذى بدأ الثورة: "كلهم كانوا يطيعون السيد إيرناندو كسيد وملك، وكلهم كانوا يعتبرونه ملكاً لغرناطة"^(٢١).

قاد فيرناندو دى بالور الموريسكيين إلى الحرب بسبب حادثة مصادرة سلاحه ولأن المسيحيين الجدد من البشرات كانوا قد وعدوه بتنصيبه ملكاً على غرناطة، وأول أمر أصدره هو ممارسة شعائر "طائفة" محمد، وقد عين رؤساء وأرسلهم إلى البشرات، وكان الاستيلاء على مدينة غرناطة فى ليلة عيد ميلاد عام ١٥٦٨ من عمل موريسكيى البشرات الذين ساعدتهم أهل البيازين. ولما جاءه الرد من ملكى الجزائر وفاس^(٢٢) أصدر أمراً بأن يقوم ستة أو سبعة آلاف مسلم من خيرة من يجيدون الإسبانية بالدخول إلى مدينة غرناطة فى الواحدة أو الثانية فجراً. كانت الخطة تقضى بأن يتجمع ثلاثة آلاف فى ميدان بيارامبلا، وألفان فى الميدان الجديد، وألفان فى قلعة بيباتاوبين (باب التوابين؟)، وألفان فى حقل الأمير، وخمسمائة فى المحكمة، وخمسمائة فى بيت الرئيس، وخمسمائة فى بيت أسقف غرناطة، وخمسمائة فى مقر محكمة التفتيش، وكان على كل خمسمائة أن يذهبوا إلى دير وإلى الأماكن الرئيسية^(٢٣). كان عليهم أن يدخلوا ليلاً "عندما يكون المسيحيون فى الكنائس، وأن يدخلوا المدينة بحيث يكون كل خمسمائة فى مجموعة، وأن يقتلوا المسيحيين، وأن يسير آخرون فى الشوارع ويصيحون "المسلمون... المسلمون" حتى يخرج المسيحيون فيقتلونهم بسهولة^(٢٤)، وأن يذهب آخرون إلى البيازين حتى يفعل السكان هناك نفس الشيء".

بالنسبة للموريسكيين الذين كانوا يريدون احتلال غرناطة كان لابد من قتل ماركيز موندوخار حتى يمكن دخول قصر الحمراء. ورواية ماتياس إسكوديرو عن خطة قتل موندوخار تفيدنا عن أهمية النبلاء في النص "إن الله المعبود قد جعل الماركيز مشغولا بأعمال بحيث لم يتمكن من الذهاب، وهكذا أنقذ من الغدر والشرور" كان ماركيز موندوخار هو ممثل السلطة في غرناطة ؛ ولهذا يشير المؤلف إلى شخصيته وإلى مركزه. إن الموريسكيين في الفصول الأولى من "الرواية" يخشونه، ويرون أنه طالما بقي على قيد الحياة فإن الاستيلاء على القلعة أمر مستحيل".

وقد فشلت خطة الموريسكيين لاحتلال المدينة لأن الموريسكيين كانوا قد قرروا دخول المدينة لإراقة دماء الأبرياء ولارتكاب السرقة والشرور، ولتعطيل أوامر العبادة التي أقرها ربنا، ولما نظر الرب إلى المسيحيين بعين الرحمة ورأى أنهم في خطر فقد أنقذهم بهذه الطريقة في يوم العشاء الأخير، بعد الظهر بدأ نزول الجليد بغزارة بحيث لم يكن من الممكن رؤية الطرق، وكانت الرياح شديدة وباردة^(٢٥)، واهتم كل موريسكي بصحته وبالبحث عن الوقود لكي يتدفأ ونسوا أمر الذهاب لغزو المدينة.

ظن أهل البيازين أن الخطة قد اكتشفها الماركيز، وفضلوا انتظار فرصة أخرى مواتية. خمسمائة مسلم فقط هم الذين دخلوا وحاولوا إثارة أهل البيازين. بعد مفاوضات، وبعد أن أعلموا بأن مسلمي الجزائر وفاس سيأتون للمساعدة قال أهل البيازين: "يا إخوتنا أنتم قليلون، وقد أتيت متأخرين، وماركيز موندوخار قد شعر بنا، وقد طلب منه الملك أن يحتاط منا"^(٢٦).

لو أن الله لم يُفسد خطط الموريسكيين لكانوا قد ارتكبوا في غرناطة المجازر التي ارتكبوها في كنائس البشراة ضد المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك... وهي آثام لم يفعلها بشر من قبل، وكانت تزداد كلما ازداد قدر الأشخاص، وامتنع عن ذكر تلك الآثام لكثرتها ولقسوتها، ويقولون إنهم كانوا يريدون اقتلاع عيون كل

من أسقف غرناطة ورئيس المحكمة وحرقهما، ويريدون فعل الشيء نفسه مع الرهبان^(٢٧). من المهم أن نلاحظ الإشارة إلى أن القسوة تزداد بازدياد أهمية الأشخاص إن الموريسكيين الأغنياء أيضًا لهم معاملة مختلفة ؛ فهم أقل ميلا إلى الثورة لأنهم هم الذين يخشون الخسارة "وحتى لا يخسرون أموالهم وحریتهم فقد حاولوا الهدوء"^(٢٨).

ولما لم يستطع الموريسكيون الثائرون الاستيلاء على غرناطة ؛ فقد قرروا التجمع في مكان يُسمى أُوخيخار، وهاجموا قائد أدرا وأربعين جنديًا كانوا معه وارتكبوا معهم الفظائع. استولوا على أبراج أُوخيخار، وذبحوا كل المسيحيين صغارًا وكبارًا، واقتلعوا عيون القائد والحاجب وحرقوهما أحياء وبينهما خنزير ثم جابوا البشرات يقتلون المسيحيين.

قرر خوان ثاباتا سيد غواخاراس الذي عُرِفَ عنه احترامه لرعاياه زيارتهم حتى لا ينضموا إلى الثوار. وصل إلى القرية ومعه مائة جندي، ورغم أنه تحدث معهم وطلب إليهم عدم الانضمام إلى الثوار فإنهم "كانوا في داخلهم مصممين على تنفيذ عزمهم على الثورة فلم يستمعوا إلى سيدهم الذي نصحهم بما ينفعهم". لجأ المسيحيون إلى الكنيسة، حيث تم إحراقهم أحياء. وخلال الأيام التالية لعيد الميلاد استمر الموريسكيون في تعطشهم لإراقة دماء من يعيشون بينهم لكي يعلموهم الدين "الكاثوليكي المقدس"^(٢٩). ويقدر ماتياس إسكوديرو - استنادًا إلى قراءته لروايات الأحداث - أن الموريسكيين قتلوا ثلاثة آلاف مسيحي قديم في أوائل أيام الثورة ووصلوا إلى حد إخراج الموتى من القبور لارتكاب الفظائع، وبلغ أكبر قدر من الفظائع في الكنائس ضد القساوسة والرهبان.

ولما رأى ماركيز مونديخار حالة الفوضى بسبب دخول أهل البشرات لم يخرج لمطاردة الموريسكيين "لأنه لو كانت هناك خطة للاستيلاء على قصر اتحمراء فسيكون في ذلك إضاعة لمظهره أمام الملك وإهمال لما طلب منه"^(٣٠)

أرسل إلى فيليبى الثانى رسالة حكى له فيها الوضع وطلب المساعدة من مدن أندلوثيا لكى يرسلوا له أكبر عدد من أفضل الرجال.

وفى يناير عام ١٥٦٩ شكّل ماركيز بيليث جيشاً قوامه أربعة آلاف فارس بمجرد علمه بأن الموريسكيين "قد خرجوا عن طاعة الله والملك فيليبى سيدهم وملكهم"^(٣١). ولما رأى الموريسكيون الاستعداد للحرب - ولأنهم كانوا يخشونه - قرروا ذبح كل المسيحيين الأسرى. استولى الماركيز على فيليكس وحرر المسيحيين الذين لم يتسع وقت الموريسكيين لقتلهم، وقتل نصف عدد المسلمين الموجودين فى القرية، أى ألف شخص، وقتل الأطفال والنساء لأنهم كانوا يقذفون الحجارة أثناء المعركة. وفى أول فبراير دخل أندازار Andazar^(٣٢) "ولما كان المسلمون يحاربون بشجاعة ضد الماركيز" فإنه حفّز فرسانه وكسر المسلمين وقتل منهم ألفاً وأسر ألفاً وستمائة وحرر ثلاثين مسيحياً "وعندما حاول المسلمون الدخول فى معركة ضد الماركيز قتلوا ثلاثة وعشرين امرأة مسيحية ذبحنهن نساء المسلمين... وهكذا نرى سوء الطوية عند المسلمين والمسلمات ضد المسيحيين"^(٣٣).

عندما رأى ماركيز موندبخار أن المسيحيين قد خرجوا لقتل الموريسكيين وسرقتهم "منع ذلك ووضع عقوبات كبيرة ضد من يفعله". نظم جيشه وسار نحو تابليتى حيث حرر مائة وستين أسيراً مسيحياً ثم توجه إلى بوكيرا حيث حرر ثلاثمائة طفل وامرأة لم يقتلهم الثوار ومن بينهم زوجة قائد أوبخار التى وضعت وليدها فى الثلج من سوء معاملة المسلمين للمسيحيين". ثم توجه إلى فيريرا، وهاجمه المسلمون ليلاً فى خوبيليس وقتلوا خمسمائة مسيحى. غضب موندبخار لهذا الحادث فاستولى على خوبيليس وقتل كل من فيها من المسلمين وأسر أم الملك وزوجته وأبناءه"، مما سبب حزن الملك الذى فقد أعز من لديه". وفى ١٢ فبراير استولى على حصن غواخاراس حيث^(٣٥) برزت شجاعة لويس دى ليون وخوان سيبيا رويل وأغستين بنيغاس. وقد ترك المسلمون عند هروبهم النساء والأطفال فقتلهم المسيحيون ذبحاً^(٣٦)، ويشيد ماتيئاس إسكوديرو بشجاعة المسيحيين فى

المعركة، وتقتصر رواية المعركة على ذكر عدد الموريسكيين الذين حاربوا المسيحيين وعدد القتلى والأسرى. وقد حرر ماركيز موندخار في حملته ألفاً وخمسمائة من الأسرى المسيحيين وحملهم إلى غرناطة، وقد ساروا في المدينة في موكب ديني يتقدمه راهب سان فرانسيسكو.

ويقدر ماتياس إسكوديرو عدد الموريسكيين الثائرين في البشترات في أوائل شهور الحرب بسبعة وثلاثين ألفاً، وكان الأسطول التركي على وشك الإبحار لمساعدتهم^(٣٧)، وقد خرج من الجزائر أربعون قارباً لتزويدهم بالمؤن.

وفي نهاية فبراير ١٥٦٩ بدأت انشقاقات داخل الجيوش المسيحية "ووصل الأمر إلى تخلى ثلث العدد عن الجيش لأن كل ماركيز كان يستقطع من الجنود الغنائم، ومع الجهد الذي يبذلونه في الحرب ضد المسلمين فإنهم ظلوا في انتظار أن يدفع لهم الملك رواتبهم"^(٣٨).

وكان المسيحيون المقيمون في غرناطة يهاجرون منها خوفاً من سبعة عشر أو ثمانية عشر ألفاً من الموريسكيين في البيازين. "ولما كان الحاكم يرى أن الموريسكيين قد ارتكبوا عملاً ما فإنه كان يعاقبهم بشدة ومع ذلك لم يأمن جانبهم"^(٣٩).

مع وصول مساعدات مسلمي الجزائر والأتراك كان عدد القرى الموريسكية المتمردة يزداد، وكان أهل البيازين - وهم خيرة المسلمين وأغناهم ورؤساؤهم^(٤٠) - يريدون التمرد على مسيحيي المدينة عندما علموا - عن طريق العرافين - أن أنهاراً من الدم ستسيل في البيازين، ولم تُنفذ الخطة^(٤١)، لكنهم تجمعوا. ورغم أنهم استولوا على الشارع إلا أنهم حوصروا بعد أن قتلوا خمسة من المسيحيين وجرحوا ثلاثين. هاجمهم الجنود المسيحيون فهتقوا باسم محمد وماتوا^(٤٢).

بعد ذلك يقص علينا أمر تعيين فرانسيسكو دي كوردوبا ونشاطه^(٤٣) في مدينة المريه، وغزو حصن أنوكس بمساعدة أسطول خيل أندرادا. كان الاستيلاء على

الحصن أمرًا صعبًا بعد " أن صمم الموريسكيون على الموت ولم يبد أي واحد منهم دليلاً على الجبن" (٤٤)، وكانت نتيجة المعركة كالتالي: ألفان وخمسمائة أسير، وثلاثة آلاف ذوقية من الذهب والفضة، وألفا رأس من الأغنام. وبعد فصل نصيب الملك قسم فرانشيسكو الغنائم بين الجنود، ولما علم ماركيز موندixار بالحادث الذي وقع مع فيرناندو أمر بتقسيم الغنائم على أفضل صورة...، ولما علم ماركيز بيليث بما فعله السيد فرانشيسكو ورجاله قال إنه لم يسره ذلك كثيرًا. ولما كان جنود ماركيز موندixار وماركيز بيليث في الجيش يعلمون بطريقة فرانشيسكو الممتازة مع رجاله فقد تركوا الخدمة في الجيوش الملكية وانضموا إلى جيش فرانشيسكو" (٤٥).

ويخصص فصلاً لعرض شكوى الجنود والقادة إلى فيليبي الثاني ضد الماركيز " إن سبب خسائر المسيحيين يرجع إلى أن ماركيز موندixار وماركيز بيليث لم يمكنا القادة والجنود من مواصلة الحرب بحماس ونظام ضد العدو كما ينبغي، وقد أمرا بعدم إساءة معاملة مسلمي مملكة غرناطة لأن كثيراً منهم أصدقاء ورعايا لهما... " (٤٦). ويرى ماتياس إسكوديرو أن عدم انتهاء الحرب يرجع إلى أن المسلمين الثائرين كانوا رعايا للماركيزين، وقد أرسلوا إلى فيليبي الثاني رسالة شرحا فيها الوضع لكن الجنود استمروا في التخلي عن الجيوش الملكية، ولما رأى الموريسكيون وضع المسيحيين أرسلوا إلى السلطان التركي سفارة محملة بالهدايا المسروقة من الكنائس وهجموا على المسيحيين بشراسة وألقوا بهم أضرارا كثيرة.

ولما علم فيليبي الثاني بتطورات الحرب عين خوان دي أوستريا قائداً عاماً في أبريل عام ١٥٦٩ "وفرّح بذلك الجنود والفرسان لأنهم أيقنوا أنه بفضل الرب وبوجود القادة الأكفاء ستنتهي الحرب قريباً" (٤٧) وبمجرد أن وصل خوان دي أوستريا إلى غرناطة أرسل جواسيس إلى البشرا لكي يعلم عدد الموريسكيين الثائرين والمؤمن التي لديهم ومدى صحة وصول باشا تركي إلى غرناطة وأمر

ماركيز بيليث أن يضغط على المسلمين بجنوده وشكل جيوشاً جديدة وعين كل من أنطونيو دي لونا ودوق سيا قائدين لها^(٤٨).

وقد ساعد الحظ الموريسكيين في الحرب، وكانوا على ثقة من الاستيلاء على غرناطة وأندلوثيا كلها. وقد احتل أنطونيو دي لونا البانويلاس في ٢٩ مايو عام ١٥٦٩ وأسر مائة مسلم وجرح ستة آلاف بالقرب من بادول لكنهم لم يلحقوا أضراراً بجيشه^(٤٩).

كان في البيازين سبعة عشر ألف مسلم " ليس من بينهم مسيحيون، وكان بها كنائس يذهب إليها الموريسكيون في الأعياد، والذي لا يذهب كان يُعاقب" هؤلاء الموريسكيون كانوا يمدون الثوار بالمعلومات عن تحركات المسيحيين. وقد أصدر خوان دي أوستريا نداءً في ٢٢ يونيو عام ١٥٦٩ من أجل أن يجتمع الموريسكيون الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ - ٦٠ في مستشفى غرناطة. "وقد فهم الموريسكيون أنهم يريدون جمعهم ليذبحوهم هناك، وهكذا شاع بينهم البكاء والحزن" في هذا الجو المتوتر حاول موريسكي اغتيال خوان دي أوستريا " لكي يثار لموت الموجودين هناك"^(٥٠) وقد أخطأ قطع أحد القادة المسيحيين في رأسه، ولما رأى خوان دي أوستريا خيانة الموريسكي ضربه برمح كان في يده. بدأ المسيحيون في قتل الموريسكيين وهم يصيحون " سانتياغو" حتى هُدم أسقف غرناطة الوضع بقوله إنه لا يقر أن يدفع الأبرياء خطأ الموريسكي. تقرر بقاء أولئك الموريسكيين في غرناطة للقيام على خدمة المسيحيين، وتم ترحيل الباقين إلى أندلوثيا، وقد استقبلوا في المدن والقرى وفي بعض القرى قتلوا الموريسكيين حتى لا يجاوروهم^(٥١).

رأى المالح ملك البشرات ومعه الثوار ترحيل كثير من أصدقائهم ومعاونيهم بحزن كبير ولمعالجة هذا الوضع الناتج عن حرمانهم من عدد كبير من المؤيدين أرسلوا إلى عم فيرناندو دي بالور ستين ألف عملة لكي يشتري أسلحة ومؤن^(٥٢)، ويصف لنا ماتياس إسكوديرو كيف اكتشف الموريسكيون في البشرات مكاناً يصنعون فيه البارود، ويقول المسلمون إن الله منحهم ذلك لكي ينتصروا في الحرب

على المسيحيين " وقد استعملوا هذا البارود عندما حاولوا الاستيلاء على قلعة كوريا. في تلك الموقعة أجبر خمسون جنديًا مسيحيًا ألفًا وخمسمائة مسلم على الفرار " لأن البارود كان سيئًا ولا تبلغ قوته درجة القتل أو الجرح لأن الله أراد ذلك لكي ينصر دينه المقدس" (٥٣).

وفي ٨ يولييه عام ١٥٦٩ تمرد ألفا موريسكى فى غيخار وتوجه مونيخار وجنوده للاستيلاء على المدينة لكنهم عندما وصلوا لم يكن أحد هناك. فى ذلك اليوم تمرد مائتا موقع فى البشرات، وكانت هناك قرى لم تتمرد بعد لأنها فى موقع مسطح وليس بها ما تتحصن فيه، وكانت هناك قرى لم تتمرد خوفًا من قوات خوان دى أوستريا (٥٤) ويُقدر إسكوديرو أنه فى ذلك الوقت كان هناك ثلاثون ألف مسلم متمرد فى البشرات.

ويخصص فصلا كاملا عن موت خوان ثيبيديس دى مولينا أحد قادة جيش أنطونيو دى لونا الملكى. هذه الفقرة يمكن فهمها إذا وضعنا فى الاعتبار وجود الرغبة حينذاك فى قراءة القصص البطولية. كان خوان ثيبيديس رجلا متكبرا يُعجب به رفاقؤه، ومات ومعه مائتان من المشاة واثنان وسبعون فارسًا فى شراك أعداه الموريسكيون. استمرت المعركة ساعتين وأثبت فيها شجاعته وشرفه " ترجل عن فرسه، ونادى على المشاة قائلاً: إخوانى، أريد أن أكون جنديًا مثلكم؛ وبما أننا جميعًا أتينا لعبادة الله والدفاع عن دينه المقدس ولخدمة ملكنا فلنمِت جميعًا" أعجب المسيحيون بذلك فقتلوا خمسمائة مسلم، وبعد أن فقد ثيبيديس ساقه استمر فى المعركة حتى مات مُحاطًا بجثث الأعداء.

لا يكتفى ماتياس إسكوديرو برواية تفاصيل المعركة ؛ بل يقدم تأملاته عنها: "كانت هناك حاجة إلى المؤن والعتاد الحربى والنقود لدفع رواتب الجنود الذين هم عصب الحرب" (٥٥).

وفى ٣ أغسطس قام ستة آلاف مسلم بالهجوم على فرقة قادمة من تروخيو تحمل العتاد ورواتب الجنود، وفى ٦ أغسطس احتل ماركيز بيليث قرية بالور حيث مقر إقامة الملك المسلم، وقد سرّ المسيحيون لذلك، واستمرت المعركة ساعتين وقُتل فيها مائة وخمسون مسيحيًا وستمائة مسلم، وهرب الملك وجنوده.

ويحدد ماتياس إسكوديرو تاريخ ثورة بيليث فى يوم السادس من أغسطس عام ١٥٦٩. وفى الفصل التالى يحكى قصة الحملة والاستيلاء على حصن فريخيليانا فى مارس من نفس العام^(٥٦). فقد وصل ريكينس ومعه أربعة آلاف جندى بناء على طلب من خوان دى أوستريا وانضم إلى قوات مالقة^(٥٧)، وقد مات فى أثناء احتلال الحصن ثلاثمائة جندى، وكانت هناك ثروات عظيمة فى الحصن لم يستطع الجنود أن يحملوها كلها معهم.

ولما استمع الصدر الأعظم إلى الباشا وإلى السفارة الموريسكية وشاهد الرسائل والخرائط التى أرسلها الملك الموريسكى قرر إرسال أحد عشر قاربًا عليها ألفا جندى تركى وأسلحة لكى تصل إلى ميناء غاتا. وقد أنهى السفراء الموريسكيون حديثهم مع الصدر الأعظم بهذه الكلمات: "لا نقول يا سيدى إن وصول أسطولكم إلى إسبانيا سيمكننا من الاستيلاء على مملكة غرناطة؛ بل على أندلوثيا كلها وهى أفضل أرض فى الدنيا" وأحد الأسباب التى جعلت الصدر الأعظم يقرر إرسال الأسطول كان عدد الموريسكيين الكبير فى أندلوثيا وفالنسيا وأراغون.

وقد وصلت أنباء المعونة التركية بسرعة إلى مسامع الإسبان، وقد ألقى القبض على مجموعة تركية جاءت للتأكد من سلامة طريق البحر، واعترف الأتراك بعد تعذيبهم بأنه قد جاءت لمساعدة الموريسكيين فى البشرات سبعة سفن وسفینتان محملتان بالجنود والعتاد، وقد اختبأ المسيحيون خلف جبل فى مضيق ميسينا، وبعد معركة استمرت أربع ساعات مات ١٣٢٥ تركى، وهكذا مُنعت عن

مسلمى البشرات سُبُل النجدة والحماية التى كانوا ينتظرونها من الأتراك والتى لو وصلت لشكلت خطراً على بلاد إسبانيا، فالحمد لله الذى وقانا^(٥٨).

وقد اجتمع النواب الإسبان فى قرطبة وأقروا طلب فيليبى الثانى بإرسال ٤٠ ألف جندى من قشتالة للاشتراك فى حرب غرناطة^(٥٩). بعد ذلك يقص علينا حملات كل من دوق سيسا^(٦٠) وخوان دى أوستريا^(٦١) بعد إقالة ماركيز بيليث لما كان الملك واتسيد خوان لديهما كثير من التحفظات على الماركيز طلب منه أن يذهب إلى بيته ليستريح وقد ساءه ذلك^(٦٢).

سأنقل بالنص الفصل الذى تذكر فيه الرسائل التى بعث بها الموريسكيون والمسيحيون إلى الثوار لإنهاء الحرب وإجابة هؤلاء. فى هذا الفصل ترد على السنة الشخصيات الكبيرة اتهامات لأشخاص يتولون السلطة فى مملكة غرناطة وبعض ذرائع الموريسكيين التى دفعتهم إلى الثورة ضد المسيحيين.

"..... إيرناندو بنيغاس المعروف باسم مولاي عبد الله ابن أبو ملك^(٦٣) البشرات. لما رأى بعض فرسان هذه الممالك كثرة عدد القتلى كل يوم من المسيحيين والمسلمين بالإضافة إلى السرقات التى تحدث، ولما رأوا الأضرار الأخرى التى تحدث من جراء إرسال المقاتلين إلى المدن والقرى بالقوة وبسبب أوامر الملك بإرسال المؤن إلى مملكة غرناطة لأن أهلها مشغولون بالحرب، ولأن المسلمين يحرقون أراضي المسيحيين وهؤلاء يحرقون أراضي المسلمين. لكل هذا قرر الناس أن يكتبوا رسائل إلى الملك إيرناندو بنيغاس، وإلى إيرناندو حبقى قائد جيوشه لإقناعهما ألا يتسببا فى موت كثير من الناس وإلحاق الأضرار، وذكروا أن الملك فيليبى الثانى لديه القدرة على تدمير الجميع فى وقت قليل؛ ولكنه لم يفعل ذلك، وأنه أرسل أخاه خوان دى أوستريا ودوق ثيسار نظراً لعناد الموريسكيين، ولأن خوان دى أوستريا ودوق ثيسار كانا لا يتركان المقاتلين الموريسكيين يستقرون فى بلد ما؛ بل يبحثان عنهم فى السهول والجبال، وأنهما لن يكفا عن المطاردة حتى يقتلاهم أو يحولاهم إلى عبيد وأسرى فى بلاد غريبة. وأن على

القائدين المسلمين أن يبحثا عن المصلحة العامة لشعبهما النائر لا عن مصلحتهما الخاصة. ومن بين من كتب الرسائل أنطونيو بنيغاس ابن عم ملك البشرات الذى كان فى خايين، وقد ردَّ الملك والحبقي أيضًا، وهذه إجابة الملك على رسالة ابن عمه: سيدى استلمت رسالتكم علمت منها حرصكم على مصلحة هذه المملكة وعلى طاعة ملككم كمسيحي مخلص، وهذا ما يدفعكم إلى البحث عن سبل وقف هذه الأضرار التى حدثت للمسيحية، ولهذه المملكة ويدفعكم إلى البحث عن كيفية إقرار السلم فى المملكة. وفيما يتعلق بأنى أضع نفسى فى خطر فإننى أعلم أن الملك فيليبي قوى، ويجب عليكم أن تفهموا أيضًا أننا يمكن أن نُحدث به أضرارًا أكثر مما أحدثنا بالفعل، وكل هذه الأضرار التى حدثت والتى قد تحدث ترجع إلى الملك فيليبي الذى لا يريد علاج الوضع. لا أنتم ولا الملك فيليبي بمقدوركم أن تحملونى ذنب هذه الحروب ؛ بل إن سبب تفجر الوضع أن الملك لم يشأ تصديق الرجال الحريصين على طاعته واستمع إلى القساوسة خاصة رئيس غرناطة فهو رجل لا عهد له بهذه المملكة فسار وراء أحد المرتدين ويدعى أورتكو. هذا وأمثاله هم المذبذبون، ولو أن الملك صدّق من يعرفون هذا البلد مثل ماركيز موندبخار وأنطونيو إنريكيث لما حدث كل هذا الأذى فى المملكة. إنه قد أقال ماركيز موندبخار من السُلطة ومنح السُلطة لرجال فاقدى الحكمة، وهؤلاء أدخلوا تشريعات جديدة لا عهد لأهل هذه المملكة بها ولا يستطيعون الحياة معها، وقد فضل البعض الموت على تحمل الظلم وهذا هو سبب الأضرار التى حدثت وقتل الأبرياء؛ ولهذا فإنه لا أنتم ولا الملك فيليبي تستطيعون أن تحملوا الذنب لأهل غرناطة... وفيما يتعلق بطلبكم أن أرسل رجلين ممن أثق فيهم إلى خايين تحت حمايتكم فإننى أعلم أنكم ستفقدون ذلك لكن هناك من يخالفونكم فى رأى. ولقد كتب إيرناندو باراداس وهو من غواديكس إلى إيرناندو حبقي قائد قواتنا لكى يجتمعا واجتمعا للبحث عن حل يطفى هذه النار، وبعد ذلك اجتمع الحبقي وفرانثيسكو دى كوردوبا وآخرون للبحث عن حل، وقد أحاطنا الحبقي علمًا بذلك إذا أردتم الاجتماع به فأرسل أمان الملك له ولمن يذهب معه من جانبنا، ومن جانبنا فإننا نعطي الأمان لكم ولمن

يأتون معكم... البشرات فى ٣٠ مارس عام ١٥٧٠ توقيع مولاي عبد الله ابن أبو" (٦٤).

ويخلط ماتياس إسكودورو بين ابن أبو وابن أمية. الحبقى هو المكلف بتنفيذ بنود استسلام الموريسكيين لخوان دى أوستريا "رغم أن ملك البشرات بعد ذلك لم ينفذ اتفاق السلام الذى وقعه الحبقى لأنه غير صادق" ويعتبر الحبقى رجلاً "كان على المسيحية دائماً" إن وضعه الدينى هو الذى حفزه على تحقيق السلام، وهذه المواصفات قد اعترف بها خوان دى أوستريا " الذى خلع سلسلة ذهبية كانت فى عنقه ووضعها فى عنق الحبقى، وقد أعطى الفرسان كثيراً من الهدايا للمسلمين" (٦٥).

أخبر الحبقى ملك البشرات ومستشاريه بمجرى المفاوضات، وعندما علم الملك بذلك حزن إذ رأى أنه يفقد سلطاته بذلك "ولما علم بعض المسلمين بحزن الملك عقدوا مجلس الشورى"، وكانت آراء الموريسكيين منقسمة؛ ولما علموا أن الملك لا يريد السلام أرادوا اعتقاله "وأخبره بعضهم بذلك، واتهم الملك الحبقى بقتل"، وقد حزن المسلمون على موت القائد لأنه كان شخصاً محبوباً. كان الموريسكيون "بلا مؤن ومرهقين من كثرة الموتى وفقد الأموال فكانوا يريدون السلام" وهكذا انتقلوا معهم النساء والأطفال إلى جيش خوان دى أوستريا.

ويُعلن عن موت ملك البشرات أول الفصل بحروف صغيرة وهذا ما يدل على أنها إضافة كتبت فيما بعد، لكن الفصل لا يتحدث عن ذلك. وتخصص السطور الأخيرة من الصفحة للإذن الذى منحه خوان دى أوستريا للجنود المسيحيين لمطاردة الموريسكيين الموجودين فى البشرات، وكان يدفع لهم ثمانى عملات مقابل كل موريسكى يُنقل حيّاً إلى غرناطة.

إن أخبار حرب غرناطة التى كانت تصل إلى قشتالة - والتى جمعها ماتياس إسكودورو - متحيزة وجزئية. إنها تهتم ببداية الثورة وتطورات القتال.

يفتقد النص إلى النقد لطريقة إدارة الحرب وللوضع في المملكة. إنها رؤية رسمية للمسيحيين القدامى. والفروق بين فصول المخطوطة تعزى إلى مستوى المصادر المستعملة. وتتميز بعض "روايات الأحداث" بمجرد التعصب الدينى. إن ماتياس إسكوديرو يكتب رواية متصلة مستعملا مصادر متحيزة وناقصة يحاول ربطها. إن بقية سكان قشتالة لم يكن لديهم قدر أكبر من المعلومات عن الحرب الدائرة في البشراة. وفي رأيي فإن قيمة "رواية الأحداث الهامة" تكمن في تجاوزها للتفكير الشخصى لمؤلفها وتحولها إلى ملتقى لأفكار ومصادر العقلية القشتالية في القرن السادس عشر.

الهوامش

- ١- للتعرف على التاريخ الموريسكى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر انظر كتابنا:
- Los moriscos en el pensamiento histórico. Historiografía de una minoría marginada; ed.Cátedra, Madrid, 1983.
- ٢- توجد هذه المخطوطة في مكتبة طليطلة العامة تحت رقم ٦٥. وبعض فصول المخطوطة قد نشرها فيرنانديث إيثكيدو عام ١٩٨٢.
- ٣- كانت الموناثيد هي رأس حزب ثوريتا وهي أراضٍ تابعة لجماعة قلعة الرب وهذا الموضع يقع بالقرب من باسترانا التي اشتراها أمير إيبولى منتصف القرن السادس عشر، وهذا قد أدى إلى كثير من المنازعات القضائية بين إيبولى وجماعة قلعة الرب.
- ٤- Herrero Casado: *Glosario alcarreño..Por los caminos de la alcarria* انظر كتاب، Guadalajara, 1974, pp.66-68.
- ٥- انظر: Fernández Izquiado, p.46
- ٦- تقع هذه الفصول بين الصفحات 635-665, 678-684.
- ٧- أهمية هذه المصادر لاشك فيها لكتابة الفصول الخاصة بالموريسكيين. إن عنوان المخطوطة نفسه دليل على ذلك وبعض فصول المخطوطة نقلت صرف لروايات الأحداث.
- ٨- انظر كتاب:
- Fajardo: *Relación verdadera sacada de una carta que vino al ilustre Cabildo y regidor desta ciudad. Marquez de Veler ... con los moriscos revelados*, Sevilla de lo sucedido al Marqués de Vélez 1569.
- San German: *Relación verdadera de las causas que su Magestad a echo averiguar para echar a los mariscos de España y los vandos*, Zaragoza, 1611.
- وهناك روايات أخرى للأحداث تتعلق بالموريسكيين خاصة بحرب غرناطة والطرده وأكبر عدد من هذه الروايات نجده في كتاب: Agullo y Coso: *Relaciones de sucesos años 1477-1619*. Cuadernos Bibliográficos X, Madrid, 1966.

- ٩- ماتياس إسكوديرو - أو المصادر التي استقى منها - لا يفرق بين مضمون اتفاقية تسليم غرناطة والقرارات الملكية اللاحقة، يعتقد أن تنصير الموريسكيين كان أمراً متفقاً عليه بين فيرناندو الكاثوليكي وملك غرناطة. لا يذكر أبداً أن ثيسنيروس هو الذي أمر بذلك عام ١٥٠٢ ولا تنص الاتفاقية على تاريخ معين لتنفيذ بنودها. إن ذكره لهذه الأخبار يرجع إلى أنه لم يكن قد ولد عند هذه الأحداث ولأن المصادر التي استقى منها لا تشير إليها.
- ١٠- يستعمل المؤرخون الذين يقصون أمر طرد الموريسكيين من ذاكرتهم - يستعملون حجة من هذا النوع - كان القشتاليون في القرن السادس عشر يرون حرب غرناطة كمحاولة من جانب الموريسكيين للعودة إلى دينهم والقضاء على الديانة المسيحية.
- ١١- كانت الاتفاقيات مع الجزائريين سابقة على قرارات فيليبي الثاني، ويحكي لنا أورتادو دي ميندوثا ومارمول كاربخال أن المسيحيين كانوا على حذر دائماً من هجوم البربر والقراصنة على سواحل غرناطة.
- ١٢- القرارات التي تحظر على الموريسكيين استعمال الزي واللغة العربية وحمل السلاح تكررت منذ عام ١٥١٦. أول هذه القرارات أصدرها ثيسنيروس عام ١٥١٦ ثم تكررت عام ١٥٢٦ ثم أمر بها فيليبي الثاني عام ١٥٦٧ (ليس عام ١٥٦٦ كما يؤكد إسكوديرو) وتم تنفيذها.
- ١٣- يجب أن تفهم مقاومة الموريسكيين لهذا الأمر كمحاولة للحفاظ على هويتهم. لقد خسر الموريسكيون أموالهم ثم وُضعوا تحت حكم مسيحيين يتعجلون الاستفادة من ممتلكاتهم الجديدة ولم يبق لهم إلا اللغة؛ ومن المنطق أن يدافعوا عنهما.
- ١٤- يحاول إسكوديرو أن تكون روايته متصلة. لهذا يكرر أفكاراً وفقرات ذكرها آنفاً. إن وجود اللصوص الموريسكيين في هذا الفصل دليل على شر الموريسكيين لعدم خضوعهم للأوامر، ويعد من باب تبسيط الأمور قوله إن سبب ثورة الموريسكيين الوحيد هو صدور تلك الأوامر. هذا نهج معهود عند القشتاليين الذين كانوا يجهلون حقيقة الوضع في مملكة غرناطة.
- ١٥- رغم أن فيرناندو بالور كان على علم بخطط الثورة فإنه لم يخطط لها. يقول مارمول كاربخال إنه كان على وشك الرحيل إلى فلانديس إذ كان يمر بضائقة اقتصادية.
- ١٦- يقدم لنا خينيس بيريث دي إيتا رؤية قصصية مسرحها مبنى بلدية غرناطة. صحيح أنه مُنِعَ من دخول مكان الاجتماع بالسلاح لكن ذلك كان حادثاً عرضياً ولم تكن له الأهمية التي يتحدث عنها ماتياس إسكوديرو وآخرون.
- ١٧- عقد الموريسكيون - حسب روايات مارمول كاربخال وأورتادو دي مندوثا - اجتماعات عديدة للاتفاق على خطط الثورة. ورغم أن بعض تلك الاجتماعات عقد في

البيازين فإنه لم يكن لها تلك الأهمية التي يتحدث عنها إسكوديرو. عقد الاجتماع الأول في شوريانا والثاني في بيت ثيثان (في ٢٧ سبتمبر ١٥٦٨) في البيازين والثالث في بيت هاردوني في البيازين (في ٢٩ سبتمبر ١٥٦٨). يحاول إسكوديرو الإيهام بأن الاجتماعات حدثت قبيل يوم محاولة الاستيلاء على غرناطة.

- ١٨- تبرز في النص أهمية دور الأثرياء من المسيحيين والموريسكيين في سير الحرب.
- ١٩- كان موريسكيو البشرات هم الذين يريدون الثورة. لم يكن أهل البيازين يهتمون بتلك الشكاوى، وكان دورهم في الحرب سلبياً، وكان أهل البشرات هم الذين قاموا بالثورة. كان خط سير فيرناندو - حسب رواية مارمول كاربخال - كالتالي : خرج من غرناطة في ٢٣ ديسمبر فوصل إلى بثار في اليوم التالي في بيت أحد أقربائه. في تلك الليلة اجتمع أهل بالور وأصروا أن يكون هو رئيسهم [النص المذكور يشير إلى ذلك الاجتماع تقريباً] في ٢٦ ديسمبر تم تنصيبه ملكاً. يصل ابن فرج بعد فشل محاولة الاستيلاء على غرناطة ويعلم بأمر التنصيب. لا يسره الأمر لكنه يحترمه ... الحقيقة والتسلسل التاريخي للأحداث لا يتفقان مع رواية إسكوديرو.
- ٢٠- تم إرسال السفارات إلى الجزائر وتركيا في وقت واحد. كانت مساعدة الجزائريين سريعة، ويفيدنا بيريث دي إيتا أن عدداً قليلاً من الأتراك وصلوا في فبراير ١٥٦٩ وتأكدوا أن الوضع الحقيقي لا يتفق مع التقارير التي أرسلها الموريسكيون.
- ٢١- راجع الملاحظة رقم ١٩. إن تنصيب ابن أمية ملكاً لم يتقبله بعض الموريسكيين استقبالا طيباً، فلم يكن ابن أمية - كقائد عسكري - متميزاً. بل كان هناك من هو أفضل منه كابن فرج والحقى وابن عبو. كان ابن أمية مجرد رمز وبعد ذلك بالغ المؤرخون المسيحيون في تضخيم صورته. لم تكن له مطلقاً تلك البطولة التي يتحدث عنها إسكوديرو.
- ٢٢- محاولة الاستيلاء على غرناطة قام بها اللصوص وبعض موريسكيي البشرات الذين أرسلهم ابن فرج.
- ٢٣- يبدو أن الأرقام التي يقدمها إسكوديرو مبالغ فيها. في أوائل أيام الثورة كان عدد الموريسكيين الثائرين أقل كثيراً ولم تكن بداية الحرب هي حادث غرناطة ؛ بل الهجوم على إيريرا وجنوده.
- ٢٤- كان الذين أعدوا للهجوم على المدينة - حسب رواية مارمول كاربخال - هم ابن فرج والثغري ومونفاريكس وسالاس. لم يؤخذ مسيحيو المدينة على غرة كما يظن إسكوديرو. إن قوله إن الخطة وضعت عندما كان المسيحيون مشغولين بصلواتهم عبارة عن محاولة لإظهار سوء نية الموريسكيين ورغبتهم في الهجوم على الكاثوليكية.
- ٢٥- لم يكن الجليد هو الذي منع تنفيذ الخطة، أهل الغوطة لم يذهبوا إلى المدينة لأنهم لم -

يسمعوا الإشارة المتفق عليها وأهل البيازين لم يذهبوا لأنهم ظنوا أن الخطة لم تنجح لقلة العدد.

٢٦- دخل الجزائريون المدينة مع قوات ابن فرج. وكان أهل البيازين يعلمون تمامًا خطط أهل البشرات ووصول الدعم الجزائري.

٢٧- تهتم " الروايات " بهذا النوع من الأحداث ونظرًا لأنه أدب دعائي فإن أفعال الموريسكيين قد أحدثت جوا معاديًا لهم. ومنذ نهاية حرب غرناطة حتى بعد الطرد بوقت طويل كانت هناك منشورات في قشتالة وفالنسيا تتحدث عن قتل الموريسكيين للمسيحيين القدامى.

٢٨- كانت مملكة غرناطة في القرن السادس عشر تعيش فترة من ازدهار عصورها. كان النبلاء يعاملون رعاياهم الموريسكيين معاملة طيبة وكان اهتمام الموريسكيين المقيمين في غرناطة وفي الغوطة نسيبا. يقول مارمول كارباخال " إن أثرياء البيازين كانوا لا يريدون الثورة ولا قدوم البربر ويريدون استمرار الوضع".

٢٩- كان رجال الدين المسيحي المقيمون مع الموريسكيين في البشرات في أوضاع مختلفة ففي بعض الأحيان كان تواجد هؤلاء مع الموريسكيين عبارة عن " ترحيل " ولم يكن بعضهم مؤهلًا للتعليم الديني والأخلاقي كما تقتضي الظروف.

٣٠- كتب ديثا أيضًا إلى فيليبي الثاني يطلب المساعدة. إن دور الماركيز ليلة عيد الميلاد لم يكن سلبياً كما يقول إسكوديرو. كان مسيحيو غرناطة - ومعهم مونديخار - على علم بتحركات الموريسكيين المحتملة، فقد حاول هؤلاء التمرد من قبل.

٣١- عندما قرر ماركيز بيليث أن يشترك في حرب غرناطة حدثت مواجهة مع مونديخار. كان قائد قوات غرناطة يرى أن تكون الحرب سرية ومحدودة. كان كل من بيليث ومونديخار له مصالح اقتصادية مع الموريسكيين فقد كانت لهما أراضٍ يزرعها الموريسكيون. يقول مارمول كارباخال إنه في حالة طرد الموريسكيين سيفقد جزءًا من ماله في هذه المملكة.

٣٢- بدأت حملة ماركيز بيليث في أوائل يناير عام ١٥٦٩، وقد مرّ بالأمكن التالية: بيليث بلانكو، روبيو، أولولا دي أوربا، تابرنيس، أوثيخا، فيليكس، كانخايار، لوسا، تركي، ببيرخا، أدار، خوكاينينا، أويخار، بالوس، كالاورا، خيرغال، باشا، أوسيكار. وعندما جاء دي أوستريا سلمه القيادة، ولا يحكى لنا إسكوديرو إلا أنباء المعارك المهمة، وبعض التواريخ التي يقدمها لا توافق الحقيقة.

٣٣- الجانبان في الحقيقة اتصفت أفعالهما بالوحشية وارتكب المسيحيون والموريسكيون على السواء أفعال السرقة وقتل المهزومين ويحكى إسكوديرو تفاصيل الحرب من وجهة نظر المسيحيين ولا يشير إلى أفاعيل جنود فيليبي الثاني.

- ٣٤- في الأيام التالية على محاولة الاستيلاء على غرناطة كان المسيحيون مذعورين. ولما كان بعض المسيحيين يخرج لمعاقبة الموريسكيين وسرقتهم، وكان هؤلاء ينصبون لهم الكمائن، أراد موندixار أن يوقف تلك المصادمات، وكان يريد أن تكون له القيادة المباشرة في الحرب ولم يكن يستطيع أن يسمح بالقوضى ومحاولة البعض تحقيق أمجاد شخصية ومخالفة أوامره.
- ٣٥- لم تحدث أية معارك في خوبيليس، عند وصول قوات ماركيز موندixار خرج مسيحي قديم ومعه موريسكيان لتسليم مفاتيح الحصن الذي كان به موريسكيون ونساء وأطفال. يقول أورتادو دي ميندوثا إن أحد الجنود أراد أن يعرف ما إذا كانت إحدى الموريسكيات تتحلى بالذهب فدافع عنها زوجها فحدثت ضجة، ولم يبق موريسكى واحد على قيد الحياة. ويقول مارمول كاربخال إن الغنيمة التي كانت في الحصن كانت وفيرة (ذهب وفضة وحرير) وإن الحصن كان به ثلاثمائة رجل وألف ومائة امرأة.
- ٣٦- في الفترة بين ١ يناير - ١٤ فبراير عام ١٥٦٩ التقى ماركيز موندixار بالموريسكيين في غواخار فوندون، غواخار فاراغيت، وغواخار ألتو.
- ٣٧- غير موجود في الأصل الإسباني.
- ٣٨- كان سخط الجنود أمراً شائعاً في تلك الحرب. كان يمكن إخماد ثورة الموريسكيين في وقت أقل لو أن جيش المسيحيين كان أكثر تنظيماً. كان الجنود المشتركون في الحرب يبحثون عن الثروة السريعة فشاعت السرقة وشاع النهب.
- ٣٩- لا يشير مارمول كاربخال ولا أورتادو دي ميندوثا إلى هذا الحد. من المؤكد أن مسيحيي غرناطة كانوا يحتاطون من موريسكيي البيازين، وكانوا يرون أعداء في كل جانب.
- ٤٠- يقول أورتادو دي ميندوثا كان في سجن المحكمة حوالي مائة وخمسون موريسكياً سجيناً كلهم من أفضل الناس وأكثرهم أموالاً ومعظمهم لا عهد له بالأسلحة.
- ٤١- يقول مارمول كاربخال إن ابن أمية وبعض رجاله ذهبوا إلى غرناطة ذات ليلة باتفاق مع أهل البيازين، ولما علم المسيحيون بذلك زادوا من عدد الجنود الذين يحرسون للسجن حتى لا يستطيع ابن أمية أن ينقذ أباه وإخوته.
- ٤٢- كان الموريسكيون قد سُجنوا قبل حدوث الثورة إذ كانت لهم قضايا لم يُفصل فيها. يقول مارمول إن أولئك الموريسكيين (وهم من أثرياء البيازين) قد سجنهم ديثا بين فبراير ومارس، وإنهم خرجوا بعد ذلك. يقول المؤلف إن السوق هم الذين قتلوا الموريسكيين السجناء قبل وصول تينديا.
- ٤٣- كل المؤرخين يتحدثون عن فرقة تركية (من ثلاثين جندياً) بين المسلمين المدافعين عن حصن اينوكس.

- ٤٤- يُبرز كل المؤرخين شجاعة الموريسكيين واستبسالهم إلا أنه كلما اشدت مقاومتهم زادت بطولة المسيحيين.
- ٤٥- بعد أن استولى فرانثيكو دي كوردوبا على الحصن وضع منصبه تحت تصرف الملك. وقال إنه لما كانت هذه الأراضي تقع تحت نفوذ ماركيز بيليث فليس من المناسب لحسن سير الحرب كثرة عدد القادة.
- ٤٦- عيّن فيليبى الثانى أخاه خوان دي أوستريا قائداً للقوات المسيحية فى حرب غرناطة عندما رأى النزاع على القيادة وسخط السكان فى المملكة والإحباط الذى سببه التوصل إلى السلام بأى ثمن. وكان النبلاء يخشون رحيل رعاياهم الموريسكيين فهم أمناء وأيدى عاملة رخيصة.
- ٤٧- فرح سكان المملكة بتعيين خوان دي أوستريا إذ كانوا يرون أن قدومه سيعجل بنهاية الحرب، وقد اختلف المؤرخون حول هذه الشخصية.
- ٤٨- جاء تقدم دوق سيسا بعد أيام من دخول خوان دي أوستريا إلى غرناطة.
- ٤٩- نتج عن فشل حملة أنطونيو دي لونا الثانية أن زاد عدد القرى الموريسكية الثائرة.
- ٥٠- بدأ اتخاذ قرار ترحيل الموريسكيين بمجرد وصول خوان دي أوستريا إلى المدينة، وقد نشر القرار فى ٢٣ يونيه بعد أن وافق الملك، ورغم أن موندixار وخوان دي أوستريا هما اللذان اقترحا هذه الخطوة فإنها لم تتفد إلا بعد موافقة الملك.
- ٥١- عن محاولة اغتيال خوان دي أوستريا يقول أورتادو دي ميندوثا إنه كان حاضراً، وإن أحدهم جرح من بجواره، وكان يعتقد أنه خوان، ويقول مارمول إن سبب الحادث يرجع إلى أمر أصدره قائد برفع راية عليها صورة المسيح، وظن الموريسكيون أن تلك إشارة لقتلهم فهجم موريسكى على جندي، وقام خوان بتهدة الجو بين المسيحيين والموريسكيين.
- ٥٢- تكرر طلب المساعدة من الجزائر طوال الحرب. ولم يتسبب طرد الموريسكيين فى إرسال سفارة جديدة ؛ بل ظل الموريسكيون يرسلون المال والأسرى ويتلقون السلاح.
- ٥٣- يرى ماتياس إسكوديرو أن حب الله للمسيحيين هو الذى أرشدهم إلى الصواب. كل طرف كان يرى أن الله بجانبه هو وكلهم كان موقناً بالنصر فى النهاية.
- ٥٤- فى يولييه ١٥٦٩ لم يخرج ماركيز موندixار لغزو الموقع، وقد ضعفت سلطته بوصول خوان دي أوستريا الذى تسلم القيادة.
- ٥٥- أورتادو دي ميندوثا أيضاً مولع بالتأمل.
- ٥٦- تم الاستيلاء على حصن فريخيليانا بين ٧، ٩ يونيه ١٥٦٩.
- ٥٧- تمت حملة ريكنيس بمخالفة أوامر فيليبى الثانى. كان عليه أن يبقى فى أدرا لمعاونة بيليث.

- ٥٨- يخشى ماتياس إسكوديرو أن يصل الأتراك لنجدة الموريسكيين المتمردين. يرى أن اشتراك قوات الإمبراطورية الثانية يعنى طول الحرب وقصر الأمل فى الانتصار. لم يكن يضع فى اعتباره أن القسطنطينية تبعد كثيراً عن غرناطة، وأن السلطان مشغول بأموره الخاصة أكثر من انشغاله بأمر موريسكى غرناطة.
- ٥٩- فى الفصل الثانى يحكى لنا كيف تم التوزيع وعن الرجال الذين خرجوا من ثوريتا والموناثيد. لم يسر القشتاليون كثيراً لإخراج الناس وذهب الشباب مضطرين.
- ٦٠- خرج من غرناطة فى ٢٣ ديسمبر ١٥٦٩ وسار عبر غيخار أويخار وبالور وبويرتو دى لوه وكالا أورّا.
- ٦١- فى هذه الفصول يحكى لنا قصة الاستيلاء على غاليرا. ماتياس إسكوديرو يكتفى بسرد تفاصيل المعارك والمواجهات دون الاهتمام بأسماء الأماكن التى يمر بها الجيش المسيحى.
- ٦٢- أمر بذلك نظراً للانتقادات التى وجهت إليه من قبل القادة الآخرين. كتب ريكنس إلى الملك، وقال إن الماركيز ليس الرجل المناسب لقيادة الحرب، وقد حملت الأوامر عبر خوان دى أوستريا إلى ماركيز خويسكار.
- ٦٣- يبدو أن إسكوديرو قرأ "رواية" تتضمن نص الرسالة. إنه يخلط بين الشخصين نظراً لبعد الأحداث أو لنقص معلوماته.
- ٦٤- كان فيليبى الثانى يرغب فى إقرار السلام مع الموريسكيين بدلا من الاستمرار فى الحرب. يقول مارمول كاريخال إن الوزراء كان لهم رأى آخر.
- ٦٥- دور الحبقى البارز فى مفاوضات السلام لا جدال فيه. كل المؤرخين تقريباً يُبرزون دور هذا الوسيط ويأسفون لموته على يد ابن عبو.

مصدر لمعرفة تاريخ الموريسكيين

محاضر اجتماعات المجلس البلدى

نيكولاس كابريانا ثيسار

لعل مما لا غنى عنه أن أقدم بعض الإيضاحات المسبقة وهى موجهة أساسًا للمستمعين ممن لا عهد لهم بتاريخ إسبانيا.

كانت المدن الإسبانية خلال قرون كثيرة تتمتع بنوع من الحكم الذاتى يسرى على مناطق شاسعة تشمل قرى وأماكن. وكان يتولى السلطة عدد من الأشخاص يشكلون البلدية. ليس من المهم أن أعرض تطور نظام البلدية على مدى التاريخ، فالموضوع الذى أتحدث عنه يتعلق بالقرن السادس عشر وبإقليم مالقة الذى كان يتبع مملكة غرناطة.

كانت البلديات فى القرن السادس عشر لها أقسام كثيرة:

الرواتب السنوية للوظائف البلدية فى المذابح والسجون والمخازن والموازن وحرس السواحل والحرس القروى.

- إدارة المنافع التجارية والخاصة.
- العدل (العُمد والحُجَّاب).
- الصحة (المستشفيات).
- جمع الضرائب.
- النظام العام.
- تنظيم المليشيات المدنية.

وكان مجلس بلدية مالقة يتشكل من شخصيات تنتمي إلى صفوة المدينة. كان بعض هؤلاء ينتمي إلى طبقة النبلاء أما معظمهم فكان ينتمي إلى البرجوازية.

غنى عن الذكر أن مصالح كل هؤلاء (الزراعية والرعية والتجارية) كانت تتعارض فيما بينها في بعض الأحيان.

كان الأشخاص الذين يمارسون السلطة ينقسمون إلى "مراجعين"، وهؤلاء يعينهم الملك عادة، و"مخلفين" [اثنين عن كل حي] يحيطون البلدية علمًا بالموضوعات ذات الاهتمام العام.

وكان يرأس المراجعين والمخلفين العمدة الأكبر، أما في المدن المهمة مثل مالقة فكان هناك إلى جانب ذلك المراجع الأكبر وهو أعلى سلطة في المدينة ويعينه الملك لمدة عام وكان من الشائع أن يستمر في منصبه أعوامًا متتالية وفقًا لمصلحة الملك.

وكان الاجتماع الذي تعقده السلطات المحلية لمناقشة الأمور الخاصة بالمدينة يُسمى Cabildo أى اجتماع المجلس البلدى وكانت قراراته تصدر بالأغلبية.

كانت هذه الاجتماعات دورية إلا أنها كانت تعقد أحيانًا بصفة استثنائية في تاريخ ومكان محددين.

أواصل تقديم الإيضاحات فأقول إن كلمة محضر Acta تعنى الوثيقة التى تسجل المناقشات والقرارات التى نتجت عن اجتماع المجلس البلدى وهى وثيقة حررها كاتب المجلس.

كانت الوثيقة تحرر أثناء مداخلات الأعضاء، وكان يسجل فيها دخول وانصراف المراجعين والمخلفين وأى أمر آخر له أهمية ما. كانت الوثيقة تُحرر في سجل مخصص لذلك تجنبًا لأى تزيف. إن تحرير الوثائق على يد كاتب يُضفى عليها طابع الأمانة فهو يسجل المناقشات والقرارات التى اتُخذت والاعتراضات فى

الجلسة. من هنا فإن كل صفحة يُوقع عليها الكاتب، وهو يوقع أيضًا في نهاية المحاضر بجوار توقيع المراجع العام أو العمدة الأكبر وأحد المراجعين.

والذى يُورخ للمشكلة الموريسكية لديه عدة أسباب لاستعمال محاضر اجتماعات المجلس البلدى منها:

١. فى هذه المحاضر توجد نصوص كاملة لوثائق قد لا توجد فى أماكن أخرى.
٢. خلال الاجتماعات تُذكر تفاصيل معينة لا توجد فى مصادر أخرى.
٣. القرارات البلدية تسمح لنا برؤية محلية للمشكلة الموريسكية توضح جوانب جديدة منها.

إذا ركزنا الاهتمام على العامين اللذين جرت فيهما حرب غرناطة ١٥٦٩-١٥٧٠ نجد أن الوثائق التى نُسخَت فى محاضر اجتماعات المجلس البلدى لمدينة مالقة غنية جدًا. قد تكون بلدية مالقة ذات طابع خاص بالنسبة للقضية الموريسكية إذ أن رئيس المجلس البلدى فى خلال سنوات الحرب كان أريبالو دى ثواثو الذى كان أحد القادة العسكريين خلال النزاع فى مملكة غرناطة.

تُذكر فى المحاضر أيضًا التحذيرات الشفوية التى صدرت عن مرشدين، والقوات التى أرسلت إلى قادة الحصون.

كان من المعتاد فى الاجتماعات أن تقرأ الرسائل الواردة، وأن تُنسخ تلك الخطابات على يد الكاتب الذى يشهد بذلك، وكان نص الخطاب يُذكر مرة أخرى إذا كان أحد الأعضاء غائبًا فى بداية الجلسة.

وبالنسبة لثورة الموريسكيين فإن الخطابات الواردة من المرية وأدرا وسالوبرينيا والمونييكر تكتسب أهمية خاصة، فهى تطلب مَعُونَات وتصف الوضع هناك. بعض هذه الرسائل منقولة بالنص، والبعض الآخر يُذكر موجزه فى محاضر الاجتماعات^(١).

خلال سنوات الحرب وصلت أربع رسائل من فيليبى الثانى تتعلق بالموريسكيين. الأولى بتاريخ ١ يناير ١٥٦٩، وقد قُرأت فى الاجتماع المنعقد فى ١٠ يناير، وفيها يأمر الملك بأن تأخذ المدينة حذرًا ضد أى هجوم، وأن تسارع بنجدة الأماكن التى تطلب منها ذلك.

وفى اجتماع يوم ٤ يولية ١٥٦٩ قُرأت رسالة من الملك (مُرسله بتاريخ ٢٥ يولية) يشكر فيها مالقة على الخدمات التى قدمتها إلى قائد قشتالة، ويشكرها على تعاونها فى معركة حصن فريخيليانا، وقد نُسخَت الرسالة كلها فى المحضر وتقرر إيداعها فى أرشيف المدينة.

وفى رسالة ثالثة كُتِبَت بتاريخ ١٣ يولية ١٥٧٠ يأمر الملك المراجع العام فى مالقة - أريبالو دى ثواثو - أن يسير على رأس رجال من المدينة لنجدة دوق أركوس ضد الثائرين المسلمين فى روندا^(٢).

وُجِدَت أربع رسائل كتبها خوان دى أوستريا كلها متعلقة بالحرب ضد الموريسكيين؛ رسالة ١٧ مايو ١٥٦٩ يحذر فيها المدينة من هجوم جزائرى مُحتمل، وقد نُسخَت كلها فى رسالة أخرى قُرأت فى اجتماع ٢٨ مارس ١٥٧٠ يتناول أحداث تيخولا، وفى رسالة ٢١ يولية يحذر من ذهاب ابن على إلى روندا لمساعدة الثوار المسلمين^(٣).

لن أتعرض للرسائل التى بعث بها لويس دى ريكنيس قائد قشتالة إلى بلدية مالقة يطلب فيها معونة من الرجال والعتاد^(٤).

ولا أنكر أيضًا اثنى عشرة رسالة كتبها المراجع أريبالو دى ثواثو إلى المدينة يتناول فيها سير المعارك، ويُعرب فيها عن قلقه، ويحكى عن سير المعارك فى الجبهات الأخرى^(٥).

وإذا أضفنا أيضًا رسائل دوق أركوس وانييغو مانريكى... إلخ فإننا يمكن أن ندرك أهمية هذا الكنز الوثائقى الموجود فى المحاضر.

بعض هذه الوثائق كان يجب أن تُحفظ، وكان يُخشى أن تختفى من الأرشفة فسُجّلت في كتاب المحاضر. أنكر على سبيل المثال ما حدث بين حرس مدينة مالقة والموريسكيين في قرية غوارو في مارس ١٥٥٩. لما شعر الموريسكيون باضطهاد الحُجّاب لهم اختاروا للدفاع عنهم في المجلس البلدى المحلف غوميث بانكيث، وهذا الأخير أصر على أن يُقرأ الطلب في المجلس، وأن يسجل كاملا في المحضر^(٦).

الرغبة الشديدة في تملك الأراضي:

توضح لنا محاضر الجلسات أيضا قضايا أخرى تهم الأقلية الموريسكية إزاء جماعات الضغط في المدن والقرى.

إن قراءة الموضوعات التي نوقشت تدل على الأهمية القصوى لموضوع الأراضي وهي مشكلة سببت مناقشات طويلة في العقد السابق على ثورة الموريسكيين.

اعتبارًا من عام ١٥٥٩ نتج عن الرغبة في تملك الأراضي عدد من القضايا قدمتها سلطات مالقة إلى محكمة غرناطة تشتكى فيها من احتلال أراضي قرية من قرى الموريسكيين.

كان السكان يحولون الممتلكات العامة إلى ممتلكات خاصة ويزرعون الأراضي بالكرم والأشجار.

ورغم أن هذا الموضوع يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر فإن المناقشة التي حدثت في جلسة المجلس البلدى يوم ٦ مارس ١٥٥٩ تكتسب أهمية خاصة؛ فقد نوقش فيها طلب قدمه موريسكيو غوارو المتهمون بغرس أشجار في أراضي أميرية. وكان الحرس قد أجبرهم على دفع غرامات كبيرة واقتلاع الأشجار.

كان الموريسكيون قد اعتادوا شراء صمت الحُراس، وهؤلاء كانت رواتبهم ضعيفة؛ فكانوا يقبلون الرشاوى بسهولة إلا أن الموريسكيين فى هذه المرة كان رد فعلهم جديدًا ينم عن تغير فى عقليتهم.

إزاء شكوى الحُراس أرسل موريسكيو غوارو إلى مجلس بلدية مالقة مدعيًا اسمه راميرو جانييث قال إن الأراضى قد زُرِعَتْ منذ عشرين عامًا، وإن السلطات لم تعلم بذلك لأنه قد تمت رشوة الحراس "إننا نعطى لهم ما يطلبونه منا حتى لا يقتادوننا إلى سجن المدينة. إن ما يطلبونه منا يزيد عما تساويه الكروم التى زرعناها. إن سطوة هؤلاء الحراس لا تُحتمل؛ ولهذا نرجو منكم وضع حدٍ لها"^(٧).

إن هذا الإعلان الموريسكى يوضح موقفًا ثائرًا، وأن الموريسكيين قد قرروا ترك الإذعان الذى تعودوا عليه فيما سبق.

إن موريسكى غوارو لم يكتفوا بالشكوى من فساد الحراس بل إنهم أعلنوا "أنهم ليسوا وحدهم الذين غرسوا أشجارًا فى أراضٍ أميرية، وأنهم سيفعلون ما يفعله الآخرون وسيدفعون الضرائب التى تقررها المدينة".

يوضح النص موقفًا كريمًا للموريسكيين الذين ملوا أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثالثة وأصروا على أن يتساووا بالمسيحيين القُدامى. وفى مواجهة سطوة الحراس طلبوا معاملتهم كالأخرين، أى كمواطنين فى المملكة.

كان الاستيلاء على الأراضى الأميرية ناتجًا عن زيادة عدد السكان، وعن أرباح المحاصيل الزراعية، ولم يكن حكرًا على الموريسكيين؛ ففى تلك الأعوام كان لمجلس بلدية مالقة قضية ضد ماركيز ارداليس الذى احتل رعاياه أراضى فى بيا بردى التابعة لمالقة. لكن أراضى الموريسكيين كانت تخص مجموعة من أكثر المجموعات المسيحية تأثيرًا وهى أصحاب الماشية فهم المتأثرون مباشرة بالاستيلاء على الأراضى الأميرية. هذا عامل مهم يجب أن يوضع فى الاعتبار لكى نتفهم الأحداث التى ستجرى فى ديسمبر عام ١٥٦٨ فى الإقليم.

كان الاستيلاء على الأراضي الأميرية منتشرًا في كل الجهات لدرجة أن الملك اضطر لإرسال لجنة الدكتور سانتياغو الشهيرة. إن أداء هذه اللجنة المعادية للموريسكيين لدى فحصها لعقود الأملاك الزراعية يمكن اعتباره أساس الثورة الموريسكية. قام هذا الموظف بزيارة للإقليم عام ١٥٦٢ وطلب من كل مزارع عقد ملكيته.

لم يستطع كثير من الموريسكيين إثبات ملكيته لأراضيهم لأنهم لم يحتفظوا بعقودهم التي ترجع إلى أيام بنى نصر فطردوا من الأرض^(٨).

مع ذلك لم تتوقف حركة الاستيلاء على الأراضي الأميرية، واستمر الموريسكيون والمسيحيون على السواء في زراعة الأراضي خلسة. أسوأ ما في الموضوع أن الظاهرة انتشرت "إن ما حكى حتى الآن لا يقارن بما حدث بعد ذلك، فكثير من السكان استولوا على أراضٍ في جميع الجهات..."^(٩).

ويُنهي المحلف خوان دي ليون طلبه إلى المجلس البلدي بالإشارة إلى كميات الأشجار الكثيرة التابعة للمدينة والتي يتم قطعها، والفوضى في الاستيلاء على الأراضي. كل ذلك يقلل من مساحات المراعي؛ بل ويمنع مرور قطعان الماشية؛ لهذا يشترط أن تقوم السلطات بإعادة الممتلكات، ويطلب تشكيل لجنة تقوم بالتحقيق في وقائع الاستيلاء على أراضٍ منذ عام ١٥٦٢، وأن تُرسل نتائجها إلى المجلس الملكي^(١٠).

تطور العنف:

إذا كانت محاضر المجلس البلدي مهمة للتعرف على العوامل الأساسية التي أدت إلى ثورة الموريسكيين فإنها مهمة أيضًا لدراسة تطور الأزمة الاجتماعية وتدهور العلاقة بين المسيحيين والموريسكيين.

كانت مواقف المراجعين والمحلفين تتغير تبعًا لتطور الأحداث خلال عام ١٥٦٩. إن تطور العنف والعذوانية يتبين في إعلانات المجالس البلدية؛ بل وفي الألفاظ المستعملة.

من المدهش أن نعرف أن مجلس بلدية مالقة لدى علمه بأخبار التمرد ظن جميع المحلفين أن الأمر عبارة عن فوضى أحدثها اللصوص الموريسكيون لأنهم خسروا أراضيهم نتيجة لقرارات لجنة الدكتور سانتياغو.

إن الفرق بين اللصوص (وهم متشردون تصعب السيطرة عليهم) وبين الموريسكيين واضح جدًا في عقلية المراجعين في مالقة.

فالموريسكيون مسالمون وسكان قرى وصنّاع مهرة يعملون في تحويل العنب إلى زبيب لتصديره. هؤلاء - كما يعتقد المجلس البلدي - لا يمكن أن يثوروا ضد الملك فهذا أمر يخرج عن النظام المألوف.

في ٢٧ ديسمبر ١٥٢٨ قرأت ثلاث رسائل جاءت بالبريد من الساحل وهي تحذر من أن عددًا من اللصوص قد شوهوا ومعهم رايات، وأنهم قتلوا عددًا من المسيحيين. ورغم أن الأنباء مشوشة فإن المراجع العام أرسل خطابات إلى القرى التابعة له لكي يُعد كل الرجال سلاحهم، وأن يسهروا ليلاً، وأن يُعلموا العاصمة بكل ما يعرفونه لاتخاذ الإجراءات الضرورية، وقد اتخذ نفس الإجراءات في مالقة^(١١).

وفي يوم ٢٩ ديسمبر وصلت أخبار جديدة من السواحل "قامت بعض قرى البشرات بالثورة وقُتل عدد من المسيحيين، وفي مساء أمس شوه أربعة رجال في (بلدة) نهر بيليث Vélez يُطلقون النار... وعلمنا أن هؤلاء اللصوص ربما يأتون من الساحل للذهاب إلى بلاد البربر، ولهذا نأمر أن يخرج الصيادون ورجال البحر إلى عملهم نهارًا..."^(١٢).

فى ٣٠ ديسمبر اجتمع المجلس إزاء الخوف العام وقرأت رسائل وصلت إلى أدرا يُقال فيها إن القرية محاصرة، وإنه فى يوم ٢٤ عندما كان دييغو دى إيريرا يسير من غرناطة مع أربعين جنديًا هاجمه أهل البشرات بالأسلحة، وإن قرى أخرى انضمت إلى الثورة هى كاديار ونصلة وبيرشول، وتعرض الرسائل كيف أن الثائرين أخرجوا المسجونين من السجن فى أويخار، وأن المسيحيين اضطروا إلى اللجوء إلى الأبراج^(١٣).

ومع كل ذلك يسجل الكاتب فى الهامش: "لصوص" لكن الأخبار تزداد وتدعو إلى مزيد من القلق. ترد رسائل من المونيكر وسالوبرينيا وموتريل: إن كل قرى الساحل قد هوجمت.

فى أول يناير عام ١٥٦٩ اجتمع المجلس فى مكانه المعتاد. إن الكلمات التى استُهل بها الاجتماع تعكس القلق العام.

فى مخازن السلاح الملكية بين البارود وصناديق الرصاص اجتمع المحلفون والمراجعون بالمراجع العام أريبالو دى ثواثو وهناك قرأت رسالة وردت من المرية يُذكر فيها أن المدينة محاصرة. أخيرًا، بدأ الناس فى مألقة يفهمون أن الوضع أخطر مما كان متصورًا: "ترى أن الأضرار التى يحدثها المورييسكيون تزداد"^(١٤). منذ ذلك الحين بدأ استعمال لفظ "المورييسكيين" بدلا من "اللصوص" فى مناقشات المجالس.

لنذكر أنه فى ماربيا حدثت ظاهرة مشابهة: عندما جاء اسكالنتى ومعه خبر ثورة المورييسكيين فى استان لم يكن هناك من يصدق... كانت الثقة فى هؤلاء الناس الأغنياء لدرجة أنه لا أحد يصدق أنهم يريدون الخسارة...^(١٥).

ويرد خبر ثورة استان فى المحاضر [وهو شىء غريب] بعد سبعة أيام من اندلاع الثورة. فى محضر اجتماع يوم ٢ يناير كُتب "علمنا اليوم أن المورييسكيين فى استان قد تمردوا، ونفس الشىء حدث فى بعض مناطق مدينة ماربيا"^(١٦).

يزداد الخوف فى مدينة مالقة يوماً بعد يوم. لقد زادت ثورة موريسكى استان من الشعور بالخطر. لم يعد الأمر مجرد شغب لصوص من البشرات. إن رُسلاً من ماربيا يتحدثون الآن عن الخطر الموريسكى، والأسوأ من كل ذلك أن يعلموا أن المتمردين على صلة بالأتراك والجزائريين مما يجعل الوضع متأزماً. فى اجتماع يوم ١٦ فبراير ١٥٦٩ تحدث الحاضرون عن الوضع. يتحرك الأتراك وقد خرج ملك الجزائر على رأس ثلاثة وثلاثين سفينة وسلطان فاس يتحرك أيضاً^(١٧).

هذه الشائعات المرعبة تزداد عند وصول رسالة خوان دى أوستريا من غرناطة والتي يُحذر فيها من أن كثيراً من متمردي البشرات يتحركون نحو مالقة لمساعدة القرى الموريسكية "وهم على ثقة من تلقى مساعدات من الجزائر..."^(١٨).

وأدت رسالة خوان دى أوستريا إلى عقد اجتماع طارئ فى ١٩ مايو ١٥٦٩ نوّش فيه الخطر الذى يهدد المدينة، وتقرر فيه إغلاق أبواب السور.

تزايد عدد سكان مالقة مع الوقت لأن مواطنى كوين والهورين وكارتاما وغيرها تركوا متاعهم ولجأوا إلى مالقة وقيل إن ذلك التزاحم كان خطيراً؛ فقد وردت أخبار بتفشى الطاعون فى إشبيلية وأوتريرا وغيرها^(١٩).

زحام وحرب وخطر تركى... كل ذلك أدى إلى جو من العداء والكراهية ليس ضد الموريسكيين الثائرين بل ضد أولئك المسالمين الذين يعيشون فى مدينة مالقة.

وفى اجتماع المجلس بتاريخ ٢٣ مايو تحدث المحلف بدرو لوبيث دى بيالوبوس بإسهاب عن "وجود الأعداء فى قلب بيوتنا"، وأكد أنه إذا كان "المسلمون" يسعون إلى إثارة مسلمى أوربا وأخارنيا فمن الأفضل أن نمنع عنهم الحبوب، وأن نحبسهم فى مخازن المدينة^(٢٠).

تزايد عدااء المسيحيين للموريسكيين كثيرًا عندما بدأت المؤن تقل في المدينة خلال الصيف نظرًا لصعوبة نقل القمح والشعير والزيت ... إلخ من مناطق الإنتاج خوفًا من هجوم الموريسكيين على البغال التي تحمل البضائع.

في ٢٢ أغسطس ١٥٦٩ قررت السلطات المحلية المجتمعة إرسال خطاب إلى خوان دي أوستريا تطلب منه أن يسمح بفرض ضريبة على المتتصرين الجدد في مالقة وروندا تخصص لتجهيز مائة جندي واثنى عشر فارسًا من مالقة ومائتي جندي وأربعة وعشرين فارسًا من رونده.

هؤلاء الحراس سيخصصون لحراسة الطرق وتسهيل تزويد المدن والقرى بالمؤن وتأمين العمل إذ أن العمال كانوا يرفضون الخروج من منازلهم خوفًا على حياتهم وعلى أغنامهم.

لم يكن هذا هو الطلب الوحيد الذي طُلب من خوان دي أوستريا. كان هناك طلب آخر ساهم في زيادة التناحر بين الجانبين؛ هذا الطلب هو "أن يأمر سموه بأن تصبح الغنائم ملكًا لمن يسلبها من الموريسكيين"^(٢١) تقرر أيضًا أن تُكتب رسالة إلى الملك حتى يسمح بذلك.

من الصعب أن نعرف ما إذا كانت بلدية مالقة تعلم نتائج هذا الإجراء على سير الأحداث فقد أدى الإجراء بالفعل إلى حرب شنها المسيحيون الطامعون، سلبوا خلالها متاعهم ونشروا الرعب والفوضى، فلم يعد المهم هو الحرب بل الأسلاب.

تقديم المحلف خوان دي ليون بطلب إلى بلدية مالقة في ٥ سبتمبر ١٥٦٩ تحدث فيه عن كثرة القتل المسيحيين على يد الموريسكيين، وطوّل أمد الحرب دون نتائج.

بدأت الحرب بالفعل تصبح مملة بالنسبة للجميع ما عدا موريسكي بنتوميث الذين هجموا على الفرناتى في مالقة وبالتحديد على مخزن حيون كان يُخزن فيها عليه القوم من مالقة غلالهم. إن الخوف من فقدان الغلال والماشية قد دفع المحلفين

والمراجعين إلى الكتابة إلى الملك لكي يُرسل عددًا يخلصهم من الموريسكيين، وقد أحبط الملك علمًا بما حدث^(٢٢).

يجب أن نركز الاهتمام أيضًا على العبيد المسلمين المقيمين في مالقة؛ فقد هرب بعضهم إلى الجبال وانضموا إلى الثوار وأحاطوهم علمًا بوضع التحصينات. من غير المفهوم حدوث ذلك؛ فقد كانت الأوامر قد صدرت بتقييد العبيد بالسلاسل الحديدية خلال الليل.

في ٥ أكتوبر تلقى أصحاب العبيد المسلمين أمرًا بتفتيش هؤلاء وإدخالهم الأسوار ليلا مع تعرض من لا يفعل ذلك للعقوبة.

وقام كل نائب بتحرير قائمة بالموريسكيين والعبيد المسلمين الذين يدخلون ويخرجون من أبواب المدينة.

وتعين على المسيحيين الجدد الذين يزورون مالقة للعمل أن يقضوا الليل في فنادق بحى المسلمين مع تعرض من يستضيفهم في منزله للعقوبة، وقد طلب إعدام العبيد المسلمين الذين يقبض عليهم^(٢٣).

حتى الآن يمكن القول بأن المجالس البلدية في مالقة تحركت ضد الموريسكيين المتمردين كرد فعل منطقي. لكن منذ ١٦ نوفمبر ١٥٦٩ حدث تغيير جذري؛ فقد طلب المراجع ديبغو دي توريس - يسانده الأعضاء المناهضين للموريسكيين - شن الحرب "ضد المسلمين المسالمين الذين لم يتمردوا بعد فهذا أهم عمل لعلاج بقية الأمور". يؤكد المراجع في طلبه أنهم مسلمون كالآخرين، وأن لديهم نفس الرغبة في الثورة، وأنهم يساعدون الثوار ويزودونهم بالحبوب والماشية.

كان الثوار يعرفون الطرق والمسالك جيدًا عن طريق المسلمين المسالمين فهم يحذرونهم من أي هجوم مسيحي، ولهذا كان الثوار على علم دائمًا.

يؤكد المراجع ديبغو دي توريس أن الحرب لن تنتهى أبداً ولن تكون هناك مؤن كافية إلا بعد طرد المسلمين المسالمين.

وكما نرى، فإن العداء قد وصل إلى درجة إدانة أشخاص بجرائم لم يرتكبوها بعد ولم تثبت ضدهم.

يؤكد أنه لا يجب أن يسمح للموريسكيين المسالمين بالدخول إلى المدينة لمصلحة عامة أو خاصة "كما يحدث عند نقشى الطاعون"، وعلى الموريسكى أن يقيم فى فندق خارج الأسوار، وأن يسجل صاحب الفندق اسم الموريسكى ويوم وصوله ويوم خروجه. إن هذه الوسائل لا غرابة فيها، فهي موجودة فى فرنسا وإيطاليا حتى فى زمن السلم. ويعترف المراجعون المؤيدون لديبغو دي توريس أن هذه الإجراءات قد تؤدي إلى ثورة الموريسكيين لكن ذلك من المناسب "فمن الأفضل أن يعلنوا عداءهم حتى نعلم ممن يجب أن نحذر..."^(٢٤).

وكما يرى القارئ فإنه على مدى أحد عشر شهراً زادت نزعة العداء لدى كل أعضاء المجلس البلدى فى مالقة ضد الموريسكيين لأسباب اقتصادية واجتماعية بل وبسبب الدفاع عن النفس. إن أولئك الذين ظنوا أن الأمر عبارة عن شغب لصوص فى يناير اقترحوا - فى نوفمبر - طرد الموريسكيين الذين لم يتمردوا بعد.

يجب أن نسجل أن الموريسكيين المقيمين فى مالقة لم يظهروا أنهم مسيحيون حقيقة. وقد قام الموريسكيون بجرح أنفسهم حتى يعطف الناس عليهم ويتركوهم فى المستشفيات كمرضى ولا يطردوهم، لكن غالبية الموريسكيين استمرت دون تعميد. إن هذه المقاومة السلبية للشعائر الكاثوليكية قد أوجبت شعور المحلفين والمراجعين بالعداء للموريسكيين. وفى اجتماع يوم ١٨ نوفمبر ١٥٦٩ قيل "إنهم مسلمون كالآخرين تماماً"^(٢٥).

فى ذلك اليوم اقترحت المجالس البلدية فى مالقة على المراجع العام أريبالو دى ثواثو أن يقوم الحاجب بإبلاغ الموريسكيين الغرباء بضرورة التوجه إلى قراهم الأصلية، وأنه قد انقضت فترة الأيام الثلاثة التى حددت لمغادرة المدينة بمقتضى مرسوم يوم ١٢ نوفمبر.

وقد اتهم المراجع العام بعدم الفعالية؛ فبالرغم من فرض غرامة ستة آلاف عملة ضد الموريسكيين الذين لا يغادرون المدينة إلا أنه لم تُحصل غرامات، ولم يطرد أحد. وقد تخلى أريبالو دى ثواثو عن صمته المعهود ورد قائلا "إن طرد الموريسكيين عمل بالغ الشدة"... وإن طرد أولئك الذين كان بإمكانهم التمرد والانضمام إلى الثوار لكنهم "كمسيحيين جاءوا إلينا يحتمون بنا، وقد أحضروا نساءهم وأولادهم ومتاعهم... إن طردهم الآن قد يدفعهم إلى التمرد ولو ضد رغبتهم... وليس من الصحيح أن كل الموريسكيين أشرار كما يقال..."^(٢٦).

من المهم أن نوضح أن ممثل الملك بالتحديد كان له رأى حول طرد الموريسكيين يخالف رأى صفوة المدينة.

استمر المحلفون والمراجعون على رأيهم وقالوا إن الموريسكيين المسالمين مسلمون تمامًا. وإنهم يفيدون الثوار ويرسلون إليهم الأغذية والأسلحة ويستضيفون الجواسيس.

اقترحوا على المراجع العام أن يمنع دخول الموريسكيين وخروجهم، وأن تكون عقوبة المخالفة هى الإعدام، وأن ينفذ الإعدام أى مسيحى...^(٢٧)، وقالوا إن هذا الإجراء ضرورى لأن الموريسكيين يستطيعون مهاجمة المواقع الاستراتيجية. تعاطف مبدئى مع الموريسكيين تحول فى النهاية إلى إصدار حُكم بالإعدام، وهكذا وصلت العدوانية إلى ذروتها.

الحرب يوماً بيوم:

تقدم لنا محاضر اجتماعات مجلس بلدية مالقة معلومات وفيرة خلال أيام الثورة، فبالإضافة إلى الاجتماعات الدورية كانت هناك "اجتماعات حرب" مخصصة بشكل كامل للقضية الموريسكية. إن وفرة هذه المعلومات تسمح لنا بتوضيح تواريخ محددة لأحداث لا توجد في مصادر وثائقية أخرى.

موقعة فريخيليانا:

كانت معركة فريخيليانا في رأي أهم حدث خلال الحرب ضد الموريسكيين في محافظة مالقة. إن اشتراك أريبالو دي ثوثو فيها كأحد القادة الرئيسيين يضيف على المحاضر أهمية كبرى كمصدر تاريخي للمعلومات.

إن المؤرخين الحاليين يتابعون الأحداث كما يرويها مارمول كارباخال وهذا قد جمع معلومات من بيليث وغيرها تكثر فيها المعلومات عن الموريسكيين، كما لو أن رواة الأحداث هم الموريسكيون المطرودون.

فيما يتعلق بالجانب المسيحي يجب أن أوضح هنا بعض الأخطاء في معلومات مارمول كارباخال، هذه الأخطاء ترجع إلى أنه كتب مؤلفه بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً من جمع المعلومات.

في محضر اجتماع يوم ٤ يونيو ١٥٦٩ - وهو "اجتماع حرب" - نُسخَت رسالة بعث بها أريبالو دي ثوثو من بيليث يوم ٣ يونيو. وقد بدأ الاجتماع بهذه الكلمات "أيها السادة، لقد وصل قائد قشتالة صباح اليوم ومعه خمس وعشرون سفينة إلى توري ديلا مار لطرده المسلمين"^(٢٨)، أما النص الذي كتبه مارمول كارباخال فيقول إن قائد قشتالة وصل إلى أدرا يوم ١ مايو، ولم يبق بها غير عدة ساعات ثم سار على رأس خمس وعشرين سفينة إلى مدينة المونيكر حيث علم بما حدث لرجالنا في فريخيليانا ثم أبحر حتى شاطئ بيليث ووصل إلى توري ديلا مار..."^(٢٩).

وهكذا تدل الرسالة التي نُسخِت في محضر الاجتماع على أن تاريخ وصول قائد قشتالة إلى أدرا هو يوم ١ يونية وليس ١ مايو كما يؤكد مارمول.

لا يجب أن نغفل تعليق مارمول على آراء القائدين حول المعركة التي يُعدان لها؛ فالمحاضر أيضًا تتحدث عن ذلك. يؤكد مارمول أنه عندما وصل قائد قشتالة لويس دي ريكينس إلى توري ديلا مار أراد أن يعرف الأحداث من مصادرها فأرسل قاربًا أحضر أريبالو دي ثواثو وناقش الاثنان معًا خطة الهجوم على حصن فريخيليانا. يقول مارمول "وقد عوض هذا النقص [في المؤن] رغبته الصادقة وكمية الرجال والجياد التي يمكن أن تصل وكذلك المؤن..."^(٣٠).

وهكذا نفهم أن أريبالو دي ثواثو قد وعد قائد قشتالة بالرجال والعتاد، ومع ذلك فإن الرسالة التي بعث بها إلى مجلس البلدية ذكر فيها "ربما يطلب صاحب السمو رجالا وإنني أرى ألا يخرج أحد إلا بعد صدور الأمر من المدينة..."^(٣١). وهكذا نرى أن المراجع العام تهمة سلامة مالقة أكثر مما تهمة معركة فريخيليانا.

غنائم ألوثاينا:

من بين أحداث حرب الموريسكيين التي يرويها مارمول بالتفصيل نجد الاستيلاء على الممتلكات في ألوثاينا. إن التحدث بالتفصيل عن الأماكن تدل على أنه استقى روايته من شهود عيان.

يؤكد مارمول أنه في ٥ يوليه تجمع في تولوكس ستمائة موريسكي يقودهم كل من الجبيلي ولورينثو الفقيه، وأنه في يوم ٧ يوليه اختبئوا في خوروث JoroZ وراقبوا حركة خروج الناس ودخلهم إلى ألوثاينا، ولما رأوا أن الرجال قد ذهبوا إلى أعمالهم الزراعية اقتحموا القرية صباحًا. وقد لجأ الأطفال والنساء في القلعة يقودهم إنبيغو مانريكي الذي كان موجودا هناك"^(٣٢).

ورغم دقة التفصيل الزمني، فإن التاريخ غير صحيح. إن محضر اجتماع بلدية مالقة في ٧ يونية ١٥٧٠ يذكر فيه "أن المراجع العام قال إنه وردت رسالة

من إنبيغو مانريكي يتحدث فيها عن وجود المسلمين الثائرين في ألوثاينا، ويتناول فيها قصة الهجوم وحرق الغلال وأسر النساء والأطفال^(٣٣).

إن تاريخ الحادث يرجع إلى ٨ يونيو وليس إلى شهر يولية كما يؤكد كارباخال.

معركة سيرا برميخا:

رأينا أنه يمكن تصحيح بعض الأخطاء الواردة في الوثائق بالرجوع إلى محاضر اجتماعات المجلس البلدي، ونقول أيضاً إن هذه المحاضر تمدنا بمعلومات لا تتوافر في مصادر أخرى مما يمكننا من إكمال دراسة ذلك الفصل التاريخي.

إذا تناولنا معركة سيرا برميخا كمثال، وهي معركة يصفها مارمول كارباخال، نجد أنه لا يكاد يتحدث عن تواريخ متعلقة بالإعداد للمعركة وسيرها. ونظراً لنقص تلك المعلومات، فإنه يستخدم كثيراً لفظ "بعد ذلك" أو لفظ "في ذلك الوقت" أو "في نفس وقت وقوع الأحداث"^(٣٤).

يتحدث مارمول عن تفاصيل كثيرة متعلقة بالفظائع التي ارتكبتها الجنود المسيحيون ضد القرى الموريسكية التي لم تنمرد بعد، ويعرض لنا جهود دوق أركوس لإقناع الموريسكيين المسالمين بعدم الثورة وقبول شروط فيليبي الثاني المعقولة ويخبرنا أيضاً عن دور زعماء الموريسكيين الذين تنصلوا من الاتفاقيات المبرمة، وكان لهم نشاط في عمليات السلب والنهب.

ويبحث القارئ عن تاريخ ما يمكنه من ترتيب الأحداث. أخيراً نجد تاريخ يوم ١٦ سبتمبر (١٥٧٠) الذي قرر فيه الدوق عملية الهجوم بالتعاون مع ميليشيات رونده وماربيا ومالقة وأنتيكر وخيريث.

من حسن الحظ، فإننا إذا اطلعنا على محاضر الاجتماعات في المدن المذكورة، فإننا نحصل على بيانات يمكننا من ترتيب الأحداث: الرفض، الترحيب،

الشكوك، رسائل الملك ودوق أركوس التي يطلبان فيها المساعدات من رجال
وعتاد....

كانت كل مدينة ترد حسب وضعها الاجتماعى والاقتصادى، وحسب
اهتمامها أو عدم اهتمامها بالحرب.

بالنسبة لمالقة، فإنها لم تُفاجأ بمعركة سيرا برميخا، ففي اجتماع بلديتها يوم
٢٨ يولييه ١٥٧٠ قرأت رسالة من الملك بتاريخ ١٣ يولييه يطلب فيها من المدينة
التعاون بأقصى ما تستطيع فى تلك المهمة، ورسالة أركوس يقول فيها إنه عين
قائدًا لكل المشتركين فى الحرب.

وقد سُرَّ مجلس بلدية مالقة لذلك التعيين ووافق على طلب الملك، وكتب
رسالة سلمها بدرو دى مدريد مامباسو إلى الملك.^(٣٥)

ولما وصلت إلى مالقة أنباء المعركة بدأت الاستعدادات؛ فقد توجه الفرسان
إلى الأحياء للتواجد مع الجنود.

فى ٩ أغسطس خرجوا جميعًا فى اتجاه كارتاما. كان الكل مسرورًا كما لو
كانوا فى حفل زفاف. البعض أملًا فى الغنائم، والبعض دفاعًا عن نفسه وعن
حاله، والبعض الآخر تحركه الرغبة فى شن حرب صليبية.

لم يذهب إلى الحرب المجهزون فقط؛ بل إن كل الأشخاص الآخرين الذين
بقوا فى المدينة لحراستها والدفاع عنها ساروا مع المراجع العام بلا نظام...^(٣٦).

تحكى لنا المحاضر وقائع المعركة بالتفصيل، وتبين لنا القلق العام فى
المجلس؛ ففي الليلة السابقة على ١٠ أغسطس؛ لم يبق فى مالقة أحد يقدر على
حمل السلاح، وقد زاد الشعور بالقلق عندما وردت أنباء تفيد بأن موريسكى
بورخى قد عادوا إلى الثورة هم وأهل أخاركيا. وقد زاد القلق عندما علم الناس أن
الأسطول الجزائرى قد استعد.

وتقرر أن يذهب محلف بحثاً عن المراجع العام، وأن يعرض عليه مخاوف المدينة لكي يأمر بأن يعود غير المعينين للحملة إلى قراهم، وأن يعود إلى مالقة المكلفون بحراسة القلعة.

لا أدري ما إذا كان قد لحق به، لكن مارمول كارباخال يؤكد أنه في يوم ١٨ سبتمبر وصل المراجع العام إلى معسكر دوق أركوس ومعه ألف جندي من المشاة ومائة فارس.^(٣٧)

نظم الدوق عملية الهجوم على حصن أربوتى "بحيث كان جنودنا متلاصقين بحيث يستطيع كل اثنين أن يتصافحا"^(٣٨).

لا يجب أن أسترسل في هذه التفاصيل التاريخية التي تسمح بها محاضر المجلس البلدية حتى لا أسئ استغلال صبركم.

الهوامش

- ١- لكتابة هذه الدراسة استعنت بالمحاضر الموجودة في أرشيفات بلديات أرشيدونا ومالقة وبيرا، وبأرشيف كاتدرائيات المرية ومالقة، أما النص النهائي فقد استعنت فيه بأرشيف بلدية مالقة. لهذا ، من الآن فصاعدا سأكتب فقط كلمة "محاضر" ، وسأذكر رقم السجل ورقم الصفحة. المحاضر، ١٨، نسخة من رسالة أدرا، ص ٢٧٢، موجز رسائل القائد لاغسكا التي يشكر فيها وصول المساعدات، ص. ٢٨٠
- ٢- المحاضر، ١٨، ص ٣٨٨، ٢٧٩، المحاضر، ١٩، ص ١٢٥
- ٣- المحاضر، ١٨، ص ٣٥٨، المحاضر، ١٩، ص ٨٠ - ١٢٠
- ٤- المحاضر، ١٨، ص ٣٧٢، ٣٧٤
- ٥- المحاضر، ١٨، ص ٣٦٥ ، ٣٧١ (النص الكامل في المحاضر، ١٩، ص. ١٥٦)
- ٦- المحاضر، ١٤، ص ٢٠٩
- ٧- المحاضر، ١٤، ص ٢٠٨ - ٢٠٩
- ٨- انظر كتاب خوليو كارو باروخا Los moriscos del reino de Granada, Madrid, 1976,p. 154 وكتاب نيكولاس كابريانا Almería morisca, Universidad de Granada, 1982, cap. 8
- ٩- المحاضر، ١٨، ص ٩٧
- ١٠- المحاضر، ١٨، ص ١٠٨ ، ١٠٩
- ١١- المحاضر، ١٨، ص ٢٦٩ - ٢٧٠
- ١٢- المحاضر، ١٨، ص ٢٧١
- ١٣- المحاضر، ١٨، ص ٢٧٣
- ١٤- المحاضر، ١٨، ص ٢٧٥
- ١٥- Mármol Carvajal: Historia del rebelión y castigo de los moriscos del reino de Granada, BAE, tomo XXI, Madrid, 1946,p. 216
- ١٦- للمحاضر، ١٨، ص ٢٧٦
- ١٧- للمحاضر، ١٨، ص ٣٢١
- ١٨- المحاضر، ١٨، ص ٣٥٨. يؤكد مارمول كارباخال أن أهل غرناطة علموا أن ابن أمية أرسل سبعة آلاف مسلم إلى الغرب لنجدة بنتومات وخركية وأويا دي مالقة حتى تنمرد تلك الأماكن، وأنه أشاع أن بحوزته رسائل من (علوش؟) على حاكم الجزائر من قبل السلطان التركي يعده فيها بالنجدة قريبا. ص ٢٦٥

- ١٩- المحاضر، ١٨، ص ٣٥٩
- ٢٠- المحاضر، ١٨، ص ٣٦٠
- ٢١- المحاضر، ١٨، ص ٤٠٥
- ٢٢- المحاضر، ١٨، ص ٣١٥
- ٢٣- المحاضر، ١٨، ص ٣٢٠-٣٢٢
- ٢٤- المحاضر، ١٨، ص ٤٤٤
- ٢٥- المحاضر، ١٩، ص ٣
- ٢٦- المصدر نفسه
- ٢٧- المحاضر، ١٩، ص ٤
- ٢٨- المحاضر، ١٨، ص ٣٧١
- ٢٩- انظر كتاب مارمول المذكور ص ٢٧٣
- ٣٠- المصدر نفسه
- ٣١- المحاضر، ١٨، ص ٣٧١
- ٣٢- مارمول، ص ٣٠٢
- ٣٣- المحاضر، ١٨، ص ١١٥
- ٣٤- مارمول، ص ٣٥٥، وقد درس بنثيث سانشيث بلانكو هذا الموضوع مؤخرا. انظر
Moriscos y cristianos en el condado de Cáceres y Córdoba, 1982.
- ٣٥- المحاضر، ١٩، ص ١٢٥. كان البريد يحمل أيضا رسالة أخرى موجهة إلى رئيس
مجلس الدولة، الكاردينال دييغو دي إسبينوسا، ردا على رسالة كتبها هو ولا يرد نكرها
في المحاضر.
- ٣٦- المحاضر، ١٩، ص ١٥١
- ٣٧- مارمول، ص ٣٥٧
- ٣٨- المصدر نفسه

خصومة بين السيد كوينكا وموريسكي أورناتشوس
فى إقليم إكستريمادورا ١٦٠٧-١٦٠٩
معالم الأزمة بين المسيحيين والمسلمين داخل مجتمع محلى

فيرنانديث نيبيا

منذ مؤتمر مونبلييه عام ١٩٨١، وبعد أن عرفنا مصادر محاكم التفتيش واستعملناها كانعكاس للمجتمع الإشباني آنذاك، بدأت أتوسع فى نوع المصادر المستعملة. كل هذه المصادر مجتمعة تساعدنا فى محاولتنا توضيح أبعاد القضية الموريسكية المعقدة.

والمصادر الجديدة التى استعملتها تتمثل بصفة أساسية فى السجلات الشرعية المحفوظة فى أرشيفات باداخوث وميريدا وثافرا الخاصة بالأعوام ١٥٧٠-١٦١٠. إن هذه المصادر من توكيلات وكتابات أمام كتبة شرعيين (عقود بيع وشراء وهبات وعقود عمل ووصيات... إلخ) تلقى مزيداً من الضوء وتُثرى موضوع القضية الموريسكية من حيث بناء العائلة (نستفيد هنا من سجلات الكنائس) والوضع الاقتصادى والاجتماعى والقانونى للموريسكيين، بما فى ذلك موضوع تحويل الموريسكيين إلى عبيد؛ وهو الموضوع الذى أثاره الأستاذ أراندا دونثيل^(١)، بالإضافة إلى الأمور الخاصة بالضرائب والأمتعة والصراعات، وكل هذه جوانب سأعرض لها فيما بعد.

فيما يتعلق بالصراعات وارتباط هذه الصراعات مباشرةً بصلب موضوع البحث - أقول إن مجمل المصادر التى اطلعت عليها تقول إن الصراعات تظهر فى مستويين:

١. المستوى العادى أو المنزلى، أى المشاكل البسيطة الفردية التى تنتج بشكل يومية نتيجة للتعايش، وهو أمر يشمل المسيحيين والموريسكيين على السواء:

قضايا الجنايات، مشاجرات كلامية، تهديدات، صراع المصالح، تقسيم الأملاك، مقاومة توزيع الأعباء وإقرار العقوبات، الحدود بين القرى، العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج... إلخ.

٢. المستوى العام أو السياسى الاجتماعى؛ وهو يشمل معضلة أبعادها أكبر، يتواجه فيها الفريقان الإسبانى المسيحى، والإسبانى المسلم؛ وهذا الصراع بدوره له مظهران :

أ- المظهر السياسى ذو الطابع القومى أو الدولى أو المحلى: وأعنى بذلك محاولة التمرد التى قام بها الموريسكيون فى أورناتشوس وثافرا وتروخيو وقرى تلك المنطقة مثل كانياميرو وعاليه وبيافرانكا دى لوس باروس أو اتهام موريسكى أورناتشوس بالاتصال بالأتراك أو بالمسلمين فى غرناطة وطُليطلة أو دعاوى مواطنى أورناتشوس باتحاد القرى المجاورة وتمردها^(٢).

ب- المظهر الاجتماعى الدينى:

فى محيط إقليم إكستريمادورا حدث النزاع بين الجماعة الموريسكية فى أورناتشوس وبين عناصر مسيحية قديمة بعضها مقيم فى المنطقة، والبعض الآخر موجود بها بحكم وظيفته، وكان النزاع أحياناً ضد مؤسسات معينة.

وسأتحدث بالتحديد الآن عن هذا الجانب الأخير. يعلم كل المتخصصين فى الدراسات الموريسكية أمر النزاع داخل أورناتشوس - وهو مجتمع كان مسالماً وهادئاً حتى عام ١٥٨٥ - وخاصة بعد زيارة محاكم التفتيش عام ١٥٨٨ وحتى قبيل لحظة طرد الموريسكيين، ولم يكن كفاح الموريسكيين ضد محاكم التفتيش وحدها؛ بل ضد القادة المحليين والقسيس ومؤجرى الأراضى الزراعية والشرطة... إلخ.

إن دراسة الموضوع بشكل شامل تتطلب تناول هذا الجانب فى ثلاث مراحل:

١- النزاع خلال ربع القرن الأخير من إقامة الموريسكيين فى إسبانيا(كيف نشأ الصراع، ما هى أسبابه، من هم الزعماء... إلخ).

٢- عملية الطرد وما سبقها من أحداث^(٣).

٣- استمرارية المجموعة الموريسكية فى المنفى^(٤).

والدراسة التى قمت بها تتحصر فى المرحلتين الأولى والثانية. وفى مؤتمر مونبلييه قدمت دراسة أولية عن النزاع فى طوره الأول^(٥). والآن يتعين تناول الموضوع بشكل تحليلي. إن أزمة موريسكي أورناتشوس قد مرت بعدة مراحل. بدأت المرحلة الأولى بسلسلة من المنازعات القضائية بين البلدية وبينهم؛ وهو ما أدى إلى خلق جو عدائى وكراهية وأعمال انتقامية. أما المرحلة الثانية؛ فقد بدأت بنشاط محاكم التفتيش الفعّال لكنه عاجز عن إظهار "الحقيقة"، وتطور الوضع بوصول القاضى مورينو دى موريدا عام ١٦٠٦. كان هذا القاضى قد أرسل للتحري حول "ما إذا كان الموريسكيون يصنعون عملات مزيفة"، إلا أنه وسّع مجال عمله من تلقاء نفسه ليشمل اتهام الموريسكيين "بالقتل وبالتعامل مع مسلمى إفريقيا". والمرحلة الثالثة والنهائية تبدأ عام ١٦٠٧ بنشاط السيد كوينكا قسيس المنطقة الذى اتخذ الإجراءات الرسمية إزاء تحريات مورينو دى موريدا. إن طلب القسيس من الملك هو الذى عجل بإرسال لوبيث ماديرا المتشدد إلى المنطقة وما أتبعه من عملية الطرد.

هذا الوصف العام الذى قدمناه يوضح لنا أهمية المصادر القضائية - غير الخاصة بمحاكم التفتيش- التى تفسر لنا الأحداث وتُثري الرؤية الشاملة للموضوع.

المصادر والمنهج:

من بين هذه المصادر القضائية التى لم تُستعمل حتى الآن سأستعمل واحداً منها يتعلق بالمرحلة الثانية فى طورها النهائى: "منازعة قضائية تتشكل من ٦١٠ ورقة استمرت منذ أبريل عام ١٦٠٧ حتى مارس عام ١٦٠٩ بدأت إجراءاتها أمام

محكمة إيرينا Llerena أمام النائب العام بدرو دى بياريس أولا ثم أمام نائب مجلس الأوامر العسكرية فى مدريد فيما بعد. كان النزاع بين مجلس بلدية أورناتشوس كمدعى والسيد كوينكا قسيس المنطقة كمدعى عليه^(٦) متهم بعدم تقديم القربان المقدس لهم.

تم قبول الادعاء ثم أُضيف إلى القضية اتهام جنائى آخر ضد المدعى عليه ألا وهو تحريض الشهود. أما القسيس فقد قدم من جانبه دعوى ضد مواطنيه يتهمهم بأن ما ذكروه ضده محض افتراء؛ وهو ما يقوض شرفه ويتعارض مع موقعه كمسيحي أصيل غيور على دينه. من هنا جاء حجم القضية، ومع ذلك فإن القضية ليست كاملة ؛ فقد ضاع جزء من أوراقها من جراء التثقل أو أخفى هذا الجزء عمدًا: إننى أعنى هنا شهادة الشهود الذين أتى بهم السيد كوينكا.

لن أتعرض الآن لتحريات القاضى مورينو دى موريدا - وهى وثيقة قيمة تستحق دراسة منفصلة - والخاصة باتهام الموريسكيين بتصنيع عملات مزيفة؛ وهى جريمة ضد الدولة. إن هذا الاتهام يأتى ذكره هنا، لكن ليست له علاقة مباشرة بالقضية التى نتناولها.

يجب أن أقول فى النهاية إنه تم الإعلان عن انتهاء القضية إلا أنه لم تصدر أحكام: كان قد صدر قرار طرد الموريسكيين، وكانت إجراءات التنفيذ تسير على قدم وساق.

كان موريسكيو أورناتشوس على علم تام بخطورة القضية، والدليل على ذلك هو الحرص الذى ميز تحركهم. كانوا يعلمون أن رفض تقديم القربان المقدس لهم هو بمثابة رفض منحهم الوضع الاجتماعى المناسب لهم كمسيحيين أتقياء، وكان ذلك فى إسبانيا الموحدة دينيًا وسياسيًا أمرًا خطيرًا. علموا أن القضية ستفصل فى أمر حياة وشرف المواطنين و"نقاء عاداتهم"، ولهذا فقد دافعوا عن وضعهم

كمسيحيين مخلصين فهو أمر "لا ينزعه منهم أحد" (٧) كان ذلك هو المخرج الوحيد الذى تبقى لديهم إزاء محاولة تنصيرهم وطمس هويتهم.

إن الوثائق المستعملة هنا تكشف لنا عن موقفين متناقضين كل منهما يعمل ويناور ويتخذ المبادرات بشكل تلقائى دفاعاً عن مصالحه. إن هذه القضية تكشف عن طبيعة كل طرف من أطراف النزاع: طبيعة التشدد والتعصب، أو طبيعة المقاومة، وهى طبائع لم يكن من السهل التوفيق بينها. إن العوامل الدينية تتداخل هنا مع العوامل الاجتماعية والاقتصادية بحيث يصعب التعرف على العامل الأهم والعوامل الأقل أهمية. وعلى مدى القضية تظهر شخصيات أخرى لها مواقفها وحكمها على الأمور. إن هذا النوع من المصادر التى لدينا تمكنا من التوغل داخل أعماق الشخصيات المختلفة التى تنتمى إلى هذا الطرف أو ذاك.

القضية

١ - الدافع والمقدمات وأطراف النزاع:

فى أوائل شهر أبريل عام ١٦٠٧، ربما خلال الأسبوع المقدس الذى يعترف فيه المسيحيون عادةً بذنوبهم، انتشرت شائعة فى أورناتشوس تقول إن "السيد كوينكا أعلن أنه لن يقدم القربان المقدس لمواطنى هذه المنطقة لأسباب لديه..." (٨).

هذا الأمر لم يكن مفاجأة؛ ففى نفس الوقت من العام السابق كان القسيس قد رفض تقديم القربان المقدس إلى المسيحيين الذين طلبوه واستعدوا له. وقد أدى ذلك القرار الذى اتخذه القسيس من جانب واحد إلى أن يتقدم لويس ثاباتا إيدالغو نيابةً عن القرية بطلب إلى النائب العام عن إيرينا، السيد/ بدرو بياريس؛ وهو المكلف قانوناً بمعالجة الوضع وإقرار العدل "إزاء هذا الاستغلال للسلطة". فى هذا الطلب قال إيدالغو إن ذلك الأمر "شئ جديد لم يحدث مطلقاً من قبل فى القرية"، وإنه لما كان القرار عامّاً فإنه ربما يؤدى إلى شائعات وفضائح وأضرار تؤذى من يُطبق

عليهم. وقد عرض كوينكا من جانبه الموضوع من وجهة نظر مختلفة، وتحدث عن "شعائر أجدادهم" و"عاداتهم السيئة"^(٩).

وقال مقدم الدعوى إن القسيس قد أتى بذلك الفعل تحركه الرغبة في النزاع، ولذلك فهو يطلب أن يتخلى القسيس عن موقفه، وأن يقدم القربان المقدس "بلا تأخير وبلا تفرقة بين الناس".

لم يتأخر رد فعل النائب العام، ففي نفس يوم تقديم الطلب أصدر أمرًا يقول فيه إنه استنادًا إلى مقتضى واجب طاعة القسيس له فإنه يأمره " من الآن فصاعدًا بتقديم القربان المقدس إلى كل من يطلبه من أبناء القرية"، وأنه إذا كانت لدى القسيس أسباب تمنعه من ذلك "فعليه الإعلان عن أسبابه خلال يوم واحد من علمه بهذا الأمر، وفي حالة عدم امتثاله للأمر فإنه سيتخذ ضده الإجراءات اللازمة وفقًا للقانون"^(١٠).

لا نعلم ماذا حدث في ذلك العام خلاف ما أوردنا. يبدو أن القسيس قد ردَّ على النائب العام، وأن مواطني القرية قد وُعدوا بتغيير موقف القسيس، وأن الأمر قد ظل على نفس الحال حتى العام التالي.

قبل أن نواصل الحديث نظن أنه من المناسب أن نعلن عن شخصية أطراف النزاع، وأن نشير إلى بعض ملامحهم المميزة.

كانت الأغلبية الموريسكية في أورناتشوس أهم التجمعات الموريسكية في ذلك التاريخ، لا في إكستريمادورا؛ بل في قشتالة كلها وأندلوثيا، ولم يكن يعادلها في الأهمية إلا ريكوتى وبابى في مورثيا وسيرا دى إسبادان في كاستيون بمملكة فالنسيا. لما تحول موريسكيو أورناتشوس إلى المسيحية - كشرط لبقائهم في إسبانيا - كان لهم، بعد ثمانية قرون، وضع فيه تناقض إذ كانوا يحتفظون بجزء من التراث الثقافى الإسلامى العربى داخل إطار كاثوليكي يحيط بهم وهم يضطرون إلى قبوله. كان إيمانهم الإسلامى يجمعهم ويربطهم لكنهم كانوا يعلنون أنهم

مسيحيون أتقياء ورعايا مخلصون. كانوا يمارسون هذا الدور ببراعة فائقة وخاصة الطبقة الحاكمة منهم، وكان الشعب يلتف حولهم. وسنرى فيما بعد تلك الطبقة الحاكمة تتحرك في القضية وتتخذ القرارات وتحدد الاتجاهات دائماً باسم الشعب. لهذا السبب نجد أن القسيس كوينكا يتهم الطبقة الحاكمة بأنهم أعظم الناس ذنباً لأنهم "يقودون الشعب ويدافعون عن القضية باسم الجميع"^(١١)، ولهذا السبب أيضاً تعمل لجنة القاضي لوبيث ماديرا "ضد الطبقة الحاكمة"^(١٢)، لهذا كله نتفهم أن يتحدث الناس عن أورناتشوس "كجمهورية لها رؤساء" أو عن "عالمية هذه القرية" مما جعل مواطنيها "أشخاصاً لهم حنكة في التفاوض بحيث حصلوا ويحصلون دائماً على مرادهم"^(١٣).

معلوماتنا عن القسيس ديبغو دي كوينكا ليست وفيرة، إذ لا نعرف عنه سوى أنه رجل ذين وقسيس المنطقة. للأسف لم يُحتفظ بملفه الخاص بالالتحاق بجمعية سانتياغو، فذلك الملف كان من الممكن أن يُلقى الضوء على شخصيته وحياته الخاصة^(١٤). لدينا معلومات متفرقة عن حياته: منها أنه كان قسيساً في ممبريّا Membrilla بمحافظة قشتالة، وأنه كان ممن يقومون بالتفتيش داخل جماعة سانتياغو؛ لهذا نجده عام ١٥٧٥ كمفتش في أورناتشوس (هل هناك علاقة بين انطباعه عن القرية خلال تلك الزيارة وبين القضية التي رُفعت فيما بعد؟)^(١٥). بعد ذلك عمل قسيساً في قرى قريبة من أورناتشوس : ثارثا دي ألانخي، بيافرانكا دي لوس باروس. (إذن فقد كان يعرف القرية وما يحيط بها). لدينا كذلك معلومات عن إقامته في دير سان ماركوس عام ١٦٠٤، وهو نفس العام الذي وصل فيه إلى أورناتشوس^(١٦). وقد تدخل دون إذن في عمل محاكم التفتيش في إيرينا، مما أدى إلى أن توجه له رسالة احتجاج من قبل نائب المحكمة^(١٧)، وكانت له منازعات قضائية أخرى في القرية وردت إشارات إليها في ملف القضية التي نتعرض لها، منها نزاعه مع ديبغو تيو عام ١٦٠٦ على نحو مائتي وبضع وخمسين ريالاً^(١٨). ليست لدينا دلائل على وجود عيوب أخرى به غير تلك التي عُرِفَت عن القساوسة

آنذاك^(١٩)؛ بل نجده قسيسًا غيورًا مناهضًا لحرك الإصلاح غير متسامح^(٢٠) يرفض في داخله أى طريقة أخرى للتفكير أو الاعتقاد^(٢١). إن ديبغو دى كوينكا يمثل الجهود الأخيرة لتتصير مواطنيه، وقد ألزمهم بتغيير نمط حياتهم.

٢ - قرية أورناتشوس ترفع دعوى ضد القسيس. أسباب الدعوى، وأسماء المدّعين والاستجابات:

لما انتشر نبأ رفض القسيس تقديم القربان المقدس ف ١٦ أبريل عام ١٦٠٧ اجتمع ممثلو العدالة وحكام القرية ونائب الحاكم العام، وخمسة نواب دائمون، وقد فوّضوا السيد/ ألبارو غونثاليث وكاتب الحكومة لوبى دى ثياسفى تمثيلهم أمام المحاكم، وطلب أى شىء فى صالح القرية. وكانت محكمة الدرجة الأولى فى إيرينا.

وفى نص التفويض نجد رد الفعل الأول: " لأن ذلك فيه أذى وإضرار بشرف مواطنى هذه القرية"، ونجد أيضًا هدف إقامة الدعوى " هو ألا يعود القسيس المذكور إلى محاولته، وأن يؤمر بالالتزام بتعاليم الكنيسة، وأن يقدم القربان المقدس للمواطنين كما تلقوه دائمًا"^(٢٢).

كان أول عمل قام به لوبى دى ثياس هو إعلام القسيس بالأمر الذى أصدره النائب العام فى السنة الماضية كمحاولة لحل المشكلة إلا أن القسيس أجاب قائلاً إنه سيرد الآن كما فعل فى العام الماضى^(٢٣).

هناك دليل على أن إجابة القسيس كانت حاسمة؛ فقد أراد الزج بالقساوسة الآخرين فى المشكلة، وأمرهم بعدم إصدار صك اعتراف لأهالى المنطقة. لم يُطع كل القساوسة أمر كوينكا، فلم يكن أحدهم يريد إعطاء "ذريعة لكى يعود الناس إلى الشكوى"^(٢٤).

كان رد فعل كوينكا المشاكس مختلفًا؛ ففي نفس اليوم الذى كان يتأهب لإلقاء الوعظ عندما أمر بتقديم القربان المقدس" عاد وخلع زيه، ولم يلق خطبة الوعظ".

فى اليوم التالى تلقى أمرًا جديدًا بتقديم القربان المقدس لكنه لم يُطع الأمر. فى ذلك اليوم كان هناك كثير من الناس من الحكام والكتبة وغيرهم يطلبون القربان المقدس. فيما يلى رواية الكاتب العام إيرناندو بلانكو:

خرج القسيس وبدأ فى إلقاء الوعظ، بعد ذلك أدار وجهه للناس وطلب أشخاصًا بعينهم غرباء ليسوا من القرية وقدم لهم القربان المقدس، وعندما كان يصل إلى أحد أبناء القرية كان يتركه ولا يقدم له القربان المقدس. عندئذ قال له لوبى ثاياس - وكان جاثيًا على ركبتيه - "اسمع منى كلمة نيابة عن القرية: إننى أطلب منك ألا تفرق بين الناس فى أمر القربان المقدس، وفيما يتعلق بالإهانة؛ فإننى سأشكوك إلى الملك سيدنا".

لم يؤثر ذلك فى القسيس "وتركه جاثيًا على ركبتيه وأهانته" (٢٥).

لم يكن هناك من مخرج للمشكلة سوى التقاضى. ولذلك فقد عيّن كل طرف من أطراف النزاع محاميه ليمثله فى المحاكم. عيّن القسيس كوينكا كلا من السيد/ ميغيل دى مينا والسيد/ فرانشيسكو دى بارغاس [فيما بعد سيشترك معهما أيضًا السيد/ لوكاس سواريث] أما أهالى أورناتشوس فقد عينوا كلاً من السادة خوان كالديرون وبدرو دياث دى ثاراتى وتوماس دى باليسانيو وإيرناندو غارثيا وأورتيث دى أغريدا وفيليبى دى ماتينثو (٢٦).

وفى رده على سؤال حول عدم إطاعته الأوامر الصادرة بتقديم القربان المقدس قال القسيس:

- إن كل رواد الكنيسة من النواب والنساء وكلهم يتحدث اللغة العربية.
- كلهم يؤدى الشعائر والاحتفالات الخاصة بطائفة محمد.
- لا يؤدون تعاليم الله والكنيسة.
- لا يحضرون الوعظ فى أيام الأعياد.

- اعترافاتهم ليست حقيقة.
- ليسوا متدينين كمسيحيين، ولا يتبعون عادات الكنيسة المجيدة.
- أى أنهم عرب مسلمون وليسوا كاثوليكين، ولهذا فلا يمكن تقديم القربان المقدس لهم حتى يتغير موقفهم^(٢٧).
- وقد رد لوبى دى ثياس على كل ما سبق بقوله:
- إن كل مواطنى أورناتشوس مؤمنون وكاثوليكون معمدون، وأنهم منذ تعميدهم يتلقون القربان المقدس من القساوسة بما فيهم القسيس الحالى.
- إن محافظتهم على تعاليم الدين المسيحى قد جعلت الملك فيليبى الثانى يساويهم فى الإنعام بالمسيحيين القدامى.
- لقد عاشوا وماتوا كمسيحيين ولا يستثنى من ذلك سوى الذين ماتوا فجأة.
- والدليل على كونهم مسيحيين أتقياء هو أنهم كونوا جمعيات مسيحية.
- وهم يرفضون الشعائر والاحتفالات التى تُنسب إلى طائفة محمد، ولو أنهم كانوا مسلمين لاكتشفت محاكم التفتيش ذلك ولعاقبتهم.
- إن بعض الأطعمة التى يتناولونها يُعزى تناولهم لها لمسألة التذوق، وهناك كثيرون يتناولون هذه الأطعمة ومن بينهم القسيس نفسه.
- إن عيد العصير عام فى جميع أرجاء المملكة.
- إن كل الاتهامات مرجعها عدا القسيس كوينكا لهم طبقاً لمصالحه الخاصة.
- لكل ذلك فهم يطالبون بأن يقدم القسيس القربان المقدس لهم^(٢٨).
- هناك تعديلات كثيرة وردود ثم ردود على الردود، وقد قرر القاضى - بعد سماع دعاوى الطرفين - أن يقدم القسيس كوينكا القربان المقدس لكل من يطلبه^(٢٩).

علم القسيس بالقرار، وحضر إلى الكنيسة عدد كبير من أهالي أورناتشوس؛ لكنه رفض تقديم القربان المقدس لهم^(٢٠) واشترط أن يغيروا موقفهم علانية، وقال "إنه لا يكفي أن يكون الإنسان مسيحيًا بالتعميد لكي يتلقى القربان المقدس، واتهمهم باستعمال اللغة العربية وعدم أكل لحم الخنزير، وعدم شرب الخمر، وممارسة عادات المسلمين أجدادهم، وأن مسلكهم ذلك إنما هو استغلال لقوانين المملكة، واتهم الطبقة الحاكمة والأثرياء بالدفاع عن كل الأهالي، وأن هؤلاء الوجهاء لو تخلوا عن الدين الإسلامي ومارسوا الدين المسيحي كما ينبغي لاتبعتهم عامة الشعب كما تتبعهم الآن"^(٢١).

اشترط خوان كالديرون - باسم أهالي أورناتشوس - أن يلتزم القسيس بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه؛ بل وإعلان تمرد القسيس على الكنيسة، واتهم القسيس بعدم الحيطة مع أن المفترض فيه أن يكون قدوة للناس، وأن يسلك مسلك المسيح مع يهودا، وأن يصلح الناس باللين والكلام الطيب. وبدأ خوان كالديرون في شرح العادات والشعائر التي يُقال إنها إسلامية وبيّن أنها ليست كذلك، وأن أحدًا لا يستطيع أن ينفي أن أهل أورناتشوس مسيحيون مخلصون^(٢٢). وهكذا لم يكن هناك بُد من طلب الأدلة.

٣ - طلب الأدلة واستجواب الشهود:

أُشِرَّت إلى استجواب أطراف النزاع ولخصت مضمونه. اجتمع الأهالي واختاروا أربعة أعضاء "للإجابة على الأسئلة التي يطرحها القسيس"^(٢٣).

أعرب أطراف النزاع عن تحفظاتهم تجاه شهادات الشهود، وهذا يدل على وجود جو من الشكوك وعدم الثقة في مصادر الأخبار. وهكذا بينما كان القسيس يتهم الكتبة الشرعيين بالقربة كان يطلب من النائب العام تفويضًا باختيار كتبة آخرين^(٢٤). أما المجلس البلدي من جانبه فقد طلب رد شهادة كل الكتبة الشرعيين الموجودين في الدائرة المحيطة بأورناتشوس^(٢٥).

كان القسيس يرفض تنفيذ الأوامر ويطلب شهادة المسيحيين القدامى المقيمين بالقرية، أما أهالي أورناتشوس فكانوا يطلبون أن يذهب شهود القسيس إلى الملك، وأن يقوم جلالته شخصيًا باستجوابهم. كان هناك من يريدون التواجد لدى قيام الشهود بحلف اليمين، وكان القسيس يطلب أن تكون الأيام الأولى في الاستجواب له، وتُخصص الأيام الأخرى للطرف الآخر، وكان هناك من يطلب مد الفترة القانونية... إلخ^(٣٦).

وقد عين النائب العام لإيرينا - بعد موافقة أطراف القضية - عين بدرو ماتئوس قسيس ماغيا وعضو محاكم التفتيش للاستماع إلى شهادة الشهود^(٣٧).

بعد وصول بدرو ماتئوس إلى القرية كان كوينكا هو أول من قدم شهودًا وتم الاستماع إلى شهاداتهم في الفترة بين ٣٠ أبريل و ٧ مايو.

كان عدد الشهود عشرين، كلهم من أورناتشوس عدا واحد مقيم في إيرينا وخياط برتغالي مقيم في إيرينا أيضًا واسمه أمارو غونثاليث^(٣٨). ما لم يتوقعه القسيس هو أن يشهد الشهود بطريقة مخالفة للمراد من الأسئلة التي طرحها. قال الشهود:

- إن أهالي أورناتشوس يتحدثون القشتالية، ولا يتحدثون العربية إلا كمسيحيين قدامى.
- من حيث الشعائر رأى الشهود العكس تمامًا؛ فهم يأكلون الخنزير ويشربون الخمر.
- إن حصاد العنب وأعياده تتم عند نضج المحصول كما يحدث في القرى الأخرى.
- إن الأهالي يذهبون إلى الكنيسة عادةً إلا إذا كانوا في الخارج.
- إن الشهود رأوا الأهالي وهم يطلبون القربان المقدس.

إن من بين أهالي أورناتشوس هناك بعض رجال الدين المسيحي.

وفى ١٤ مايو أخبر بدرو ماتئوس النائب العام أنه قد أتم استجواب شهود القسيس، استمر استجواب شهود مجلس البلدية من ٧ مايو حتى أوائل يولييه ١٦٠٧، ويُعزى طول فترة الاستجوابات إلى كثرة عدد الشهود، وإلى رد شهادة بعضهم من قِبل القسيس، وقد أمر للقاضى أن يتم استجواب كل الشهود من قبل بدرو ماتئوس^(٤١).

كان عدد شهود المجلس ثلاثة وأربعين شخصًا منهم مسيحية قديمة وقسيس^(٤١) شهدوا جميعًا فى صالح المجلس، وقد أكد كريستوبال دى سالتيدو أنه وفد إلى القرية وعمره عامان، أى تربى مع أهالي أورناتشوس^(٤٢).

ويبدو أن كوينكا قد شعر بأن شهادة الشهود لن تكون فى صالحه فطلب الإطلاع على استجوابات مورينو دى موريدا خلال العام الماضى^(٤٣) وبالفعل تم نقل نص الاستجوابات، وكانت تكاليف استخراج النصوص مرتفعة، وكان القسيس قد أنفق على القضية كل مدخراته، فطلب من جمعيته الدينية مبلغ أربعمئة ريال، وهكذا تمكن من استخراج المعلومات التى أرادها، وهو أمر سيمكنه من الانتصار فى النهاية كما سنرى فيما بعد^(٤٤).

٤ - رد الشهود. دعاوى ومعلومات أخرى:

تم الإعلان عن شهادة الشهود فى ٢٧ يولييه ١٦٠٧ . كانت المدة المحددة لرفض شهادة الشهود - إذا توافرت أسباب ذلك - هى ستة أيام، ولهذا فقد تقدم القسيس فى ١ أغسطس برفض كل الشهود: شهود البلدية، وشهوده هو شخصيًا.

قال عن شهود البلدية إنهم فقراء ومستأجرون، وأنهم مدينون لأصحاب القرية، ولذلك فإنهم أدلوا بشهادتهم على ذلك النحو بدافع الخوف، وقال عن الشهود الوافدين من خارج القرية إنهم أعداء له، وهناك منازعات معهم، وإنهم يحبون أهالي أورناتشوس.

وقال عن شهوده الذين قدمهم هو شخصيا إن بعضهم من الفقراء ويعيشون بفضل معاملاتهم مع أهالي أورناتشوس.

نتيجة لكل ما تقدم طلب القسيس شهودًا آخرين يُدلون بشهاداتهم أمام النائب العام "حتى يقولوا الحقيقة بحرية، وحتى لا يتعاملوا مع آخرين دفعًا للشبهات". في ذلك الوقت قدم استجوابات مورينو دي موريدا^(٤٥) التي أشرنا إليها.

قال خوان كالديرون عن الإجراء الذي اتخذه القسيس كوينكا إنه "ينم عن سوء نية". لقد رفض شهادة الشهود أمام الكاتب الشرعي، لا أمام القاضي، في وقت لا يسمح بإعلان الطرف الآخر به لكي يرد عليه. وقال عن استجوابات مورينو دي موريدا إنها لاغية لأسباب عديدة منها أنها تتعلق بواقعة مختلفة، وأشاد بشهود أهالي أورناتشوس؛ فقال عنهم إنهم "أهل صدق وشرفاء وأصحاب صيت ورأى بعضهم قساوسة، وبعضهم محامون ومعظمهم مسيحيون قدماء وكلهم قال الحقيقة دون هوى" لكل ذلك فلا يمكن رد شهاداتهم؛ بل يجب رفض طلب القسيس^(٤٦).

سافر كوينكا إلى العاصمة لإبلاغ جلالة الملك والسادة أعضاء المجالس بتطورات القضية مما شغله عن تقديم ردود، ولهذا فقد طلب فيما بعد من النائب العام العودة إلى النقطة التي كانت القضية قد وصلت إليها قبل سفره^(٤٧). عارض الطرف الآخر كل ذلك، وقال إن ذلك المطلب مرفوض إذ ليس له أساس^(٤٨).

يُضاف إلى ما سبق تبادل الاتهامات بين الطرفين، وقد قدم خوان كالديرون اتهامًا جنائيًا ضد القسيس.

فقد وردت أنباء صحيحة إلى أهالي أورناتشوس أنه - أي كوينكا - يحاول أن تتناقض أقوال الشهود، وأن يشهدوا بشيء يخالف ما هو مسجل ... إنه بهذا المسلك الضال يحاول توجيه الشهود لصالحه.

لذلك فإن المتهم - كوينكا - قد ارتكب جريمة تستحق العقاب، والمطلوب هو التحري عن ذلك، وفي حالة ثبوت التهمة يجب اعتقاله ومحاكمته بحزم^(٤٩).

فى مواجهة ذلك ؛ قدم كوينكا من جانبه اتهامًا جنائيًا ضد أهالى أورناتشوس لأنهم لا يخافون الله ولا يراعون شرفى وتدينى وغيرتى على المسيحية التى تجعلنى أواصل القضية، وقد كذبوا وقالوا إننى قدمت رشوة للشهود وطلبت منهم أن يكذبوا ما قالوه سابقًا من أن أهالى أورناتشوس مسيحيون مخلصون.

ولهذا فقد طلب الاستماع إلى شهوده مرةً أخرى لكن النائب العام رفض الطلب، ولما ألح القسيس فى طلبه أمر النائب العام بتنفيذ قراره^(٥٠).

واستجابة لشكوى المجلس؛ فقد فوض بدرو دى بياريس السيد/ خوان ديلغادو فى الذهاب إلى أورناتشوس للتعرف على شهود المجلس والاستماع إليهم حتى يمكن إقرار العدل...^(٥١).

فى يوم ١٣ سبتمبر وصل خوان ديلغادو إلى أورناتشوس وطلب الاستماع إلى الشهود، وبين يومى ١٥ و ٢٢ سبتمبر استمع إلى أربعة شهود كلهم أكدوا واقعة الرشوة التى عرضت عليهم^(٥٢).

فيما يلى جزء من شهادة لاثارو خيل:

ذات يوم استدعى كوينكا هذا الشاهد، ولما سأل الشاهد من أرسلهم كوينكا إليه عن مرادهم قالوا إن كوينكا قد جُنّ ولا بد من علاجه من الجنون ... ولما ذهب إليه سألته عن شهادته فقال إنه شهد الحق. قال كوينكا إن بقية الشهود يقولون إن الكاتب الشرعى هو الذى كتب ما هو مسجل فى المحكمة، وإن الشاهد بإمكانه التوصل مما هو مسجل، فقال الشاهد إنه قال الحقيقة ولن يغيرها لا لإرضائه ولا لإرضاء غيره. فحاول كوينكا استمالته وعرض عليه تصويره^(*) فأبى الشاهد كذلك

(*) أى أن يكلف أحدًا بأن يرسم له صورة، وكانت تكاليف رسم الصور آنذاك مرتفعة للغاية.
(المترجم)

فقال كوينكا إنه سيعلن أنه ارتد عن الكنيسة وسيجعله ينفق كل ثروته لمعالجة ذلك^(*). وقال الشاهد إنه يعلم أن كوينكا فعل نفس الشيء مع الآخرين^(٥٣).

أراد المجلس توسيع نطاق الشهود والاستماع إلى شهادة رهبان ثالاميا^(**) فطلب الإذن بذلك، وجاء في التصريح بالاستجابة لطلبهم أنهم "ممن يقدمون هبات كثيرة إلى دير سان إديفونسو" على حد تعبير جوان دي بارغاس^(٥٤).

وبناء على طلب لويس ثاباتا ؛ فقد شهد ستة رهبان في ثالاميا بأن أهالي أورناتشوس مسيحيون أتقياء. هؤلاء الستة هم فيليبي غونثاليث، ألونسو أمادور، خوان روميرو، كريستوبال دي باث، سيباستيان دي الغارو، وبديرو دي ثالاميا^(٥٥).

مر الوقت، وكان النائب العام قد منح القسيس كوينكا مهلة أخرى مدتها أربعين يومًا لتقديم شهود. لم يتقدم الشهود الأصليين للإدلاء بأقوالهم "لأنهم خارج القرية" فقدم شاهدين جديدين أحدهما من إبيرا والثاني من أثواغا^(٥٦) لكن شهادتيهما غير موجودتين في ملف القضية^(٥٧).

منذ تلك اللحظة تمثل هدف محامي أهالي أورناتشوس في إصدار الحكم في القضية^(٥٨). أما الطرف الآخر - كوينكا - فكان يسعى إلى إطالة أمد القضية "تظرًا لأهميتها الاستثنائية وإجلاء الحقيقة"، ولما فشل في الحصول على ذلك من النائب العام فإنه طلب إذنًا ملكيًا بذلك. وقد حصل على الإذن في ١٨ أكتوبر عام ١٦٠٧. ورغبةً منه في حسم القضية؛ أصدر النائب العام قرارًا في ٧ نوفمبر يقول:

(*) نفهم من قضية كوسمي بن عامر الواردة في كتاب "الموريسكيون الأندلسيون" أن اتهامها بالردة عن المسيحية كان يكلف المتهم ثروة طائلة، بين نفقات التقاضي ودفع تكلفة السجن والحراس. انظر الكتاب المذكور، تأليف غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١)

(**) قرية ثالاميا هي التي تقع فيها أحداث مسرحية "عمدة ثالاميا" الشهيرة، والتي انتقم فيها العمدة لشرفه من ضابط إسباني. الجدير بالذكر أن لوبي دي بيغا كتب هذه المسرحية، ثم أعاد صياغتها كالديرون دي لا باركا. (المترجم)

بعد الإطلاع على ملف القضية، ولما كانت مدة الاستماع إلى الشهود قد بلغت ثمانين يومًا ثم مُدت أربعين يومًا أخرى ثم ثلاثين... ولأن من العدل أن تكون هناك نهايات للقضايا وألا تكون القضايا بلا نهاية؛ فإننى أمر بأن ينتهى السيد كوينكا من تقديم شهوده خلال ثمانية أيام، وأن يتمكن أى طرف من الاستماع إلى الاستجوابات^(٦٠).

وهذا القرار أكدّه فيما بعد السيد بيباريس بعد مرور عشرين يومًا - لا ثمانية - على القرار الأول.

كان القسيس كوينكا يريد فرصة غير محددة المدة؛ لهذا فقد قدم استئنافًا ضد القرارين اللذين أصدرهما النائب العام، وطلب إلغاء الآثار المترتبة عليهما^(٦١). لم يكن أمام كوينكا حل آخر؛ فقد كان على وشك أن يخسر القضية.

٥ - كوينكا يستأنف: القضية تُحجز للحكم:

كان القسيس فى وضع خطير بعد صدور قرار النائب العام فى ٢٣ نوفمبر ١٦٠٧ الذى يقضى بأن يمثل أمامه كوينكا فى اليوم التالى للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الجنائية التى قدمها مواطنو أورناتشوس، وفى حالة عدم تنفيذ ذلك فإنه سيعلن تمرده على الكنيسة، ولهذا فقد طلب القسيس إلغاء القرار، وطالب بأن يتولى أحد رجال النيابة الدفاع عنه فى القضية.

وبالفعل فى ١٣ يولييه؛ كان القسيس قد طلب ذلك فى رسالة وجهها إلى رئيس محكمة الاستئناف.

لقد دفعتنى الغيرة على الدين إلى توجيه الأهالى إلى أداء العبادة بحيث لا تشوبها شعائرهم القديمة التى ورثوها عن أجدادهم والتى يحتفظون بها منذ مائة عام. ولأننى لم أستطع أبدًا إبعادهم عن عاداتهم الممنوعة، كما أشرت فى رسالة وجهتها إلى سمو الأمير وإلى الملك سيدنا، ولأن هذه القضية خطيرة لا يجب أن يصدر الحكم فيها النائب العام فإننى أرى أن قضية بهذا الشكل لا يجب أن يصدر

الحكم فيها إلا سمو الأمير، ولهذا أرجو أن يطلب سمو الأمير من النائب العام إرسال ملف القضية إليه^(٦٣).

وبالإضافة إلى ما تقدم ؛ قال القسيس إنه لما كانت شهادة الشهود الذين قدمتهم تدين أحد خدم النائب العام ويدعى بدرو ماتيوس، فإن تلك الشهادات لا يجب أن يطلع عليها النائب العام^(٦٤)، وطلب أن تُحال الوثائق إلى الملك.

اعترض أهالي أورناتشوس على ذلك، وقال ممثلهم بدرو دياث دى ثاراتى إن على المحكمة أن تفصل فى القضية أولاً ثم يستأنف الحكم من يشاء أمام سمو الأمير^(٦٥).

بعد إلحاح كوينكا، وتعلله باحتياجه إلى المال، ولذلك يطلب أن يتولى الدفاع عنه أحد رجال النيابة إذ أن القضية لا تخصه وحده^(٦٦)، قررت محكمة الاستئناف:

أن تختص هى بنظر القضية، وأن يُرسل إليها ملف القضية، وأن يقدم القسيس القربان المقدس للمواطنين الذين ثبت أنهم اعترفوا أمام قسيسين مجازين، وأن يتولى السيد إنريكي تقدير تكاليف القضية التى دفعها كوينكا من ماله الخاص لكى يسترد هذا المال. التاريخ ١٩ ديسمبر ١٦٠٧^(٦٧).

استطاع كوينكا إذن أن يذهب بالقضية إلى العاصمة، وكان ذلك هو انتقامه. لن يستطيع أحد القبض عليه وإيداعه السجن، ولن يهدده أحد بإعلان تمرده على الكنيسة، ولن يخسر القضية. لسنا متأكدين من أن كوينكا قد نفذ الأمر السابق بشكل حرفى. منذ تلك اللحظة غيم ضباب كثيف على القضية. لن تُجدى شكوى الأهالى مع أنهم أهل علم وأصحاب ضمير ورأى...^(٦٨).

فى عام ١٦٠٨ كانت القضية قد تحولت إلى شىء ماضٍ، ففى نفس العام شب نزاع مدنى بين نفس القسيس والسيد/ ديبغو ثيو، وكان من بين ما قاله كوينكا فى القضية إنه... قد رفض تقديم القربان المقدس لأهالى أورناتشوس، ولهذا فهم لا يحبونه...^(٦٩).

نستطيع أن نحدد تكاليف القضية التي دفعها كوينكا استنادًا إلى المذكرة التي تقدم بها لكي يسترد ما دفعه ؛ لكننا لن نفعل ذلك منعًا للإطالة. الوثيقة لا تخلو من أهمية، إذ تقدم لنا فكرة عن نشاط كوينكا والتحريرات التي لا تظهر كلها في ملفات القضية.

حتى أبريل عام ١٦٠٨ لم تكن القضية قد نُظرت أمام محكمة الاستئناف استنادًا إلى الشهادة التالية:

استلمت أنا/ لوкас غوتيريث دي المينارا، مدعى محاكم التفتيش، من ألونسو غارثيا دي لا ثوري كاتب محكمة إيرينا ملف قضية بين السيد/ ديبغو كوينكا... يتكون ملف القضية من ٦١٠ ورقة، وقد استلمت الملف لاستخراج أقوال منه. تحريرًا في ١٦ أبريل ١٦٠٨ (٧٠).

اتهام بتزييف العملات، اتهام بعدم تقديم القربان المقدس، اتهام بارتكاب جرائم ومحاولة إثبات ذلك بناء على طلب القسيس في القضية التي عرضتها (٧١). تجمعت المصائب فوق رؤوس موريسكي أورناتشوس بسبب دسائس شخص واحد اسمه ديبغو دي كوينكا.

بعد مرور عام على تحويل القضية إلى مدريد أصدر نائب محكمة الاستئناف القرار التالي:

بعد الإطلاع على الملفات، وبناء على طلب القسيس نطلب الإطلاع على استجابات مورينو دي موريدا ... (٧٢).

إذن فقد عاد تقرير مورينو دي موريدا ليكون هو الكلام النهائي في الأمر. سأعود إلى ذلك الموضوع في مناسبة أخرى.

أبلغ قرار نائب محكمة الاستئناف في ٧ مارس عام ١٦٠٩ ولم يفعل شيء في الأمر (٧٣).

كانت القضية جاهزة للحكم، وكانت عملية طرد الموريسكيين تسير على قدم وساق.

الهوامش

- ١- انظر كتاب:
Aranda Doncel: *Demografía morisca en tierra de Cordoba: analisis y valoración de las fuentes* (1569-1610)
"وفي عام ١٥٩٤ باع مواطن من إشبيلية إلى مواطن من بداخوث امرأة مورييسكية اسمها كاتالينا... وباع معها أيضاً فتاة هي ابنة كاتالينا المذكورة... والثمان مائة وخمسون ذوقية" انظر:
- Badajoz. AH.P.Leg. 127, fol.322.
- ٢- عالجت الناحيتين في دراسات سابقة، والقضية الحالية تشير إلى الجانب الأخير هل هي أسطورة أم حقيقة؟ في هذا المؤتمر نفسه يجرى ماركيث بيانويبا أول تقييم للمشكلة التاريخية في بحثه بعنوان "أسطورة المؤامرة".
- ٣- على المستوى المحلي أعتقد أن مجموعة أورناتشوس قد دخلت تاريخ الأدب وذلك من خلال "كوميديا مورييسكي أورناتشوس" التي تحكى الأحداث التي سبقت عملية الطرد ثم الطرد والتي أنوى نشرها قريباً.
- ٤- حول هذه الاستمرارية كتب كل من غوثالبيس بومستو وخيل غريماو وفيكيه
- ٥- انظر:
- l enfrentamiento entre moriscos y cristianos viejos. El caso de Hornachos en Extremadura, en Table – Ronde Internationale sur "Les Morisques et leur temps", ed. L. Cardaillac.
- وهو تحت الطبع حالياً.
- ٦- انظر:
- AHN.OO.Militares. Archivo judicial. Santiago.Pleito nº 6381
والوثيقة تتضمن ٦١٠ ورقة موزعة على ثلاث كراسات. الأولى والثانية ٢١٤، ٣١٧ ورقة وبها معلومات مورينو دي موريدا .
أود أن أشكر هنا السيدة كونثيثيون دي لا فوينتي المسئولة عن القسم لمساعدتها لي في العثور على الوثيقة فيما بعد سأشير إلى الوثيقة بالرمز التالي :
- Cuad 1º, IIº , IIIº Dec. Suelta
- Cuad I, fols. 22-23
- ٧-
- ٨- المصدر السابق، ص ١

- ٩- المصدر السابق، صفحات ١، ٣-٤، ١٢-١٣
- ١٠- المصدر السابق، ص ٣، ٤، ٥
Llerena, 22 marzo 1606
- ١١- المصدر السابق، ص ١٩-٢٠
- ١٢- Doc. Suelta. Carta de Felipe Matienzo, a marzo 1609
- ١٣- Cuad III, fol. 2 v.
- ١٤- انظر:
- Javier Mur, A.L. Perez Castaneda:
Pruebas para ingreso de religiosos en la Orden de Santiago.
- ١٥- أشرت إلى هذه المشكلة في:
- Los libro de Visitas: fuente para el estudio de las encaminadas de Ordenes Militares. La de Hornachos en 15-75, en Historia Moderna. *Actas de las II Jornadas de Metodología y Didáctica de la Historia*. Universidad de Extremadura. Servicio de Publicaciones. (aceres 1983, pp. 341-364
- ١٦- AHN.OO. Militares. Santiago 1409.
- ١٧- Ibid, Inquisición, leg. 1988 exp. 10
- ١٨- A.D.B. Priorato de Llerena, leg. 894 no 30716 Hornachos, 1608.
- ١٩- أشار إلى قساوسة إكستريمادورا كل من:
- Teston Núñez – Santillana Pérez : El clero cacereño durante los siglos XVI al XVII en Historia Moderna. Actas ...pp.463-472.
- ٢٠- حول نموذج القسيس راجع:
- Meersseman Il tipo ideale di parroco secondo la riforma tridentina nelle sue fonti letterarie , en il concilio di trento e la Riforma tridentina. Roma 1965.
- حول الكنيسة والإصلاحات راجع:
- Llorca: La reforma disciplinar de la iglesia y el concilio de Trento en Razón y Fe (1945).
- عن الكنيسة وتصير الموريسكيين راجع :
- Historia de la Iglesia en España III BAC, Madrid 1979-80.
- ٢١- Cuad I, fols. 22-23 v.
- ٢٢- المصدر السابق ص ١. أورناتشوس في ٦ أبريل ١٦٠٧ ليست لدينا للأسف أعمال

مؤتمر الأساقفة والتي أشار إلى أهميتها كإبريانا ثيمار في محاضراته.

Cuad.I, fol 4. Hernachos 7 abril 1607	-٢٣
Ibid fols.5-6 Hornachos y Llerena 8 y 11 abril	-٢٤
Ibid fols. 6-7 y 11-12 Llerena 10 abril y Hornachos 11 y 12.	-٢٥
Ibid fols. 8	-٢٦
Ibid fols. 9, 9v, 47 – 48v.	-٢٧

انظر كذلك الوثيقة الأولى في الملحق.

Ibid fols. 12-13v.	-٢٨
Cuad I, fols. 14-15	-٢٩
Ibid fols. 16	-٣٠
Ibid fols. 19-20v.	-٣١
Ibid fols. 22-23v.	-٣٢
Ibid fols. 50.	-٣٣
Ibid fols. 21v. y 37-37v.	-٣٤
Ibid fols. 28 y 32	-٣٥
Ibid fols. 21, 24v. 51-52v.	-٣٦
Ibid fols. 49-49v.	-٣٧
Ibid fols. 53-109	-٣٨
Ibid fols. 60v – 65	-٣٩
Cuad. I.fols 35, 46-46v.	-٤٠
Ibid fols. 116-211	-٤١
Ibid fols. 116-121	-٤٢
Ibid fols. 39.	-٤٣
Doc. Suelta Madrid 18 julio 1607	-٤٤
Cuad III. Fols 1-2v.	-٤٥
Ibid fols. 4-5v y 10-12	-٤٦
Ibid fols. 18	-٤٧
Ibid III. Fols. 9-9v.	-٤٨
Cuad.I. fols. 2-2v.	-٤٩
Doc. Suelta. Llerena 6 September 1607	-٥٠
Ibid Lerena 12 septiembre 1607	-٥١

Ibis 13 y 22 septiembre	-٥٢
Ibis Zarza de Alange 13 septiembre 1607	-٥٣
Cuad.I, fols.113-114 CuadIII, fols 31,51-53 y 57-57v	-٥٤
Cuad.III, fols. 54-74.	-٥٥
Ibid III fols 32-32v.	-٥٦
Ibid III. Fol. 35.	-٥٧
Ibid III, fols. 33 y 34.	-٥٨
Doc. Suelta.	-٥٩
Cuad. II. Fol. 38v.	-٦٠
Ibid III, fols. 40-41v. y 42	-٦١
Doc. Suelta Llerena 23 noviembre y Madrid 10 diciembre	-٦٢
Ibid Madrid 13 julio 1607	-٦٣
قبل ذلك قد أشار إلى صداقته للمجلس " بدرو ماتيوس المذكور صديق حميم لهؤلاء وعادة ما يتواجد معهم ويأكل، معهم إنه سيفشى الأسرار قبل موعدها."	-٦٤
Caud.III. fols.29/29v.	
Doc. Suelta	-٦٥
Ibid Madrid 10 y 17 diciembre	-٦٦
Ibid Madrid 19 diciembre 1607	-٦٧
Cuad. III. Fols. 75-75v	-٦٨
A.B.D. Priorato de Llerena. Leg. 894 nº 30716	-٦٩
A.B.D. Priorato de Lerena leg. 894.	-٧٠
Doc. Suelta.	-٧١
Doc. Suelta Madrid 7 marzo 1609	-٧٢
Ibid.	-٧٣

ملحق وثائقي
استجابات
الأول*

أُسئلة يُجيب عنها الشهود الذين يقدمهم السيد/ ديبغو دي كونيكا ...
قسيس قرية أورناتشوس في نزاعه ضد مجلس وأهالي القرية بسبب
رفضه تقديم القربان المقدس لهم.

١	أولاً هل يعرفون كلاً من لويس ديل باركو، البارو دي ألاكون، ديبغو دي بيالوبس وفرانثيسكو كوردوبيس ونواب القرية الآخرين الذين يمثلهم البارو غونثاليث ولوبي دي ثاياس، وما مدى علمهم بالقضية وعلمهم بالقانون؟
٢	هل يعلمون أن الأشخاص المذكورين سابقاً وأهالي القرية بصفة عامة يتحدثون فيما بينهم باللغة العربية بحيث لا يفهمهم المسيحيون، وأن النساء بصفة خاصة يتحدثن بالعربية، وأنهن - لذلك - أشد انغلاقاً، وأنهن لا يستطعن فهم ما يقوله القسيس، وأن اللغة العربية - لكل ذلك - عقبة في سبيل إنقاذ أرواحهم كما أنها تؤذي المسيحيين القدامى الذين يعيشون بينهم؟
٣	هل يعلمون أن النواب المذكورين وأهالي القرية عامة لا يأكلون لحم الخنزير، ولا ما شابهه، ولا يشربون الخمر، وأنهم يكرهونها لدرجة أنه لم يحدث أن أحداً منهم ربّى خنزيراً في بيته أو قام بذبح خنزير، ولا أعدّ

* - A.H.N.OO.Militares . Archivo Judicial. Santiago. Pleito nº. 6381 fols. 47-480.

	خمراً رغم أنهم لديهم مزارع العنب؟
٤	هل يعلمون أن أهالي القرية يتناولون في أول أيام العام الجديد طعاماً اسمه غرانون عبارة عن حبات قمح مسلوق باللبن، وأن هذا الطعام عام لدرجة أن كل بيت يجب أن يتناوله حتى لو كان أهله فقراء؟
٥	هل يعلمون أن أهالي القرية يحتفلون بعيد العصير في شهر سبتمبر، ويذهب الرجال والنساء راكبين الخيول إلى حيث مزارع العنب ويمكنون هناك عشرين يوماً لا يستمعون إلى وعظ، وأن هذه الحفلات تشبه حفلات اليهود، وهل يُبرمون عقود الزواج خلال هذه الاحتفالات؟
٦	هل يعلمون أن أهالي القرية يتحدثون اللغة العربية الممنوعة، وأنهم – هكذا – يحتفظون بدين أجدادهم المكتوب باللغة العربية، كما أنهم يحتفظون بهذا الدين بعدم شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير في بيوتهم، وأن المحيطين بأهالي القرية يرتابون في عاداتهم؟
٧	هل يعلمون أن أهالي القرية لا يحافظون على تعاليم الكنيسة التي تقضى بسماع الوعظ في أيام الأعياد، وأنهم – وعددهم أكثر من ألفين وخمسمائة – لا يذهب منهم إلى الكنيسة سوى ثلاثمائة، وأن من يذهب إلى الكنيسة في يوم لا يذهب في اليوم التالي ويمكنون في بيوتهم بحيث لا يذهب منهم إلى الكنيسة سوى العُشر؟
٨	هل يعلمون أنهم لا يذهبون إلى سماع الوعظ، وأنهم لا يحترمون الأعياد فيعملون في الحقول أو يمكنون في بيوتهم لصناعة بعض الأدوات الفخارية؟
٩	هل يعلمون أن اعترافات أهالي أورناتشوس ليست حقيقية، وأنهم مواظبون على عاداتهم العربية القديمة وشعائرتهم المذكورة، وأنهم يموتون عليها ولا يطلبون القربان المقدس لا في حياتهم ولا عند مماتهم، وأنهم لا يتبعون عادات الكنيسة الحميدة؛ إذ لو أن اعترافاتهم صادقة

	لكانوا قد غيروا عاداتهم؟
١٠	هل يعلمون أن أهالى القرية لا يحافظون على تعاليم الله والكنيسة من طلب الغفران حيث لم يطلب ذلك منهم إلا عدد قليل لا يتجاوز المائتين، وأنهم لا يطلبون القربان المقدس فى وقت الحاجة (النساء الحوامل والمرضى)؟
١١	هل يعلمون أن أهالى القرية يموتون دون أن يطلبوا القربان المقدس، وأنهم قد حذروا وعوتبوا على ذلك حيث إنه يمثل احتقارًا للقربان المقدس؟
١٢	هل يعلمون أن أهالى القرية ليسوا متدينين؛ ففي خلال الأسبوع لا تذهب امرأة واحدة منهم للصلاة فى الكنيسة إلا إذا كان هناك تعميد أو حالة وفاة، وأن الرجال الذين يفعلون ذلك قليلون، اثنان أو ثلاثة معروفون، وأنهم بصفة عامة لا يطلبون صلاة الغفران على الموتى إلا بالقوة، وأنهم لا يخصون الكنيسة بشيء فى وصاياهم، وأنهم عند وفاة أحدهم لا يُقيمون شعائر المسيحيين القدامى، ولا يوقدون الشموع، ولا يستدعون القسيس ولا يحضر وفاتهم أحد من المسيحيين القدامى؟
١٣	هل يعلمون أن هناك عادة نميمة فى القرية وهى ألا تذهب البنات إلى الكنيسة إلا بعد الزواج، وألا تذهب الأراامل إلى الكنيسة إلا بعد أن يتزوجن ثانية، وكذلك الأمر بالنسبة للرجال؟
١٤	هل يعلمون أن الأهالى - بعدم إطاعتهم لأوامر الكنيسة الحميدة - قد سببوا اشمئزاز أهل القرى المجاور لدرجة أن المملكة كلها تعلم ذلك، وأن القسيس قد عَنَّفهم لذلك مرات عديدة، وأنهم وعدوا بتغيير موقفهم لكنهم لم يتغيروا؟
١٥	هل يعلمون أن كل ما سبق معروف فى القرية وفى النواحي الأخرى؟.

<p style="text-align: center;">الثاني*</p> <p style="text-align: center;">أسئلة يجيب عنها الشهود الذين قدمهم مجلس بلدية أورناتشوس</p> <p style="text-align: center;">في نزاعه مع القسيس كوينكا بسبب امتناعه عن تقديم القربان المقدس للأهالي</p>	
١	ما معرفتهم بالقضية وأطراف النزاع؟
٢	هل يعلمون أن كل أهالي القرية أتقياء، وأن منهم مسيحيين كاثوليكين، وأنهم منذ تعميدهم أصبحوا كالمسيحيين القدامى، وأن القسيسين – ومنهم كوينكا – قد قدموا لهم القربان المقدس، وقد شاهدوا ذلك وسمعوا به من الكبار، وأن الكبار قد سمعوا بذلك من الأجداد؟
٣	هل يعلمون أن الأهالي يحافظون على أوامر الكنيسة، وأن جلالة الملك الكاثوليكي فيليبي الثاني إزاء ذلك قد قدم لهم الرعاية والحماية كالمسيحيين القدامى، وهل يعلم الشهود أن الأهالي لم يمارسوا مطلقاً شعائر طائفة محمد، وأنه لو حدث ذلك لعلمت محاكم التفتيش به؟
٤	هل يعلمون أن الأهالي جميعاً قد عاشوا وماتوا كمسيحيين كاثوليكين، وقد تلقوا القربان المقدس، وقد حضرهم عند الوفاة رجال دين مسيحي بناءً على طلبهم، وأنهم يوصون قبل وفاتهم بإقامة صلوات على أرواحهم، وأن القسيس كوينكا يتلقى أربع ريات مقابل كل وعظ، وأن الشهود يعلمون أن من مات من أهالي أورناتشوس دون أن يحضره رجل دين مسيحي فإن ذلك سببه أن الوفاة كانت فجائية أو بسبب الطاعون الذي جعل رجال الدين يعزفون عن الذهاب إلى القرية لتقديم القربان المقدس؟
٥	هل يعلمون أن أهالي القرية عادةً يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر، وأنه إذا كان البعض منهم لا يفعل ذلك فهذا سببه مسألة تذوق لا لسبب

*Q.N.OO.Militares.Archivo Judicial .Santiago Pleito nº 6831 fols. 113-114.

	آخر. أما أكل الغرينون فلأنه غذاء أهل القرية بما فيهم المسيحيون القدماء والقسيس كوينكا نفسه، أما احتفالات العصير فهي تستمر ثمانية أيام لجنى العنب، ويعلم الشهود أن هذه الاحتفالات ليست شعائر سيئة بل هي عامة في كل أرجاء المملكة؟
٦	هل يعلمون أن السيد كوينكا كان دائماً خصماً لأهالي القرية بسبب مصالحه الخاصة، وأنه يكرههم، وأنه لا يقوم بواجبه ولا يقدم لهم القربان المقدس، وأنه يحب المنازعات؟
	إضافات
١	هل يعلمون أن أهالي القرية لديهم جمعية دينية أعضاؤها أربعمائة شخص، وأنهم يتوجهون إليها ويوقدون الشموع، وأنهم يقيمون صلاة بها كل شهر، وأنهم يدفعون صدقة لقسيس القرية؟
٢	هل يعلمون أن أهالي القرية لهم جمعية دينية أخرى أعضاؤها أربعمائة شخص آخرين، وأنه عند موت أحد الإخوة فإنهم يدفنونه ومعه شمعة الجمعية والصليب، وأنه عندما يموت أحد الفقراء فإنهم يدفنونه كما لو كان عضواً بالجمعية، وأنهم يقيمون صلاة على أرواح الموتى يوم الأحد الأول من كل شهر؟
٣	وهل يعلمون أن أهل القرية لهم جمعية دينية ثالثة أعضاؤها كثيرون يقيمون صلوات على أرواح الموتى بعناية خدمةً لله وحرصاً على إنقاذ أرواحهم، وأن كل ذلك معلوم في القرية؟

- A.HN.OO.Militares.Archivo Judicial . Santiago.Pleito nº 6831. Cuad.III fols. 57-

تصريح للرهبان الفرنسيين في محافظة سان ميغيل

بالشهادة في القضية

أصدره الراهب خوان دي بارغاس

بلاسنتيا في ٢٦ سبتمبر ١٦٠٧ *

الراهب خوان دي بارغاس المندوب الإقليمي لجمعية سان فرانسيسكو

إلى كل رجال الدين لهم السلام والصحة...

طلب مني أهالي أورناتشوس دعمًا للعدل أن أمنح تصريحًا لمن يرغبون من
الرهبان ويرون أن بإمكانهم الإجابة على الأسئلة التي قدموها.

لهذا - وأنا أضع في الاعتبار الصدقات التي يقدمها أهل القرية إلى دير سان
إديفونسو ولأن مطلبهم عادل - أعطى الإنز لهم بحلف اليمين والشهادة بما
يعلمون أمام أي كاتب شرعي.

كُتِبَ في دير سان فرانسيسكو دي بلاسنتيا في ٢٦ سبتمبر ١٦٠٧

أوقع باسمي وأختتم بخاتمي.

أسطورة المؤامرة الموريسكية الكبرى

فرانثيسكو ماركيث بيانويبا

لم تتحرر المشكلة التاريخية الموريسكية من معالجات تغذيها حملة الدعاية التي قادها ومولها دوق ليرما إثر قرار الطرد^(١)، وبالتالي فإنه لا يكاد يوجد كتاب يتعرض للموريسكيين إلا ويذكر أنهم كانوا متآمرين وجواسيس وحلفاء طبيعيين لكل أعداء إسبانيا الخارجيين؛ وعليه فإنهم يمثلون تهديداً وخطراً مميتاً. وربما لا يكاد يوجد جانب آخر في القضية الموريسكية أكثر حاجة إلى مراجعة موضوعية من هذا الجانب.

ويبدو أن تحليل ظروف القهر التي تعرض لها الموريسكيون يكفي لإقناعنا بأنهم قدّموا رد الفعل الأكثر حسماً بالنسبة لهم، وأنه لم يكن أمامهم إلا تلك التصرفات المريبة. وقد كان رد فعل بعض الموريسكيين على هذا النحو. لكن الدراسات المتأنية تتيح لنا رؤية مختلفة للتآمر الذي اتهموا به عام ١٦٠٩ والذي يُشار إليه في الدراسات التاريخية الحديثة أيضاً.

هناك صعوبات مبدئية لتوثيق اتفاقيات تعتمد أساساً على الكتمان. وفي معظم الأحوال لا توجد طريقة محددة لتقدير القوة الفعلية التي كان يتمتع بها بعض الأفراد أو القيادات ولا لكشف افتراءات بعض المسيحيين ولا لجو الحيلة والحذر الذي كان يدعو إلى تصديق تلك الأسطورة^(٢). وفي الوقت نفسه من الملاحظ أن تلك "المؤامرات" لم يكن لها نتائج فعلية بالرغم من الفرص المتاحة على مدى سنوات عديدة من المعارك الخارجية المستمرة. إن المشكلة لها أبعاد واضحة إلى حد ما. كان هناك بالفعل نشاط تآمرى، لكن ذلك لا يعنى إطلاقاً أن كل موريسكى كان خائناً، ولا يعنى أن إسبانيا في عام ١٦٠٩ كانت معرضة لتهديد واضح^(٣) بسبب تواجد الموريسكيين بها.

ولكى نفهم الموضوع فهماً صحيحاً علينا أن نضع فى الاعتبار أن مسلمى إسبانيا الذين كانوا يعيشون فى ممالك مسيحية كانوا على حياد تام، وكانوا متصلين بالسلطات الشرعية اتصالاً وثيقاً. هذا الموقف التقليدى جعل من مملكة غرناطة إحدى البقاع الهادئة فى إسبانيا إبان حرب الجماعات^(٤)، وهذا ما أكده الموريسكيون دوماً، وقد عانى الموريسكيون فى إقليم فالنسيا من المصادمات، ومن التعميد الإجبارى الذى فرضته الجماعات Comunidades التى كانت تهدف إلى حرمان النبلاء من قاعدتهم الاقتصادية. وقد اندلعت ثورة جبال إسبادان عام ١٥٢٦ لمجرد أن أدان كارلوس الخامس ذلك النوع من التعميد الإجبارى. وقد اتضح أن فقدان الحرية الدينية هو أهم قضية تشغل بال الموريسكيين. إن اللجوء إلى السلاح أو إلى التآمر مع أطراف خارجية كان يمثل بالنسبة لهم رد فعل على نقض إسبانيا المسيحية العهود المقطوعة معهم والتى كانت توفر لهم الحرية الدينية.

كان للموريسكيين صلات روحية مع العالم الإسلامى الذى لم يكن يفصلهم عنه إلا بضعة أميال فى بحر يسهل عبوره. كانت شواطئ البحر المتوسط يجمعها أسلوب حياة مماثل تعززه الهجرة الأندلسية المتواصلة إلى شمال إفريقيا منذ القرن الثالث عشر. كانت هناك علاقات مختلفة فى إطار الجيرة منذ السنوات الأولى لغزو غرناطة^(٥) لكن هذه العلاقات تطورت وتدهورت فى حوض البحر المتوسط خلال حكم كارلوس الخامس وخاصة منذ عام ١٥٣٠. كان هناك إنزال بحرى وهجرات وعمليات قرصنة متعددة لكنها لم تكن سوى مضايقات خفت حدتها فى عهد فيليبي الثانى الذى أحسن تنظيم الدفاعات البحرية^(٦) لكن فى هذه الفترة أيضاً زادت حدة المواجهة مع الأتراك الذين وصلوا حتى الجزائر، وهنا بدأت إمكانية حدوث تآمر الموريسكيين.

وخلال عصر إسبانيا الإسلامية لعب التضامن الإسلامى دوراً بارزاً، وكان ذلك التضامن يؤكد حقاً فى الحصول على أى نوع من المساعدة غير المشروطة من قبل القوى الإسلامية المزدهرة. وقد استفادت ممالك الطوائف ومملكة بنى نصر

من المؤسسة الإسلامية التي تُدعى "الغُزاة" الذين يحاربون في جماعة ضد المسيحيين^(٧)، وبعد القضاء على دولة بني مرين كان من الطبيعي أن تتحول أنظار الموريسكيين إلى الأتراك، وهذه علاقة توثقها قصيدة غرناطية كتبت في أوائل القرن السادس عشر ونشرها ج.ث. مونرو^(٨). إنها قصيدة^(٩) تملؤها الرغبة في تأكيد إسلام الموريسكيين والاحتجاج على خداعهم والتأكيد على أن الإيمان محفوظ في القلوب. إن مؤلف القصيدة المجهول تؤرقه فكرة إدعاء السلطات الإسبانية أن تحول المسلمين إلى المسيحية كان طوعيةً. كان أهل غرناطة مسلمين جديرين بالتعاطف، وقد استتجدوا بالأتراك. كان ذلك أمرًا منتظرًا، أما غير المنتظر فهو أن يتزامن مع المساعدة نشاط دبلوماسي وتهديد بالانتقام من المسيحيين في القدس واحتجاج لدى البابا^(٩). إن المسلم مؤلف القصيدة لا يطلب مساعدة عسكرية داخل شبه الجزيرة. وقد ظل السلطان التركي أملا يراود أحلام بعض الموريسكيين، وفي عام ١٦٠٩ كان ثوار مويلا دي كورتيس قد فقدوا الأمل في مساعدة الأتراك، وكانوا ينتظرون معجزة تتمثل في عودة الخليفة الفاطمي على حصانة الأخضر^(١٠).

زادت احتمالات حدوث هجوم تركي يسانده الموريسكيون خلال حرب غرناطة (٦٨ - ١٥٧٠) في ظروف دولية لم تكن مواتية بالنسبة لفيلبي الثاني، وكانت تلك السنوات تمثل أوج القوة العثمانية في البحر المتوسط، ومن العجيب أننا لا نكاد نعرف شيئاً عن هذا الجانب في الثورة الموريسكية. إن وجود أو عدم وجود مشاركة تركية في النزاع يشكل نقصاً ملحوظاً في الدراسات المتعلقة بالموضوع.

البيانات الموثوق بها قليلة . كان هناك بلا شك طلب مساعدة من قبل الموريسكيين، وقد قال فرج بن فرج الموريسكي إنه تلقى وعوداً بالمساعدة من جنوفا وشمال إفريقيا والسلطان العثماني^(١١)، وقد علمت السلطات الغرناطية بالخطـة

^(٩) القصيدة موجودة في كتاب أزهار الرياض للمقرئ، وقد أعدنا نشرها في ترجمتنا لكتاب "الموريسكيون الأندلسيون"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١. (المترجم)

عندما ضبطت رسالة بعث بها قائد موريسكى إلى ملك الشرق "دون رد من شمال إفريقيا سوى الوعود وهى وعود مبهمه"^(١٣).

إن مبدأ التضامن الإسلامى هو أساس الرسالة التى كتبها الموريسكيون إلى العشالى ملك الجزائر كما يحدثنا بيريث دى إيتا: "إن محمداً العظيم يأمر صراحة فى شريعته أن المسلمين المحتاجين إلى معونة تجب مساعدتهم من قبل المسلمين الآخرين، خاصة أثناء الحروب ضد المسيحيين"^(١٤). ويقول المؤلف نفسه إن سليم الثانى كتب رسالة إلى العشالى يأمره فيها بإرسال مائتى جندي وألا يلتزم بشيء آخر إلى حين تتضح رؤية أبعاد حرب الموريسكيين. ويقدم لنا بيريث دى إيتا وصول القوة الصغيرة إلى إسبانيا فى فبراير عام ١٥٦٩ على أنها دفعة معنوية للموريسكيين. إن الأتراك وقادتهم يمثلون شخصيات مهمة فى كتاب بيريث دى إيتا: إنهم شجعان لكن بحساب ولا يتعاطفون تعاطفاً مطلقاً مع الموريسكيين. وعندما ينهزم الموريسكيون يذهبون إلى المنفى أما الأتراك فيغادرون إسبانيا بموجب اتفاق خاص مع خوان دى أوستريا. إن الأتراك أنفسهم يقتلون الملك ابن أمية فى إطار مشكلة عاطفية^(١٥). ولقد رأى ديبغو أورتادو دى ميندوثا فى مقتل ابن أمية عرضاً للسلطة وعيوبها: "كانت البداية غضب الأتراك"^(١٦).

ورغم أنه كانت هناك إرساليات أخرى فإن مشاركة الأتراك والجزائريين لم تكن سوى مشاركة رمزية. كان المقاتلون الأتراك بمثابة خبراء ومستشارين موزعين بين الميليشيات الموريسكية لتدريبها على نظام الجيوش التقليدية، وكان بعض هؤلاء الأتراك مرتزقة يتقاضون أجوراً عالية، وكان البعض الآخر يذهب إلى إسبانيا ضمن فرق المغازى. ولقد سمحت الجزائر بالتجارة الحرة مع الحبقى، ذلك المحاور الرائع، إلا أنه من المفاجئ أن نرى بخل السلطات الجزائرية عند الإمداد بالسلاح وهو الذى كان يحتاجه الموريسكيون. إن المشكلة تكمن إذن فى معرفة الأسباب التى جعلت العثمانيين يضيِّعون فرصة سانحة.

وقد أبرز براوديل^(١٧) مشاركة الأتراك في حرب غرناطة ورسم صورة لعمليات تجسس دقيقة شملت كل أنحاء إسبانيا وقام بها عمال نقل البضائع، ويعبر براوديل عن اقتناعه - غير المبني على دليل - بأن الأتراك ساعدوا في التخطيط للقيام بالثورة لكنه يعترف بأن مساعدة الأتراك للغرناطيين كانت عديمة القيمة.

لكن براوديل كان أكثر توفيقاً حين تناول حرب غرناطة من وجهة نظر الاستراتيجية التركية في البحر المتوسط^(١٨) وهنا يصل إلى نتائج تختلف عن النتائج التي توصل إليها قبل ذلك. لم تزد مساعدة العشالي - والى الأتراك على الجزائر - عن إرسال بعض الأسلحة بعضها بيعاً والبعض الآخر تبرع به الشعب وجمع في المسجد^(١٩)، ولا بد أنه كان يعمل تحت أوامر مشددة بالألا يخاطر في سبيل الموريسكيين إذ أن المخاطرة قد تترتب عليها نتائج لم يستعد لها ولكنه قد استفاد من الظروف لكي يستولى على حصن إسباني في تونس في يناير عام ١٥٧٠. كان ذلك أهم النتائج الدولية لحرب غرناطة، فالاستيلاء على الحصن لم يكن ممكناً لو لم تنتقل القوات الإسبانية الموجودة في صقلية إلى داخل شبه الجزيرة.

تتبع دراسة براوديل السياسة العثمانية، ولقد فاجأت حرب غرناطة السياسة العثمانية إذ كانت تركيا تخوض حروباً في روسيا والبحر الأحمر، وفي عام ١٥٧٠ جرت استعدادات عظيمة لإرسال الأسطول إلى إسبانيا لنجدة الموريسكيين لكن تلك المهمة كانت عسيرة إلى أقصى حد إذ كانت تتطلب التواجد خلال الشتاء في ميناء قريب [كانت فترة العمليات البحرية قصيرة جداً: من شهر مايو إلى شهر أكتوبر] وقد طلب العثمانيون من حلفائهم الفرنسيين استعمال ميناء طولون، وكانت هناك دعاية كبيرة لهذا الإجراء توحى بأن الأمر يتعلق بأهداف أخرى. كان الأمر يتعلق بالسيطرة على قبرص وعدم لفت انتباه فينيسيا. والحقيقة أن مساعدة موريسكي غرناطة لم تكن ممكنة بل إن الموريسكيين هم الذين قدموا أفضل مساعدة لأهداف تركيا. ويتساءل برادويل "هل فكر الأتراك بجدية في نجدة الموريسكيين؟".

هذه النتائج تؤكد لها الوثائق التركية التي نشرها أس هيس في دراسته الحديثة^(٢٠). وهي عبارة عن اتصالات القسطنطينية مع والى الجزائر والتي تعبر فيها عن اهتمام السلطان التركي بثورة مسلمى إسبانيا، وهناك رسالة أخرى إلى الموريسكيين. حدث كل ذلك فى أبريل عام ١٥٧٠ وهو رد فعل متأخر ويدل على معرفة هامشية بحقيقة الوضع فى غرناطة، مما يتعارض مع القول بوجود طابور خامس للأتراك فى إسبانيا. والرسالة الموجهة إلى الموريسكيين تشرح لهم الأسباب القوية التى أدت إلى الهجوم على قبرص والتي منعت تقديم مساعدة قوية لمسلمى الأندلس. ولقد ظل ثوار غرناطة على أعتاب الباب العالى ولم يكن لديهم سوى وعود غير مؤكدة بتقديم أسلحة، ولابد أن إحباط الموريسكيين تجاه السلطان التركى كان مُرّاً، وقد دعاهم السلطان إلى ثورة جديدة عام ١٥٧٤^(٢١) تتفق مع مخططاته، لكنها لم تلق من الموريسكيين أدنى استجابة.

لما كان الأمر يتعلق بموضوع قيد البحث؛ فإنه يكفى إلقاء الضوء على جانب التآمر عند الموريسكيين. إن القوة الإسلامية الكبرى قد تعاملت مع الموريسكيين ببرود وتركته لمصيرهم، وذلك خدمة لمصالحها التى تتمثل فى التوسع لا فى التضامن الدينى، وهنا يتضح أن الموريسكيين لم يمثلوا قوة عاطفية تحرك العالم الإسلامى رغم أنهم مارسوا "التقية" عامّاً بعد عام وجيلاً بعد جيل، ويبدو أن مخاوف شاعر غرناطة المجهول قد بدأت تتحقق، وقد نُظر إلى الموريسكيين على أنهم مسلمون من الدرجة الثانية أو الثالثة وكشعب وضيع، وقد علم فى ذلك الوقت أن سفارة شقيق ابن أميه السيد لويس دى بالور قد عوملت بفتور فى القسطنطينية^(٢٢). وهناك أخبار مبهمة عام ١٦٠١ تقول إن الأتراك لم يثقوا فى ثورة الموريسكيين، وإنهم عاملوا بجفاء ذلك الرسول الذى حمل إليهم الفكرة^(٢٣). كل ذلك كان معلوماً لكل من يريد المعرفة، ولقد تحدث الراهب خايمى بليدا عن قلة احترام الأتراك للموريسكيين، إذ كانوا يفضلون التعامل مع ممثلين لدول قوية^(٢٤).

كان التفاهم بين الموريسكيين والأتراك تكتفه الصعوبات ؛ فكان هناك خلاف، ولم تكن هناك معرفة متبادلة ولا سابقة لهذا التفاهم. نعلم من كتب ديبغو أورتادو دي ميندوثا وبيريث دي إيتا ومارمول أن المستشارين العسكريين الأتراك كانوا دائماً ينصحون بالحذر والانسحاب، وكل ذلك كان ضد طبيعة أهل غرناطة التي تحبذ البطولة الفردية. وكانت مملكة بنى نصر إبان احتضارها قد حاولت إرساء علاقات مع مصر المملوكية خلال أعوام ١٣٦٤، ١٤٤١، ١٤٨٢، ١٤٦٤^(٢٥)، لكن فكرة التضامن الإسلامي لم يكن لها أثر عبر المسافات الطويلة وهو نفس ما حدث عام ١٥٦٨. ويجب ألا يغيب عن الأنظار هنا النزاع بين الأتراك والمغاربة وهو ما دفع الأسرة الحاكمة المغربية - وهم من أهل البيت النبوي - إلى التحالف مع فيليبي الثاني^(٢٦).

لقد ذهب سدى كل ما فعله الموريسكيون من تمجيد لسليمان العظيم وتلقيبه بأنه أمهم الوحيد وتهنئته بفشل كارلوس الخامس في حملة الجزائر عام ١٥٤١^(٢٧). لا يجب أن يدهشنا إذن أن يصل الموريسكيون إلى حد المواجهة مع الأتراك كما حدث عام ١٥٥٠ عندما اشترك الموريسكيون اللاجئون في الجزائر إلى جانب سلطان المغرب^(٢٨). إن صلف الأتراك لم يكن يقبل حتى مفهوم الحليف؛ فالباب العالي لم يكن يقبل إلا العبودية المطلقة. ومن الطبيعي أن يحتج الموريسكيون الغرناطيون على ذلك، ومن هنا نفهم تحذيرات كارديناس من الثمن الباهظ الذي سيدفعونه مقابل المساعدة:

هل ستكونون أحراراً بذلك؟ ليست هناك إمبراطورية أكثر قسوة من الإمبراطورية التركية حيث يسمن السلطان من غداء رعيته. ستقولون إنه يتبع شريعة النبي. هو كذلك اسمًا، لكنه لا يتبع سوى قانون شهيته ولتشهد إفريقيا السجينة بذلك ومعها مائة ألف عربى من رعايا إسبانيا الذين هربوا من عبودية الأتراك. إذن من الأسوأ لكم أن تكونوا منتصرين^(٢٩).

إن المراسلات التي درسها كل من براوديل^(٣٠) وهيس تؤكد كيف أن الموريسكيين كانوا يعبرون عن اكتفائهم الذاتي من الأفراد ويطلبون الأسلحة والتنسيق الاستراتيجي. كانت كراهية الإسبان لفتح الأبواب أمام غزوات خارجية لأراضيهم وراء الحديث عن تأمر الموريسكيين، وكانت فكرة التضامن الإسلامي واشتراك المتطوعين المسلمين مع أهل غرناطة^(٣١) ماثلة للعيان.

كان الموريسكيون متمسكين بفكرة التضامن الإسلامي، لكنهم كانوا يصطدمون بأناية العثمانيين الذين تشغلهم قضية الدولة^(٣٢). كان الموريسكيون يجهلون أن فكرة التضامن الإسلامي مضى زمنها. كانوا يفترضون أن سياسة الأتراك إنما هي لصالح الإسلام ومناهضة لسياسة ملوك إسبانيا الكاثوليكية. كان الخطأ فيهم هو رؤية السلطان التركي كما لو كان فيليبى الثانى.

كانت فكرة الغزو الإسلامى كافية لبعث الكراهية الفطرية، وكان الغزو يمثل الكارثة المطلقة التي تغذيها التنبؤات والأساطير التي تتحدث عن ضياع ثانٍ لإسبانيا. كان هناك إلى حدٍ ما تصديق للحديث عن تأمر الموريسكيين مع الأتراك الذين قد يهبطون من السماء فى أى يوم. ولقد عاش الناس فى إشبيلية خلال يوم من شهر يونيه عام ١٥٨٠ ساعات عصيبة عند إشاعة أن الموريسكيين الموجودين بجوارهم قد قاموا بثورة^(٣٣) بالتعاون مع الأتراك. ومن ناحية أخرى كان الموريسكيون يتخوفون من خطة تهدف إلى القضاء عليهم^(٣٤). وكانت هناك خطة بالفعل لذلك، لكنها كانت فى وجدان قطاع من المسيحيين المتعصبين.

ومع ذلك فلم تكن الأمور على ذلك النحو من التشاؤم وسوء الظن من قبل العامة، فقد أخبر شخص يدعى أورتادو، أخبر الملك فيليبى الثانى عام ١٥٦٤ أن الشائعات التي تتحدث عن الاستعدادات للثورة فى غرناطة هى إشاعات يروجها المسئولون عن الفساد والفوضى التي يشكو منها الموريسكيون^(٣٥). وعند بداية حرب غرناطة أجرى فيليبى الثانى تقييماً للوضع الخارجى ظن البعض أنه متفائل لكن ذلك التقييم ثبت فيما بعد أنه كان صحيحاً: كان الأتراك مشغولين فى حروب

أخرى، ولم تكن المساعدة الآتية من الجزائر سهلة ولا ذات جدوى^(٣٦). وقد أصبحت إمكانية التدخل العسكري معدومة تمامًا بعد معركة ليبانتو، ولهذا فقد تخطى الملك عن فكرة توطين الغرناطيين في قشتالة، وهي مهمة كانت تشغله قبل ذلك^(٣٧). وفي عام ١٥٧٥ اكتتب نائب مستشار أراغون يقول إنه بدون ميناء قريب وملاجئ تصبح مهمة الأتراك مستحيلة التحقيق، وأضاف أنه يخشى أكثر من مغامرات الموريسكيين^(٣٨). بعد ذلك بعامين انتهى مجلس الدولة إلى أنه من غير المحتمل من الناحية الفنية أن يقوم الأتراك بغزو إسبانيا بالتعاون مع الموريسكيين^(٣٩). ولقد انتهى الخطر تمامًا بعد توقيع الهدنة بين الإسبان والأتراك عام ١٥٨١ وما أعقب ذلك من اتفاقيات. ولم تكن المخاوف في الفترة بين ٨٩-١٥٩١ مبنية إلا على شائعات من الجانبين^(٤٠). وقد ازدادت الاتهامات بالتجسس لحساب المسلمين مع اقتراب عام ١٦٠٩ في وثائق وكتابات رسمية. وقد سبق قرار الطرد الحديث المدروس عن غزو إسلامي^(٤١).

والدليل الأكبر على شعور الموريسكيين بالإحباط تجاه الأتراك هو اتجاههم نحو فرنسا اعتبارًا من عام ١٥٧٠، وقد انتقل هذا الاتجاه من الغرناطيين إلى أهل أراغون. إن الوعود المتبادلة المقطوعة عام ١٥٧٥ لم ينفذ منها شيء، إذ بدأ الفرنسيون في اشتراط أن يدفع الموريسكيون مبلغًا كبيرًا من المال^(٤٢). وبرغم الشائعات المستمرة عن التجسس لحساب فرنسا فإن الغزو الصغير عام ١٥٩٢ والذي وُعد فيه أنطونيو بيريث بالمساعدة من قبل الموريسكيين لم يلق صدى يذكر^(٤٣).

لأبد أن نصل إلى القرن السابع عشر حتى نجد الموريسكيين وقد فقدوا الأمل وعلى استعداد للتأمر لأقصى درجة مع إنريكي الرابع. كانت تلك السنوات ذات طابع تأمرى متأجج تخلت فيها الجيوش عن دورها لصالح الجواسيس وقامت خلالها إسبانيا أيضًا بمحاولة تقسيم فرنسا إلى ست ممالك مستقلة وذلك بتشجيعها لبعض النبلاء المنشقين، ورغم أن إنريكي الرابع نفسه التقى بمبعوثين موريسكيين

فإن التآمر نُسِبَ إلى دوق دى لافورس وكان صديقاً حميماً للملك الفرنسى ومديرًا سياسيًا رائعًا. ولأول مرة تقدم وثائق تلك الدوق أساسًا صلبًا لدراسة إحدى المؤامرات الموريسكية الأكثر خطورة، وفى عام ١٦٠٢ أعلن موريسكى من سيغوربى - ويُدعى حامدى مشرف - أنه من رعايا جلالة ملك فرنسا إنريكى الرابع باسم أهل فالنسيا وعلى وعد بأن يدخل أهل غرناطة فى الاتفاقية فيما بعد^(٤٤). وقد أعلن المبعوث الموريسكى ولاء المدجنين المعروف عنهم وأنهم سيمنحون ذلك الولاء لملك فرنسا نظرًا لأن إسبانيا تَغْتَصِب حقوقهم، ووعد مشرف بالثورة والاستيلاء على فالنسيا - كل ذلك مقابل بعض الأسلحة وقليل من الخبراء فى فنون القتال ولكنه أعلن أيضًا - وهذا أمر عجيب - اتفاقه مع من يدينون بدين موسى ومع المسيحيين القدامى الذين يعترضون على الاستبداد. كان الموريسكيون حينذاك قوة جذب تجمع حولها كل الساخطين على الملكية المستبدة وعلى محاكم التفتيش.

وقد أجرى الدوق مباحثات مطولة مع ممثلين آخرين للجماعات الموريسكية، وأرسل مندوبين عنه إلى إسبانيا لدراسة الوضع على الطبيعة، وقد أدهش الدوق أن يجد كميات كبيرة من الأموال لدى الموريسكيين، وأن تكون مطالب هؤلاء متواضعة ورأى أن الموريسكيين أذكىء لكن المشروع كان من وجهة نظره مستحيل التحقيق بسبب عدم القدرة على التنظيم والإجماع اللازمين للنجاح. كانت خطة إنريكى الرابع هى استخدام الموريسكيين لإحداث تمرد داخلى فى نفس وقت هجومه على الحدود الإسبانية.

كان التآمر يمثل جانبًا من جوانب حياة الموريسكيين، لكنه لا يمثل كل الجوانب كما حاول البعض أن يصور. إن ما أُشيع عن تآمر الموريسكيين لا علاقة له بواقع الأحداث. لقد استُخدم التآمر كدعاية ضد الموريسكيين، وغنى عن الذكر أن أنصار عملية طرد الموريسكيين قد طوروا تلك الدعاية، وأن أثنار كاردونا قد صاغ ذلك فى قالب روائى^(٤٥). ورغم أن فيليبي الثانى كان يُدرك تمامًا صعوبة

الغزو التركي لإسبانيا فإنه كان يتحدث عن ذلك الأمر لإثارة حمية سلطات الأقاليم أو الحصول على تبرعات من النواب^(٤٦). إن الرسالة التي تحدث فيها نبلاء فالنسيا عن عملية الطرد تتناول تلك العملية كإجراء إضطراري في مواجهة عملية غزو قريبة^(٤٧).

كان هناك حينئذٍ قطاع لا يتأثر بالدعاية ويرفض وجهة النظر الرسمية التي تتحدث عن خطر موريسكي، وقد خصص فونسيكا المتشدد فصلاً للرد على من يقولون إن الموريسكيين غير مسلحين ومحاطون بالمسيحيين، وإن المسلمين لا يستطيعون مساعدتهم. يقول فونسيكا إن ذلك لا يقلل من خطر الموريسكيين لأن معهم أسلحة وفيهم زعماء وهم ليسوا ضعفاء ولا عديمي الذكاء كما يقول البعض؛ بل إنهم يعرفون أمور الدولة وكيفية تصرّفها خاصة أهل غرناطة وأراغون وقشتالة^(٤٨).

وبالإضافة إلى ما تقدم كان هناك أشخاص يحكمون ببراعة فائقة على قضية تأمر الموريسكيين. إن مذكرة مانويل بونثي دي ليون في ٢٢ أغسطس ١٦٠٩ ترفض تمامًا الحجج التي جاءت في قرار الطرد والمتعلقة بالتأمر والمسئولية الجماعية عن ذلك. إذا كان البعض قد اتصل بالمسلمين وبالمتمردين من أهل فالنسيا فليعاقب ذلك البعض وليترك الباقي يعيش في هدوء:

ورغم أن الميل مذموم في المجرمين إلا أنه لا يصح الاعتقاد بأن كل الناس قد اشتركت فيه... وكما يحدث عادة في أمور الثورات هناك عدد قليل فقط هو الذي يتحرك، وهناك الكثيرون يتبعونهم، والكل يصمت أمام الأحداث، إما لمتابعة الأخبار الجديدة أو بالعنف أو خوفاً...

قد يثير حفيظة الرعية، وقد يثير الأقاليم المجاورة، وسيشعر الناس الذين لم يشتركوا في المؤامرة بظلم لا يُغتفر وقع عليهم^(٤٩).

وفى مواجهة أسطورة التآمر؛ كان ضمن الموريسكيين مجموعة قرّرت عدم المشاركة، انتهى فيهم مفهوم العصبية الذى نُسبه ابن خلدون إلى الإسلام الأندلسي^(٥٠). كان فيليبي الثانى يجهل ذلك الأمر الواضح، ولهذا ظن أن حرب غرناطة قد تنتقل إلى أماكن أخرى^(٥١)، والحقيقة أنه حتى داخل مملكة غرناطة لم ينضم كل الناس إلى الثورة، بل ظل الكثيرون منهم محايدين، وكانوا معارضين لها فى بعض الأحيان. كان الموريسكيون متأثرين بالبنية الاجتماعية والنفسية للمدجنين، ولهذا لم يستوعبوا فكرة توحيد إسبانيا. إن شعورهم بذاتهم كمجموعة لم يكن يتخطى الممالك الصغيرة، بل أنهم بعد طردهم من إسبانيا كانوا متواجدين فى الخارج كمجموعات جغرافية: (أهل الحدود والأندلسيون فى تونس والجزائر).

إن واقع حياة الموريسكيين يقدم أساساً لأسطورة التآمر، لكنه يقدم أيضاً أساساً لما يخالف التآمر. إن شعور الموريسكيين بانتمائهم إلى إسبانيا لا جدال فيه، وأمامنا حالة أولئك الذين فضلوا العبودية لتحاشي طردهم من إسبانيا^(٥٢). وكذلك عودة كثير من المطرودين فى زمن فيليبي الثالث؛ بل وأولئك الذين غادروا إسبانيا بعد غزو غرناطة^(٥٣) وطوافهم بالموانئ الإسبانية، لا لشيء إلا لى يتنفسوا هواء الوطن^(٥٤). وفى عام ١٦٣١ عرض الموريسكيون تسليم حصن سلا (الرباط) إلى فيليبي الرابع مقابل أن يسمح لهم بالعيش فى إسبانيا كمسيحيين^(٥٥).

إن أسطورة التآمر لا تزال تعيش بيننا. إن الجريمة التى نسبت إلى الموريسكيين فى قرار الطرد الصادر عام ١٦٠٩ تؤثر حتى الآن فى كل الدراسات التى أجريت حول الموريسكيين تقريباً^(٥٦). هناك مؤرخون كبار يعترفون دون أساس بتدخل الأتراك فى حرب غرناطة، بل يتحدثون عن شبكة تجسس موريسكية تُدار فى القسطنطينية، ولقد طالعنا فى أحد الكتب أن الموريسكيين كانوا يقضون أوقاتهم فى "التآمر وتحدى طبقة الأشراف من المسيحيين القدامى"^(٥٧). ورغم أن هذا الأسلوب ينتمى إلى عام ١٦١٠ فإن الكتاب نُشرَ عام ١٩٧٥. يطور البعض تلك النظرية الأسطورة لدرجة أن كلاوديو سانشيث^(٥٨) لا يتحدث فقط عن تآمر

الموريسكيين مع كل أعداء إسبانيا الخارجيين؛ بل يتحدث عن الدور الذي كان سيقوم به الموريسكيون في إسبانيا في القرن التاسع عشر لو لم يتم طردهم.^(٥٩)

إن التحول من مدجنين إلى موريسكيين قد حول مشكلة قديمة مستقرة إلى أمر جديد هو القدرة على إخماد أية حركة بالتأثير في الرأي العام وبالذعاية. ومن المعلوم الآن أن التأثير في الرأي العام يغير من وضع القضية عندما يصدق الناس ما يُشاع. إن العامة يتأثرون بأية كلمة أو بأى حادث بسيط أو يصدقون الشائعات وذلك ما حدث عند الكلام عن تفجير الموريسكيين لقلعة أيوب^(٥٩). وعندما نقرأ عن هلع أهل إشبيلية عام ١٥٨٠ يدهشنا تصديق الناس للحديث عن مؤامرة موريسكية تركية. وفي هذا الصدد "رأى" جيرونى بوجاديس فى أكتوبر عام ١٦٠٩ المبعوث التركى الذى جاء ليقود الثورة الموريسكية^(٦٠)، وكيف أنه كان يتخفى فى زى راهب يونانى. إزاء ذلك الهذيان لم يكن موريسكيو أورناتشوس بحاجة إلى أتراك لإعلان جمهوريتهم الصغيرة فى إقليم إكستريمادورا.

فى مواجهة تبسيط الأمور الذى رأيناه فى التاريخ الماضى يجب علينا أن نعى فى الحاضر تركيب وتعدد وثرء التجربة الموريسكية فى كل مظاهرها. إنها المهمة التى نجتمع من أجلها اليوم والتى يجب أن ننقلها إلى الأجيال القادمة.

^(*) من المعروف موقف سانثيث ألبرنوث المعادى للحضارة العربية الإسلامية، وكانت له مساجلات فى هذا الشأن مع أميريكو كاسترو المتعاطف مع الإسلام الأندلسى.
(المترجم)

الهوامش

١- تشير مقدمة كتاب الدفاع عن العقيدة Defensa Fidei للراهب خايمي بليدا الذي نشر عام ١٦١٠ في فالنسيا أن طبع الكتاب انفق عليه مبلغ أربعمئة دوقية، وقد تلقى نفس المؤلف دعماً آخر نظير كتابه تاريخ المسلمين في إسبانيا Crónica de los moros en España الذي نُشر عام ١٦١٨، وقد حدث نفس الشيء مع كل الدراسات المناهضة للموريسكيين. أما كتاب طرد الموريسكيين العادل Justa expulsión de los moriscos de España الذي نُشر عام ١٦١٢ بالإسبانية واللاتينية فهو كتاب يعرض وجهة النظر الرسمية الإسبانية أمام الرأي العام العالمي. ويبدو أن الكتابات المضادة للموريسكيين والتي نُشرت في عامي ١٦١٠، ١٦١١ كانت بإيعاز من الدولة الإسبانية. راجع في هذا الصدد دراستنا:

«El morisco Ricote o la hispana raza de estado», Personajes y temas del Quijote (Madrid, ed. Tauras, 1975)pp.229-335.

٢- يُسهب الراهب ماركوس دي غوادالاخارا في وصف " الألسنة الصامتة " أو التنبؤات التي تتحدث عن عملية الطرد، وذلك في كتابه:

Prodición y destierro de los moriscos de Castilla, hasta el valle de Ricote. إن كلمات بدرو أثنار كاردونا اللاذعة لا تتوقف عن ذكر " خيانة " الموريسكيين: إن محاولة إحصاء خيانة الموريسكيين هي بمثابة محاولة إحصاء عدد رمال البحر أو قطرات المطر أو أيام القرن ... وكانوا قد أعدوا العدة لخيانتهم الكبرى في عيد القديس خوان عام ١٦١٠ وحددوا أسماء الملوك في إسبانيا... " راجع كتاب:

Expulsión justificada de los moriscos españoles

وهناك مؤلفون معاصرون يرددون قصة دق الأجراس التي يرويها بروناتاي باراتشينا في كتابه: expulsión Los moriscos españoles ys sus (Valencia,1901) انظر في هذا الصدد أيضاً:

H.Ch.Lea: The Moriscos of Spain: Their Conversión and Expulsión (London,1901).

A.C.Hess «The Moriscos.An Ottoman Fifth Column in Sixteenth Century Spain»,The American Historical Review, 84(1968-1969)

٣- «Vers 1600...le danger d'un soulèvement general de los moréscos est probablement mythique » (p.Vilar «le temps du Quichotte», Europe,34 (1956)

٤- نكّر فرانثيسكو نونيث مولاي محكمة غرناطة بأنه منذ ٦٦ عامًا لم تحدث واقعة خيانة كبيرة: "لو تحرّيتم عن ولاء أبناء غرناطة للملك لوجدتم أنه خلال حرب الجماعات حدثت ثورات في قشتالة وفي أندلوثيا، أما في غرناطة فلم يتغير الولاء للملك." انظر :

R.Foulche-Delbosc «Memoria de Francisco Nuñez Muley» Revue Hispanique, 6 (1899).

٥- كان عبور المسلمين إلى إفريقيا بشكل غير قانوني يقلق الملك عام ١٤٩٦. جاء ذلك في رسالة بعث بها الراهب إيرناندو دي تالابيرا نشرها لاديرو كيسادا في كتاب:

Los mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel (Valladolid, 1969)
هناك معلومة غريبة في هذا الكتاب لا يتوقف عندها أحد عادةً وهي أن الملكيين الكاثوليكين كنّا بشكل رسمي الشائعات التي تحدثت عن طرد مسلمي قشتالة، وهي شائعات كان يرددها البعض " بهدف إثارة الناس".

٦- للحصول على ملخص لتلك الأحداث راجع:

«Dangers from Aboard» en H.ch.Lea. The Moriscos of Spain

وهناك بيانات حديثة عن مملكة غرناطة في دراسات ن. كابريانا
Almería morisca , «Emigrante y monfies» (Universidad de Granada, 1982).

أما عن مملكة فالنسيا فانظر :

García Martínez: Bandolerismo, piratería y control de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II (Universidad de Valencia, 1977)

٧- انظر :

M.A.Ladero Quesada. Granada. Historia de un país islámico, Madrid Gredos, 1969.

I de las Cagigas los mudéjares (Madrid, CSIC, 1948).

٨- «A curious Morisco Appeal to the Ottoman Empire», Al-Andalus, 31 (1966).

٩- ليست الفكرة غريبة كما يبدو؛ فالمسلمون اعتبروا الاتفاقيات المبرمة كواجبات قانونية يجب احترامها كما يوضح ذلك الغرناطي المجهول.

«As for him who grants a treaty and then betrays it, that is a dead forbidden by every faith» (p.300).

ولهذا أرسل ملك مرسية إلى البابا في القرن الثالث عشر سفارة يطلب منه فيها -

كرئيس روى للمسيحيين - أن يلزم ملك قشتالة بالوفاء بتعهداته. انظر :

Cagigas: los mudejares

وبعد غزو غرناطة طلب بعض أشراف المملكة من روما تأكيد بنود تلك الاتفاقية [راجع المصدر السابق]. إن كتاب : La Coran Crónica de Alfonso XI الذى وضع عام ١٣٤٤ يتحدث عن موت الأميرين بدرو وإنريكي فى غرناطة كانتقام إلهى نتيجة نقض المعاهدة. انظر :

Menéndez Pidal: «Ideales morisco en una Crónica de 1344», Nueva Revista de Filología Hispánica, 7 (1953).

كان نقض المعاهدات يمثل شكوى مستمرة لمسلمى إسبانيا ضد المسيحيين، ويذكر ميكيل دى إيبالثا شكوى لسلطين الممالك قدمت كاحتجاج إلى الملكين الكاثوليكيين ضد الممارسات القمعية التى مورست مع المسلمين. انظر :

«Improbables orígenes islámicos de la Inquisición y opinión de musulmanes sobre ella», La Inquisición española (Madrid , Siglo XXI, 1980)

-١٠- انظر :

Fr. Damian Fonseca Relación de la expulsión de los moriscos del reino de Valencia (1878).

López Baralt «Crónica de la destrucción de un mundo: la literatura aljamiado -morisca» Bulletin Hispanique, 82 (1980)

عن الأثرak ودورهم كمنتقمين للموريسكيين انظر :

J. Penella «Literature morisque en espagnol en Tunisie» en Recueil d'études sur les Moriscos andalus en Tunisie (Madrid, 1973)

وعن الاعتقاد بنصر الإسلام الحاسم القريب فى الأدب الموريسكى راجع :

W. Honerbach «los moriscos a la luz de los documentos». Actas del coloquio internacional sobre literatura aljamiada y morisca (Gredos, 1978)

انظر أيضًا :

N.Cohn «Medieval Millenarism: its Bearing on the Contemporary Study of Millenarian Movements», en Millennial Dreams in Action (New York : Shoken Books, 1970).

-١١- انظر :

Luis Mármol Carvajal: Historia del rebelión de los moriscos del rynode Granada (1600)

إن وجود جنوفا ضمن الحلفاء المتوقعين يُعزى إلى علاقاتها الاقتصادية مع مملكة بني نصر . انظر : Ladero : Granada

انظر : Mármol: Historia del rebelión -١٢

Guerra de Granada (Madrid, Castalia,1970) -١٣

كان Lea قد أشار إلى مشاركة القوى الإسلامية في حرب غرناطة في كتابه : وعندما علق T.Halperin Doughy على أحلام الموريسكيين قال " إن ذلك لا يعنى أن الغزو الإسلامى كان يمثل خطراً كبيراً ؛ فرغم أن الأتراك كانت لهم صلات بالموريسكيين إلا أن ظروفهم لم تكن تسمح بغزو إسبانيا ... " راجع:

Un conflicto nacional: moriscos y cristianos viejos en Valencia, Cuadernos de Historia de España (1955).

وقد أشار كارو باروخا إلى ضعف مساعدة الأتراك في كتابه:

Los moriscos del reino de Granada (Madrid 1557)

انظر كتاب : Guerra civiles de Granada, 2ª parto (Madrid191 ويشير -١٤

بيريث دى إيتا إلى رسالة سليم إلى العشالي المتعلقة بمساعدة الموريسكيين والرسالة اللاحقة التى بعث بها العشالي إلى ابن أميه والتي يتحدث فيها عن وعود السلطان التركى تذكر اتخاذ شقيق ابن أمية كرهينة. ومن جهة أخرى قدم ملك فاس إلى ابن أمية نصيحة ثمينة تتمثل فى التصالح مع ملكه الشرعى ووعده بالمساعدة فى حالة توفير موائى حرة فى إسبانيا وهو أمر صعب التحقيق بالنسبة له.

حول معالجة بيريث دى إيتا وغيره لحادث اغتيال ابن أمية راجع : A.Mas: les -١٥

Turcs dans la litterature espagnole du siecle d'or (Paris,1967).

انظر : Guerra de Granada, p. 291 -١٦

انظر : -١٧

The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II New York, 1973) p.1662.

المصدر السابق ص ١٠٦٦ -١٨

يتخيل بيريث دى إيتا أن عجوزاً جزائرياً نادى بالتضامن الإسلامى ووعده من يتبرع بالأسلحة لأهل غرناطة بالجزء الأوفى ... الأمر السيئ هو أن العشالي جمع مجلسه للتشاور بشأن كمية الأسلحة الهائلة التى تم جمعها وقرر المجلس استشارة القسطنطينية، وكان قرار الأتراك هو مساعدة أهل غرناطة فى أضيق الحدود. يشير -١٩

- بذلك بيريث دي إيتا إلى خيانة الأتراك لمبدأ التضامن الإسلامي.
- ٢٠- انظر : The Moriscos.au Ottoman fifth Column in Sixteenth Century Spain
- ٢١- انظر : The Moriscos. P.17
- ٢٢- هناك معلومة تسبق ما ذكره لويس كابريرا دي كوردوبا في : Blanco González ed. Diego Hurtado de Mendoza : Guerra de Granada, p.197
- ٢٣- انظر : F.Janer: Condición social de los moriscos de España (1857),p. 279
- ٢٤- وهذه العادة لا تهم كثيراً انظر : Crónica de los moros en España .p.927
- ٢٥- انظر : Ladera: Granada, p. 101
- ٢٦- انظر : Hess: The Forgotten Frontier
- ٢٧- انظر د. عبد الجليل التميمي: «Une lettre des Morisques de Grenada au Sultan Suleiman Al-Kaumi en 1541», revue d'Histoire Haghrebine, 3 (1975)
- يذكر هنا أيضاً أن أهل غرناطة طلبوا المساعدة من السلطان محمد الفاتح في عام ١٤٧٧، ويقدم هيس A.C.Hess بعض المعلومات عن إرسال كمال الرئيس من قبل الأتراك إلى سواحل غرناطة، وأن اتصالات هذا الأخير قد أظهرت ضعف مملكة غرناطة. انظر : The Forgotten Frontier, p.60.
- ٢٨- انظر :
- Ch.de la Veronne «Política de España, de Marruecos y de los turcos en los reinos de Fez y Tremecen a mediados del siglo XVI.»
- كان سلطان فاس يحاول الارتباط بالعثمانيين، وكانت هناك خطة مغربية عثمانية للتدخل عام ١٥٨٠ في مشكلة البرتغال. انظر :
- D. Cabanelas: «Proyecto de alianza entre los sultanes de Marruecos y Turquía contra Felipe II» Miscelanea de Estudios Árabes y Hebraicos, 6 (1957).
- ٢٩- انظر : Antonio de Fuenmayor : Vida y hechos de Pío V (Madrid,1959)
- طبقاً لما ذكره : Javer: Condición social de los moriscos, p. 143
- ذلك الخطاب يصعب إثباته بطرق أخرى إلا أن السياق محتمل في تلك الظروف وهو

- يعبر عن أفكار كانت واردة حينذاك، وينكر مارمول أن أهل البيازين كانوا لا يريدون دخول البربر إلى أراضيهم ولا أن يكونوا هم تابعين لملك مسلم* راجع: Historia del rebelión.
- ٣٠- أخبر سفير جنوفا في اسطنبول عن طلب مساعدة من قبل الموريسكيين، وأن المساعدة المطلوبة تتمثل في الأسلحة. انظر : The Mediterranean II, p. 1062.
- ٣١- انظر : Cagigas : Los mudéjares, p.470, Ladero: Granada, p. 65
- ٣٢- انظر:
- J.A. Maravall «La corriente doctrinal del tacitismo político en España», Cuadernos Hispano Americanos 238-240 (1969).
- ٣٣- انظر : C.López Martínez: Mudejares y moriscos sevillanos (Sevilla 1935) ويعلق دومينغيث أورتيث على غرابة الثورة في مقاله: «Los moriscos granadinos antes de su definitiva expulsión », Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos 12-13 (1963-1964).
- عن هذه المحاولة وعن تفكير إشبيلية الدائم في الثورة الموريسكية. راجع: R. Pike: «An Urban Minority: The moriscos of Seville», International journal of Middle Eastern Studies, 2 (1971).
- ٣٤- انظر : L.Cardillac: Morisques et Chretiens.Un affrontement polemique (1492-1640), Paris, 1977 H. Pieri «L'accueil par des Tunisiens aux Morisques expulsés d'Espagne: un temoignage morisque», Recueil d'Etudes p.132
- ٣٥- انظر : Brandel: The Mediterranean II, p. 787
- ٣٦- المصدر السابق، ص ١٠٦٣
- ٣٧- انظر :
- B. Vincent «L'expulsión des Morisques du Royaume de Granade et leur repartition en Castille (1570-1571)»
- ٣٨- انظر :
- V.Regla «La expulsión de los moriscos y sus consecuencias», Estudios sobre los moriscos. A de la Universidad de Valencia, 37 (1963-1964) p.44
- ٣٩- انظر :
- Boronat: Los moriscos españoles pp. 282-285

- ٤٠- يبدو أن تركيا في ذلك التاريخ كانت تظن أن الموريسكيين قاموا بالثورة. انظر: Regla: «La cuestión morisca y la coyuntura internacional en tiempo de Felipe II», Estudios sobre los moriscos pp.51
وحول عجز العثمانيين في تلك السنوات راجع: Brandel: The Mediterranean II, pp. 1188-1195
وعن فشل عملية إنزال عام ١٥٩١ راجع: Hess: The Forgotten Frontier
- ٤١- يتحدث هيس عن حملة منظمة للإشاعات التي تتحدث عن غزو شمال إفريقيا لإسبانيا في أعقاب قرار طرد موريسكي فالنسيا في أبريل عام ١٦٠٩. انظر: The last Frontier, p.154
- ٤٢- انظر: Cardaillac: Morisques et Chretiennc
- ٤٣- Regla: «La expulsión de los moriscos y sus consecuencias» pp.47
- G. Marañón : Antonio Perez (Madrid, Espasa Calpe 1963) II, p.630
- ٤٤- انظر: Memoires authentiques de Vacques Nomparr de Caumont , duc de la Fonce, (Paris,1843),p.341
عن مؤامرات إنريكي الرابع ودوق دي لا فورس مع الموريسكيين الأراغونيين راجع: Duc de La Force le marechal de la Force.Un serviteur de sept rois (1558-1652) Paris (1950) pp. 143 y 55
- ٤٥- بسبب حشية إحدى المحظيات من ضياع مكانتها تم اكتشاف الفسيس الأرمني المتخفي أو الجاسوس الذي أرسله الأتراك إلى إسبانيا للاتفاق على تفاصيل عملية الغزو. انظر: Expulsión justificada, ²⁵ parte.
- S. Álvarez Gamero: «Nueve romances sobre la expulsión de los moriscos», Revue Hispanique,35 (1915)
- ٤٦- من فيليبي الثاني إلى والي سردينيا في ربيع عام ١٥٧٠. انظر: Regla Estudios sobre los moriscos ,p.16
حول اقتراح الملك أمام مجلس البلاط المجتمع في قرطبة في مارس ١٥٧٠ راجع: López Mata «Burgos en la sublevación de los moriscos de Granada», Boletin de la Real Academia de la Historia 1411 (1957) p. 355

- ٤٧- كان أهل فالنسيا يتفاوضون مع الأتراك ومع مولاي زيدان لكي يقدموا لهم في العام التالي " مسلمين محاربين " راجع : Janer: Condición social de los moriscos, p.298
- ٤٨- انظر : Justa expulsión de los moriscos de España, p.193
- ٤٩- انظر : Janer: Condición social de los moriscos pp. 285-286
- ٥٠- انظر : Cagigas : Los mudéjares, p.481
- ٥١- في الرسائل المشار إليها إلى وإلى سردينيا. إن عزلة الموريسكيين الكاملة لم تغب عن بال براوديل، لكنه ينسب ذلك إلى فعالية جهود الشرطة. راجع : The Mediterranean II, p.790 ورغم أنه قد اتخذت الوسائل المناسبة لمنع الاتصال بين أهل غرناطة وأهل فالنسيا فإن بعض الرسل لم يجدوا صدى هناك. راجع : García Martínez «Bandolerismo, piratería y control de moriscos en Valencia» p. 46.
- ٥٢- انظر :
- Domínguez Ortiz «Los moriscos granadinos antes de su definitiva expulsión», Miscelanea de Estudios Árabes y Hebraicos 12-13 (1963-1964)
- من المحتمل - كما يلاحظ هنا - أن بعض صكوك العبودية بالاختيار ليست سوى حيلة اتبعتها بعض المسيحيين المتعاطفين لإنقاذ الموريسكيين من المنفى.
- ٥٣- انظر : Ladero: Los mudéjares de Castilla. Pp.221-224
- ٥٤- بالقرب من سبته وطنجة. انظر :
- J.Pignon «Une geographie de l'Espagne morisque», Recueil d'Etude p.85.
- ٥٥- انظر :
- G.S Colin «Projet de traite entre les morisques de la casba de Rabat et le roi d'Espagne en 1613», Hesperis 42 (1955)
- وحتى هناك كانوا موزعين حسب أصولهم الجغرافية في إسبانيا، وكانت علاقاتهم مع العرب سيئة لدرجة نشوب الحروب بينهم، وكان بود ملك المغرب لو يدمرهم لما عُرف عنهم مع أنهم كانوا مسيحيين في السر، وفي الواقع كان المنفيون يشعرون بالإحباط. في عام ١٦٣٧ كرروا عروضهم السابقة لإسبانيا، وفي عام ١٦٤٠ كانوا على استعداد لتقديم ذلك لأية قوة أوروبية.
- ٥٦- كان هناك من يفكر بطريقة تدع جانباً نظرية التآمر، ويعترف برونات نفسه بأن

التآمر والمخاوف من الثورة كانت كلها مبررات ... وأن السبب الحقيقي في عملية الطرد كان ذا طابع ديني " انظر : Los moriscos españoles I, p.396 ويجب أن نذكر هنا ذلك الموريسكي الذي قال إن ملكي فاس ومصر لم يقدموا للموريسكيين سوى الكلام. انظر :

A.Turki «Documents sur le dernier exode des Andalous vers la Tunisie»
Recueil d'Etudes p. 119

انظر : -٥٧

A. Magraner Rodrigo: La expulsión de los moriscos, sus razones jurídicas y consecuencias económicas para la región valenciana, Valencia, 1975, p.43.

انظر : -٥٨

Después de leer a Lapeyre » en Miscelanea de Estudios Históricos León, 1970) pp. 509-517

هذا الحديث ليس جديداً؛ فقد تناوله قبل ذلك كانوباس ديل كاستيو في رده على خطاب التحاق سابيدرا بالمجمع اللغوي الإسباني. انظر :

Memorias de la Real Academia Española, 6 (1889)

Janer : Condición social de los moriscos pp. 269-270 انظر : -٥٩

انظر : -٦٠

J. Pujades Dietari ed. J.M. Casas Homs (Barcelona 1975)

إذا قارنا هذه المعلومة بما يذكره أثنار كاردونا في هذا الصدد نعلم كيف لجأ البعض في تلك الأيام إلى استعمال شائعة القسيس اليوناني في أراغون.

وثائق حول الموريسكيين فى المغرب

رودولفو خيل غريماو

من الواضح أننا يجب أن نتعمق فى دراسة مشكلة الموريسكيين فى المغرب. إن الحاجة ملحة إلى بدء - استئناف - سلسلة من الدراسات حول وصول الموريسكيين إلى المغرب ونشاطهم ومركزهم الاجتماعى ولغتهم وأثرهم التاريخى. من المعلوم أن الدراسات المتعلقة بالموريسكيين فى المجتمع المغربى قليلة ومعظمها قديم، وكانت لى - مع فريق عمل - فكرة جمع الدراسات المنشورة ونشرها كلها فى مجلد واحد يسهل الحصول عليه. كانت هذه هى فكرة كل من ميكيل دى إيبالثا ورامون بتييت عند نشرهما "موجز الدراسات عن الموريسكيين الأندلسيين فى تونس" عام ١٩٧٣، وهى مهمة واصلها سليمان مصطفى زيس ومعاونوه.

لهذا فقد قمنا بجمع نصوص الدراسات التى نشرت بالفرنسية والإنجليزية والإسبانية والعربية، وبدأنا فى ترجمة هذه الدراسات إلى الإسبانية، وأثناء ذلك فهمنا أن عدد الدراسات قليل وليس هناك مبرر لنشرها فى مجلد. كانت الفكرة الثانية تتمثل فى جمع نصوص لم تُنشر بعد وترجمتها إلى الإسبانية، وهى نصوص تتعلق بالعائلات وتاريخ تطوان (مثل دراسة محمد داود). بهذا الشكل تحولنا من جمع نصوص قديمة إلى محاولة جمع دراسات يتم إعدادها ومصادر لتلك الدراسات. وكانت الفكرة الثالثة تتمثل فى إعادة نشر الدراسات التى نشرت ثم جمع الدراسات التى يتم إعدادها والمصادر التى يتم اكتشافها. اعتقدنا أن الجانب الأخير يمثل مجالاً واسعاً فقمنا بعمل حصر مبدئى للمكتبات والمصادر الوثائقية فى الدولة والمكتبات والأرشفات الخاصة لأسر من أصل موريسكى. لم نجد شيئاً فى المكتبات؛ أما بالنسبة للأرشفات الخاصة فقد وجدنا عند الأسر رغبة قوية فى التعاون، إلا أن هذه الرغبة لم تستغل نظراً لتأجيل المشروع.

وكان تأجيل المشروع لسببين: الأول أننا - وبعض أعضاء الفريق - قد كرسنا جهودنا لمشروع آخر رأينا أنه أكثر إلحاحًا: نشر وإنشاء مكتبة إسبانية عن شمال إفريقيا وعن دول المغرب العربي بشكل خاص من المعلوم أن أول كتاب في هذا الصدد قد نُشرَ عام ١٩٨٢ "تحو بيليوغرافيا إسبانية عن شمال إفريقيا (١٨٥٠-١٩٨٠)" ويُشكل واحدًا من أربع أو خمس مجلدات تتضمن ٨٠٠٠٠ مرجع. إن حجم الدراسة والرغبة الملحة في إنهاؤها قد جعلت من غير الممكن الاستمرار في المشروع المذكور. السبب الثاني في تأجيل المشروع هو أننا أدركنا الأهمية القصوى والأثر العميق الذي أحدثته الهجرة الموريسكية في المغرب، ولهذا رأينا معالجة الموضوع من وجهة نظر جديدة أكثر شمولاً.

وهكذا رأينا أن جمع الدراسات عن الموريسكيين في المغرب يجب أن يمر بعدة مراحل ويجب أن يتم عبر منشورات متتابعة وأن يتضمن أولاً الدراسات التي نُشرت بالفعل ثم تُنشر الدراسات التي لم تُنشر، خاصة المصادر التي يتم اكتشافها. المشروع بهذا الشكل طموح ويحتاج إلى إمكانيات كبيرة. يحتاج إلى عدد كبير من الباحثين (مغاربة وإسبان) يشكلون فريق عمل لفترة طويلة تدعمه المؤسسات الحكومية والأكاديمية، يجتمع بشكل دوري وينشر ما يتم جمعه من مصادر.

وبغض النظر عن الوثائق التي سيتم جمعها هناك سلسلة من الموضوعات يمكن البدء فيها أو مواصلة ما تم عمله فيها. إن دراسة أسماء الأعلام والألقاب ذات الأصل الموريسكي في تطوان والرباط وغيرها ستقدم لنا قائمة طويلة تكمل قائمة الأسماء التي جمعها رحومي وابن عزوز منذ ثلاثين عامًا. من بين تلك الأسماء هناك أسماء لا تزال موجودة حتى الآن، وهناك أسماء اختفت إلا أنها تركت أثرًا في المصادر التاريخية القضائية:

ابير، ابيتيو، بويرتو، بانثي، الأبادي [من أوبيدا] ابن كلحة، أبو خرص، ابن كريس (من بني حزمارة) ابن إبراهيم [عائلتان إحداهما جبلية هي أولاد الهواري والثانية عربية وهي ابن اثيرو] ابن الأحمر، أغزول، أبريل، الأندلسي، كاستيو،

اشعاش، بركة، البرميو، البروبى، البيتاورى، البالنسيانو، باييسا، بويز، البولو، بلاسكو، البشارى، سكيرج، البوتى، التبلىن، جنينو [عائلتان واحدة من الأندلس والثانية من الريف]، الحبرى، الخطيب، داود، آل ديليرو، آل راينا، آل ريكاينا، آل ريتود، ريان، آل ريدوندو، آل رويث، آل راميريث، الزكرى، زركيك، آل توب، طنانة، آل كراسى، كريكسى، آل لالوسى، لوب، لوكاس، آل لويرى، مولينا، مدينة، آل مولاتو، آل موفق، مونتى مايور، مندوسا، موراريكس، مارين، آل نصار، النقشيش، سالاس، آل سوردو، العطار، آل عطيطار، غايو، غارسيا، الغرناطى، آل غيرسا، غيلان، الفخار، فارايا، الفزيكارى، الفكاي، فرطوط، القرطبى، الدوتى، آل كابريرو، آكسوس، كاستيو، الكرفى، قزمان، السراج، الشوربى، لوباريس [من اوليبارس]، بلافريكس، ثيرون، بوينو، بارغاس، كاسيرى، مولين، كراكسو... إلخ. يجب أن نضيف أيضا أسماء الشخصيات التى كان لها إسهام تاريخى فى بعض فصول تاريخ المغرب مثل مؤسس تطوان سيدى محمد بن على المنظرى^(*) وعائلة لوكاس وعائلة توريس وعائلة بن يعيش وعائلة بن عزوز أفيلال. لاشك فى أن الدراسة المتعمقة للوثائق القضائية والتاريخية الموجودة ودراسة المناطق القروية فى شمال المغرب خاصة منطقة جبالا مكنت من جمع أسماء ربما ارتبطت بالمهاجرين الموريسكيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

من المهم أيضا إبراز الكلمات ذات الأصل الإيبانى فى اللهجات المغربية وبالتحديد فى المناطق التى استوطنها الموريسكيون، وقد جمع هذه الكلمات كل من بن عزوز ورحومى ومن بينها: توماتيكس، رابا، تنبوكا، توبا، طرمبة، أرغات، غالون، غارو، غاريوتا، غانا، غانيو، كاكى، كانانيور، كافاتيرا، كوكو، كارتا،

(*) هو أبو على المنظرى. حول هذا القائد انظر كتاب "المنظرى الغرناطى مؤسس تطوان"، تأليف: غوثالبىث بوسيتو، ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧.

كابوت، كاب، كوتشينيا، لباريا، لابانا، لاستيك، لارو، لاريا، ماكينه، موسايكو، دبلون، اسكويلا، فابور، فيرما، فورا، فالتا، اسبريتو، سيليا، اسكرفيلا، شوكلات، بابور، برنيطة، بارتال، برّاطا، برنيث، بطاطا، بانبيثا، بوف، باغار، بانديرا، باستيلا، بورسلانا، بثكيتو، بيتو، بابوكس، بولا، راى، راينا، روبلو، ريدوما، ريال، رويدا، كوربا، سويرتى ... إلخ.

من المهم أيضًا دراسة أثر الموريسكيين - كموظفين فى المخزن - فى المفردات المستعملة فى الاستشارية المغربية على مدى قرنين، وفى هذا المجال يبرز أثر الموريسكيين اللغوى والفنى فى المفردات المستعملة فى البحرية المغربية. إن هذا الأثر لا يقتصر على الصيد وأسماء الأسماك، بل يشمل أسماء الأواني المستعملة فى تطوان وغيرها. إن أغنيات المهد فى تطوان ذات أثر موريسكى، وهناك أمثال ذات أثر موريسكى نجدها فى تطوان وتجرى دراستها حاليًا.

ومن وجهة النظر التاريخية تجدر الإشارة إلى ضرورة التعمق فى دراسة أثر وجود الموريسكيين فى أربع مجالات رئيسية. المجال الأول يتعلق بالأندلسيين الذين أقاموا فى الرباط، وقد نُشِرت دراسات عنهم لكن يجب زيادة هذه الدراسات إذ إن سياستهم كدولة مستقلة أو شبه مستقلة وعلاقاتهم مع الدول المعادية لإسبانيا لها قدر كبير من الأهمية. من المهم أيضًا دراسة اتصالات تلك الحكومة الموريسكية مع مستشارية فيليبى الرابع بهدف العودة إلى إسبانيا وتسليم الأراضى التى تحتلها فى المغرب إلى التاج الإشباني مقابل حق المواطنة فى شبه الجزيرة. أعتقد أنه بالنسبة لهذا الموضوع يجب البحث فى وثائق كونت أوليباريس الموجودة فى الأرشيفات الوطنية أو ضمن مجموعات خاصة وفى أرشيفات مدينا سيدونيا لكى نرى إلى أى مدى لم يهتم أوليباريس كثيرًا بإمكانية عودة المهاجرين الموريسكيين إلى المغرب بشكل أو بآخر، وإلى أى مدى كانت هناك علاقة بين العودة وبين محاولات الثورة فى أندلوثيا فى نفس الوقت الذى حدث فيه محاولات

للثورة فى البرتغال وقطالونيا. إن النشاط السياسى للموريسكيين فى الرباط كان على علاقة بسياسة موريسكى شمال المغرب. المجال الثانى الذى تجب دراسته هو وضع الموريسكيين فى تطوان وجبالا الذين أسسوا مساكن على النمط الأندلسى وأقاموا فى منطقة مجاورة للمضيق وشكلوا حصناً فى مواجهة المناطق التى احتلتها إسبانيا والبرتغال. والقائد الذى أسس تطوان - سيدى المنظرى - ليس موريسكياً، لكنه غرناطى هاجر فى أواخر فترات غرناطة الإسلامية. إن حياة وأعمال هذا القائد تُعد بداية لإقامة نمط معيشى مشابه للأندلس التى كانت على وشك الضياع وبداية لإقامة حدود فى مواجهة التوسعات المسيحية. إن مولاي إبراهيم بن راشد أمير شفشاوين التاريخى والست الحرة حاکمة تطوان التاريخية كانا من أم موريسكية من بيخير دى لا فرونتيرا. وكانت مساهمة الموريسكيين فى تأسيس شفشاوين ملحوظة حسب ما يؤكد الذين قاموا بدراسة هذه الناحية فى تاريخ المغرب. المجال الثالث هو مشاركة القوات الموريسكية - وهى قوات تدربت على النمط الأوروبى فى الحرب - فى معركة الملوك الثلاثة أو وادى المخازن التى قُتلَ فيها ملك البرتغال. إن هذا التنظيم العسكرى وتدريب القوات له علاقة بمحاولة الموريسكيين الوصول إلى إسبانيا عن طريق الحرب، وله علاقة بسياسة فيليبي الرابع وبالحروب الأوربية آنذاك. المجال الرابع يتعلق باندماج الموريسكيين فى الحياة المغربية ونشاط قراصنة تطوان وبأعمال الخبراء الموريسكيين فى إدارة المخزن وبالنشاط التجارى الذى مارسه الأسر الموريسكية على مدى القرون التالية، وبالمحافظة على الهوية الخاصة بالموريسكيين الذين تزوجوا فيما بينهم، سواء فى الرباط أو تطوان.

ودفعاً لهذا النوع من الدراسات يجب أن نشكل اعتباراً من هذه اللحظة خطة عمل وتعاون لتهيئة المناخ اللازم. إن خطة العمل يمكن أن تبدأ بإنشاء لجنة صغيرة من الباحثين المرتبطين بالمؤسسات الأكاديمية المغربية وبالمؤسسات الثقافية الإسبانية، ويمكن أن يكون أول أهداف العمل هو نشر الدراسات التى تمت

بالفعل عن الموريسكيين في المغرب ثم نشر الدراسات التي لم تُنشر بعد عن هذا الموضوع والبحث في الأرشيفات الخاصة بالعائلات عن وثائق لم تُنشر بهدف نشر هذه الوثائق.

أقترح إعداد قائمة كتب مختلفة الحجم عنوانها العام "دراسات حول الموريسكيين في المغرب"، وأن تُنشر هذه الدراسات بلغاتها الأصلية على نفقة المؤسسات الأكاديمية المغربية والمؤسسات الثقافية الإسبانية. إن هذه الكتب التي أتحدث عنها يمكن أن تهيئ المناخ اللازم للعمل والدخول في مجال دراسة المهاجرين الموريسكيين إلى المغرب. أقدم فيما يلي قائمة بالدراسات التي نُشرت، وهذا هو الشيء المتاح حتى الآن. وتشكّل هذه الدراسات أول اقتراب إلى الموضوع. من بين هذه المراجع هناك دراسات بها قوائم مراجع عن الموريسكيين بصفة عامة. والقائمة التي أقدمها ليست شاملة إنما هي مجرد بداية.

الهوامش:

ABU GANDAR (BUGENDAR), Ta'rij Ribvt al-Fath, Rabat, 1345, pp.194-197 v 202ss, etc.

أمر أصدره جلالة الملك الكاثوليكي فيليبي الثاني لطرده مورييسكي ممالك غرناطة ومرسيه وجيان وإشبيلية وأورناتشوس، ويوضح فيه الأسباب العادلة لهذا الطرد والطريقة التي يجب أن يتم بها. صدر في مدريد في ديسمبر ١٦٠٩ ونُشرَ بأمر خوان دي مندوثا ماركيث سان فيرمين في إشبيلية في ١٢ يناير ١٦١٠.

BARRANTES, Vicente, Aparato para Historia de Extremadura Maghrebini, III Nápoles, 1968, pp.1-43.

SERRANO y SANZ, "Expulsión de los moriscos andaluces", Rev. Contemporánea, tomo XV, 1893.

SERRANO y SANZ, "Vida del Capitán Alonso de Contreras", Boletín de la Real Academia de la Historia, Madrid, 1900.

TAPIAGARRIDO, José Ángel, "La costa de los piratas", Revista de Historia militar, 1972, 32, páginas 73-103.

TERRASSE Henri, "Les portes de l'arsenal de Salé", Hespéris, Rabat, s.a., t. II, 4 trim., pp.357-371.

القصة الحقيقية التي تُروى فيها الوقائع التي أحدثها القرصان بلانكيو (وهو مورييسكي مرتد من مدينة أركوس) حين كان في سواحل إسبانيا واقتاد أسرى كثيرين، وتُروى فيها المأساة، وكيف أنه وقع في قبضة خوان ميادو، وانتصار هذا، والعقاب الذي أوقعه بالمورييسكي ورفاقه، طُبِعَ في ملقة عام ١٦٢٣.

VINCENT, Bernard. "L'expulsion de morisques du royaume de Grenade et leur repartition en Castille (1570-1571)", Mélanges de la Casa de Velázquez, VI, 1970, pp.210-246.

المؤلفون فى سطور:

نخبة من أبرز المتخصصين فى الدراسات الأندلسية والموريسكية

المترجم فى سطور:

- الاسم: جمال أحمد عبد الرحمن
- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩)، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومريد.
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مريد المركزية (١٩٨٩).
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإشباني والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

التصحيح اللغوى: رجب الصاوى

الاشراف الفنى: حسن كامل



هذا الكتاب عبارة عن دراسات موجزة لعدة مؤلفين، لم تتح لبعضهم فرصة نشر دراسته في كتاب كامل، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول يتحدث عن موضوع لم يطرقه الباحثون كثيراً، وهو تأثير الإسلام الأندلسي بالمسيحية، ويوضح أن تسامح المسلمين مع مسيحيي الأندلس امتد ليشمل مشاركتهم في الاحتفال بعيد الميلاد وعيد العنصرة.

مقالات القسم الثاني تتعلق بالجانب الديني عند الموريسكيين، وتوضح أن تأثير الإسلام الأندلسي بالمسيحية واصل خطاه حتى بعد غرناطة، أما القسم الثالث فيتحدث عن جانب آخر من جوانب القضية الموريسكية ويعرض وثائق لم تتح الفرصة - على حد علمنا - لنشرها في كتاب كامل.